الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية

الجزء السادس

أدب الهجرة اليمنية

الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية

الجزء السادس

(6 - 9)

أدب الهجرة اليمنية

الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية (تسعة أجزاء)

الطبعة الأولى 2022م

رقم الإيداع بدار الكتب 2022/72

الناشر: مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية

مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية

ص.ب (18226) صنعاء – اليمن

هاتف: 01-442432

بريد الكتروني info@muhajirun-ye.org

رابط الموقع www.muhajirun-ye.org

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير إلاَّ بإذن خطي من المؤسسة.

Al Khair

مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية

Al Khair Foundation For Social Development

راعي المشروع – رئيس مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية
الأستاذ / علوان سعيد محمد الشيباني

أسماء فريق دراسة الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية (ترتيب أبجدي):

1- أ. أحمد صالح الجبلي
2- د. أحمد قائد الصائدي
3- أ. أحمد عبده سيف
4- د. أحمد محمد عبد اللاه السقاف
5- أ. العزي محمد حمود الصلوي
6- د. أمين محمد سعيد نويصر
7- د. جمال حزام محمد النظاري
8- أ. جمال عبد الرحمن الحضرمي
9- أ. حسن عبد الوارث محمد البناء
10- د. حمود صالح العودي
11- د. شائف شرف عثمان الحكيمي
12- د. صادق عمر مكنون
13- د. صالح أبوبكر بن الشيخ أبوبكر
14- أ. عبد الباري محمد طاهر
15- عبد الله محمد عبد الله بن ثعلب
16- د. عمرو معد يكرب الهمداني
17- أ. قادري أحمد حيدر الأديمى
18- أ. محمد عبد الوهاب الشيباني

باحثون مشاركون بأوراق بحثية

1. أ. أكرم محمد علي المصنعي
2. أ. فؤاد علي الشرجبي
3. أ. محمد سلطان اليوسفي
4. د. محمد عبدالرحمن سجوه
5. د. يحيى محمد أحمد غالب

المساعدون التنفيذيون

1 . رحاب عبده علي الصغير
2. عزام أحمد غيلان الشيباني
3. لينا عبدالقادر العبسي – سكرتارية مركز الدراسات

تصحيح لغوي

1. د. عبدالله علي الكوري
2. د. محمد حسين خاقو
3. د. عبده محمد صالح الحكيمي

تصميم الغلاف

إخلاص عبدالله طه علي

محتوى الجزء السادس

1. الهجرة والمهاجرون في أدب اليمن المعاصر تمثيلات الهجرة وأسبابها في نصوص سردية وشعرية
أ. محمد عبد الوهاب الشيباني..... 7
2. الهجرة والاغتراب في الغناء اليمني
أ. محمد سلطان اليوسفي..... 179
3. فنانو المهجر وتأثيرهم الإيجابي في نشر الهوية والثقافة اليمنية
أ. فؤاد علي الشرجبي..... 215

الهجرة والمهاجرون في أدب اليمن المعاصر
تمثيلات الهجرة وأسبابها في نصوص سردية وشعرية

أ. محمد عبد الوهاب الشيباني (*)

(*) شاعر وكاتب .

المقدمة:

تحاول هذه الدراسة استقراء وتحليل أبرز النماذج الأدبية - سردية وشعرية- في أدب اليمن المعاصر التي اتخذت من قضية الهجرة اليمنية- خلال القرن العشرين إلى جنوب شرق آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، وأمريكا، والخليج- موضوعات لها.

لا نقول إن حقل الدراسة جديدٌ بالمرة، لكن محاولة الإحاطة بنماذج مختلفة من الكتابات الأدبية - قصصية وروائية وشعرية ومسرحية - لكتاب وكاتبات من أجيال جغرافيات مختلفة هو ما نظنه غير مطروق حتى الآن، لجهة أن يكون موضوعاً موحداً للدراسة.

فمن خلال تحليلنا لمحتوى الكتابات النقدية الأدبية التي انشغلت بقضايا الهجرة، وظهرت مجتمعة في كتب مستقلة أو موضوعات متناثرة في دوريات، ومجلات، وصحف كان يبرُز الموضوع كمكوّن من مكونات دراسات معمَّقة وشاملة لقضايا مختلفة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يصير موضوع الهجرة في الرواية اليمنية في كتاب "ثمانون عاماً من الرواية في اليمن" للدكتور عبدالحكيم باقيس جزءاً من موضوعات مختلفة تُعنى بريادة الرواية، والكتابة النسوية، وتمثيل الآخر، والتناص.

وإن الكتاب الذي صدر تحت عنوان "زيد مطيع دماج.. دراسات وقراءات نقدية" لمجموعة من الباحثين والدارسين والنقاد اليمنيين والعرب، ليس فيه دراسة واحدة عُنيت بموضوع الهجرة في قصص زيد دماج، رغم أن مكتوبه القصصي عن الهجرة كدوافع يمثل إضافة مهمة في سياق الخطاب السردي المعاصر.

حتى الكتاب المهم الذي صدر عن تجربة الشاعر محمد أنعم غالب، تحت مسمى "محمد أنعم غالب شاعراً"، للشاعر والناقد عبدالودود سيف، لم يتخذ من نص "الغريب" مجالاً للدراسة؛ لأسباب تقنية صرفة، كما أوضح ذلك مؤلف الكتاب في مقدمته، على الرغم من أن هذا النص "الهجروي" هو المعرِّف الأبرز بالشاعر، ولم نجد كتابة واحدة تقارب موضوع الهجرة في النص المسرحي في اليمن، وهو ما تحاول دراستنا طرقه ولو من أكثر الأبواب مواربة، حين تدرس مسرحية "المغترب التائه" لـعبد الكريم السوسوة.

والعبودية والهجرة تصير هنا موضوعاً جديداً للدراسة، بمقاربتها لرواية شابة عنوانها "سالمين" لعمار باطويل. وكل ذلك نظنه إضافة سعت إليها هذه الدراسة، بمسعاها الذي تريده أن يكون مختلفاً.

هدف الدراسة: تهدف الدراسة إلى الإجابة عن سؤال محوري هو: كيف تعامل النص الأدبي المعاصر (السردي والشعري) مع قضايا الهجرة والمهاجرين اليمنيين خلال القرن العشرين؟ باعتبار هذه القضية انعكاساً لأوضاع داخلية متعددة ومتشابكة أنتجت هذه الظاهرة.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في محاولتها الجادة إنتاج قراءة مغايرة لقضايا الهجرة التي طرقها قصاصون وشعراء، من أجيال ومدارس أدبية متنوعة، وإن الأعمال المقروءة تغطي مناطق الهجرة التي وصلها اليمنيون في إفريقيا، وأمريكا، وأوروبا، وآسيا، والخليج، ولم تقتصر هذه القراءة على مقاربة جنس أدبي بعينه، بل انفتحت على الرواية، والقصة، والمسرح، والشعر بنوعيه (الفصيح والعامي).

منهج الدراسة: اتبع الباحث في إعداده لهذه الدراسة المنهج السوسيولوجي الاجتماعي بأسلوبيه الوصفي والتحليلي لمحتوى أهم الدراسات والنصوص الأدبية التي تناولت موضوع الهجرة في الأدب اليمني.

مكونات الدراسة: تتكون هذه الدراسة، غير المقدمة والخاتمة، من ثلاثة مباحث رئيسة:

الأول: وضعناه كمدخلٍ للإحاطة بالمفهوم، كما يظهر عند دارسي موضوع الهجرة في النصوص الأدبية المختلفة، وتالياً: كيف تعامل الأدباء المعاصرون مع قضية الهجرة بوصفها مشكلة اجتماعية لها أسبابها ونتائجها. وكان من الضرورة أن نعاين، في هذا القسم أيضاً، وفي سياق قصير مفهوم المصطلح وتمظهراته في سياق الأدب العربي المعاصر.

الثاني: والذي تعنون بـ"الأسباب والتمثيلات"، وتحاول الدراسة فيه الإحاطة بالدوافع التي قادت الشخصيات الرئيسة في النصوص المدروسة لترك الوطن إلى مهاجر مختلفة.

الثالث: اتصل بتحليل نصوص الريادة ودراستها، وجملة القراءات في هذا القسم تتألف من أكثر من شق، فهي بالإضافة إلى قيامها بعروض لأفكار محتوى النصوص المدروسة، تعمل في الوقت ذاته على تحليلها، مع مقاربات لتجارب الكتابة وخصوصياتها عند المؤلفين من كُتاب سرد وشعر. وقد قمنا بتقسيم هذا المبحث إلى قسمين رئيسين:

الأول: خصصناه للنصوص التأسيسية لموضوع الهجرة في الأدب، أما النصوص المدروسة في هذا القسم فهي: النص الروائي "فتاة قاروت" لأحمد عبدالله السقاف؛ لأنه يمثل شق الريادة في الكتابة السردية، وموضوعه الرئيس له علاقة مباشرة بالهجرة إلى جنوب

شرق آسيا، ونص "يموتون غرباء" لمحمد أحمد عبدالولي، بوصفه النص الروائي المكتمل فنياً الذي طرق موضوع الهجرة اليمنية إلى إفريقيا، ونص "الغريب" للشاعر محمد أنعم غالب، وهو النص الشعري الأول في تاريخ أدب الحداثة في اليمن الذي عاين موضوع الهجرة، وصار تأثيره واضحاً على عديد من نصوص وتجارب سردية وشعرية أتت من بعده، وقصيدة "البالة" للشاعر مطهر الإرياني، وأربعة نصوص قصصية لزيد مطيع دماج، وهي النصوص المنشغلة بموضوع المهاجرين في العهد المتوكلي.

الثاني: خصصناه للنصوص اللاحقة لنصوص التأسيس، وأسميناه "نصوص التطور والتناول"، وتناولنا فيه سبعة أعمال هي: "قرية البتول" لمحمد حنيبر، و"المغترب التائه" لعبدالكريم السوسوة، و"سالمين" لعمار باطويل، و"رجال الثلج وأشياء خاصة" لعبد الناصر مجلي، و"طيف ولاية" لعزيزة عبدالله، و"ربيع الجبال" لمحمد مثنى، و"تصحيح وضع" لأحمد زين.

خاتمة الدراسة: وهي جملة من الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث، ويمكن اعتبارها الإضافة التي أنجزتها لموضوع الهجرة وتمثيلاتها في الكتابة الأدبية المعاصرة في اليمن، وأجملها الباحث في تسع من النقاط الرئيسة؛ منطلقها تلك المتلازمة بين المنتج الأدبي وأسئلة المجتمع الحيوية، والتي تغدو فيها قضية الهجرة وموضوعاتها أحد مشغلاتها الكبيرة.

المبحث الأول

(1) المدخل:

تشكل الهجرة ملمحاً أساسياً من ملامح الشخصية التاريخية للإنسان العربي في اليمن، ويبرز وشم الغربة على الوجوه جميعها[1]، كما أنها "ظاهرة اجتماعية وسياسية وحضارية ترجع إلى أغوار التاريخ اليمني، أو بمعنى أدق مُنْذُ بداية تكوين المجتمع اليمني، وتبلور مفهوم الدولة بمقوماتها البشرية الجغرافية والسياسية"[2]، و"لكنها لم تكن القضية الأساس في التخلف الذي عاشته البلاد، إنها نتيجة وليس فاعلاً"[3]. وقد أخذت "في العصر الحديث معنى تراجيدياً حزيناً وحاداً، ربما لم تكن في معظمها وفي بداية أمرها ناتجة عن الحاجة والفيض السكاني الذي كانت تعاني منه اليمن في فترات من تاريخها القديم"[4]، وكانت خلال القرن العشرين انعكاساً لحالة الداخل الفقير والمغلق والظالم، لكنها صارت في ذات الوقت سمة واضحة "مرافقة لظاهرة تاريخية أكثر اتساعاً تتعلق بالاستعمار لمدينة عدن، والغزو التركي المتكرر لبلاد اليمن، وانهيار التجارة وتدهورها في الموانئ اليمنية، وهزيمة الملاحة اليمنية التقليدية أمام مراكب الهولنديين، والبرتغاليين، والفرنسيين، والطليان، والإنجليز، التي أخذت زمام السيطرة على الملاحة في موانئ اليمن"[5].

لم يكن الأدب في اليمن بمعزل عن المعضلة الاجتماعية التي عاناها اليمنيون في تاريخهم القريب، ولأن الهجرة كانت ـ ولم تزل ـ واحدة من

---

(1) رومية، وهب. سابق ص28.
(2) السقاف، أبوبكر. كتابات، مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة، الطبعة الأولى 1981، ص 31.
(3) الراوي، مصطفى ساجد. مرايا الصوت الآتي، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ومركز عبادي، الطبعة الأولى 2004، ص 24.
(4) المقالح، عبد العزيز. من تقديمه لكتاب الهجرة والاغتراب في الشعر اليمني، ص7.
(5) علي، هشام علي. دراسات يمنية في الهجرة والاغتراب، ص 232.

إفرازات هذه الإشكالية، فقد رافق الأدب اليمني المعاصر هذه الظاهرة وعاش معها، فالأديب اليمني يظهر مهاجراً، يعيش تحولات الهجرة والاغتراب، ويصوّر مرارتها من الداخل[6]، وقد عمل بعض الأدباء من شعراء وساردين - كتاب قصة ورواية ومسرح- على معاينتها في نتاجاتهم الغزيرة في حضورها كأسباب أو نتائج لمشاكل أخرى قريبة أو "محايثة" لها، من موقع أن الأدب في واحدة من تجلياته هو إعادة تصوير مفردات الواقع من منظور فني، يلعب فيه التخييل موجهاً جمالياً صارماً.

والهجرة، بوصفها "تعبيراً عميقاً عن الاختلال الداخلي في الوطن"[7]، صارت بهذه المعاينة والمقاربة "الثيمة الأساسية لمعظم الإبداع اليمني، سواء أكان إبداعاً أدبياً رفيعاً، كالشعر والقصة والرواية والفنون الحديثة، أم كان إبداعاً شعبياً من أزجال، وأمثال، وأغانٍ، وحكايات شعبية وغيرها"[8].

أسماء أدبية رائدة جعلت العديد من مفردات الموضوع الاجتماعي في البلد المغلق والمعزول مستلهمات واضحة لكتاباتهم الأدبية، سرداً وشعراً، حتى أن بعض الكُتاب كانت بوابة التعريف بهم مثل هذه النصوص، وفي مقدمها تلك التي عاينت موضوعات الهجرة، ونلحظ ذلك عند (محمد أحمد عبدالولي)، و(محمد أنعم غالب)، و(أحمد السقاف)، و(زيد مطيع دماج)، و(مطهر الإرياني)، و(محمد حنيبر)، و(عمار باطويل)، و(محمد مثنى)، و(محمود صغيري)، و(عزيزة عبدالله)، وغيرها من أسماء تشكّل وعيها بالموضوع الاجتماعي بفعل التحولات التي شهدتها البلاد.

---

(6) علي، هشام علي. نفسه ص 232.
(7) رومية، وهب. سابق ص 30.
(8) باقيس، عبد الحكيم محمد صالح. ثمانون عاماً من الرواية في اليمن. دار جامعة عدن، الطبعة الأولى 2014، ص 101 .

يُنظر إلى النصوص الأدبية التي عاينت المشكل بمسببات ونتائج، بوصفها إحالات اجتماعية لقضايا ساعدت على تبلورها جملة من الظروف، فسعى الأديب والكاتب إلى مقاربتها باعتباره فناناً، وليس عالم اقتصاد أو اجتماع يسعى إلى إزاحة ركام السنين عن طريق التحول أمام المجتمع. والفن هنا "اختيار من الواقع، ولكنه اختيار ذو دلالة، ورؤية الفنان هي التي تحكم هذا الاختيار"[9]. حتى أن اشتغاله داخل مفهوم أدب الهجرة ومفاعيله النظرية، لم يكن إلا إسقاطاً قرائياً تالياً قامت به الدراسات النقدية، التي أولت هذه الظاهرة مساحات من تناولاتها النظرية.

ومعظم النصوص المقروءة في هذه الدراسة تنطلق عند تعيينها لسبب الهجرة من المشكلة الاجتماعية "الفقر والأمية"، ومن تأثيرات الوضع السياسي الذي انعكس كحالة استبداد وانغلاق على تجسيم هذه الحالة، فالعزلة التي فرضتها سلطة الإمام يحيى بُعيد تسلمها مقاليد الإدارة من العثمانيين، غداة الحرب الكونية الثانية في الشمال، كانت أداة من أدوات الحكم بالسطوة، وتعبّر عن عقلية الحاكم الذي كان يرى في الخارج شراً كاملاً، فصار من نتائج هذه العزلة انكفاء المجتمع وانغلاقه، فالسلطة الجديدة بنزوعها الديني المتشدد، والتي كانت تتباهى بإدارة أول دولة عربية مستقلة، عمدت مُنْذُ أيامها الأولى إلى تفكيك البنية الحديثة لنظام الإدارة وحداثة الوسائل، على محدوديتها، التي قام بها المحتلون العثمانيون في وجودهم الثاني في اليمن[10]، مثل مدارس الصنائع، ومكاتب التعليم والمستشفيات، والأسواق الحديثة، فحوّلت المستشفى، الذي أدير بطاقم فرنسي مُنْذُ ستينيات القرن التاسع عشر، إلى قصر للإمام

(9) رومية، وهب. سابق، ص31.
(10) الشيباني، محمد عبدالوهاب. الحرب حين تعيد إنتاج صيغ أخرى للهامش. مجلة نزوى، العدد 102، إبريل 2020م.

يحيى، ونقلت المشفى إلى اصطبل للخيول، ومدرسة الصنائع تحولت إلى مخزن للحبوب، والمكاتب المدرسية إلى كتاتيب، أما الشارع الرئيسي في المدينة القديمة، الذي كان يربط الميدان بسوق الملح، وكان يعرض بحوانيته الجميلة بعض التجار اليونانيين، الذين جاؤوا إلى صنعاء بعد حفر قناة السويس، سلعاً أوروبية راقية من الأدخنة والمشروبات والمعلبات والملابس(11)، فسُدَّتِ واجهات حوانيته بالأحجار.

استتبع العزلة تكثُّف الضغط على قطاع الزراعة البدائي، الذي اشتغل فيه قطاع واسع من السكان، إما في ملكياتهم الخاصة أو في الحيازات الإقطاعية الكبيرة التي امتلكها وجهاء المناطق من مشايخ، ورجال سلطة ودين(12)، وتحمَّل الفلاح الأعباء المالية الكبيرة التي كانت تفرضها سلطة الجباية، التي تعتمد في مواردها في الأصل على خراج الأرض، الذي كان يقدِّره المثمنون وعقال المناطق بكثير من المجازفة، وتصير مع الوقت ديوناً متراكمة لا يستطيع الفلاحون الصغار والمعدِمون سدادها، فلم يكن أمامهم من خيارات بديلة غير بيع الأرض أو الدخول إلى السجن، أو الهجرة خارج حدود المملكة المتوكلية، بعد أن يكون عساكر الإمام قد مارسوا عليهم أقسى أنواع الابتزاز.

والفلاحون الأميون والفقراء الذين اختاروا هذه الوسيلة للهروب من قساوة الحياة، لم يجد غالبيتهم غير مستعمرة عدن، إما للإقامة أو مركز مرور إلى المدن الإفريقية على الضفة الأخرى من البحر، أو العمل على السفن التي

(11) مانزوني، رينزو. اليمن.. رحلة الى صنعاء 1877 - 1878م، الصندوق الاجتماعي للتنمية، صنعاء 2011م.

(12) يظهر في أكثر من نص قصصي عند زيد مطيع دماج هذا التملك، انظر نص قصة مهاجر حقيقي، والعائد من وراء البحر، ويصير حلماً قابلاً للتحقق، عند شخصية عبده سعيد في رواية يموتون غرباء.

تجوب البحار والمحيطات في المتوسط والأطلنطي[13]. وقد كثر المهاجرون من اليمن "للبحث عن فرص عمل لكسب العيش؛ وبسبب بؤس الأوضاع المحلية، وغلبة الاستبداد وبوح الاستغلال الفاحش، ولأسباب سياسية أيضاً.. فقراء يحتاجون إلى لقمة العيش، ويضطر كثير منهم إلى الهجرة والتشرد في آفاق الأرض بحثاً عن عيش لا يتوفر في بلاد تطردهم بجورها وتخلفها وإهمالها لمصالحهم"[14].

فعمل هؤلاء الفلاحون في مهن تتناسب مع تكويناتهم المعرفية البسيطة وبناهم الجسمانية، وأحياناً خبراتهم القتالية، خصوصاً أولئك الذين أتوا من حواضن قبلية[15]. واختلف الأمر قليلاً في طبيعة الهجرة من المناطق الشرقية لليمن، وتحديداً الهجرات الحضرمية صوب حيدر آباد والأرخبيل الهندي "ماليزيا وإندونيسيا، وسنغافورة"، وتالياً إلى الحجاز بعيد الحرب العالمية الثانية، حين بدأت أموال الحضارمة المتدفقة من الأرخبيل تتوجه إلى الحجاز[16]، إذ كان مشغلها والمتحكم فيها ثقافياً صرفاً، يتوارى خلف محفزات تجارية، وإن كان للأوضاع السياسية والانغلاق الاجتماعي دور في الظاهرة.

وتحاول هذه الدراسة معاينة الظاهرة من خلال المقاربات الأدبية في جملة من النصوص التي يعتقد الباحث أنها تقدم عينة شديدة الوضوح لذلك، وتنطلق في الأصل من استبصارات الأديب الذي "ليس من واجبه أن يكون عالماً في

(13) أكثر الشخصيات تجسيماً لهذه الحالة شخصية صالح في رواية قرية البتول الذي يترك القرية إلى عدن بعد أن قتل عساكر السخرة والده، ومن ثم عمله ملاحاً في إحدى السفن – الرواية 35 وما بعدها وشخصية فضل في ذات الرواية.

(14) زيد، علي محمد، الثقافة الجمهورية في اليمن. مؤسسة أروقة، طبعة أولى، 2020، ص33

(15) ينظر إلى شخصية "محمد مقبل" في رواية صنعاء مدينة مفتوحة، وسيف حزام طربوش في رواية ربيع الجبال، وعلي في قصيدة الغريب، ومثنى في رواية رجل الثلج.

(16)باطويل، عمار. رواية سالمين، دار فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، طبعة أولى 2015، ص 53.

الاقتصاد، لكن من واجبه أن يرهف السمع، ويلفت القلب والعقل معاً إلى أنين الوطن والمواطنين، وأن يفتح عينه وعيون الآخرين على المشكلات الطاحنة التي يئن الناس تحت وطأتها"[17].

(2) المصطلح في سياقه الأدبي:

تعرف الهِجْرَةُ والهُجْرَةُ بأنها: الخروج من أَرض إلى أَرض[18]، بحثاً عن شروط أفضل لحياة تقيهم شر الحاجة والعوز، وهي "ظاهرة إنسانية طبيعية يفرضها الحراك السكاني، بحثاً عن حياة أفضل، آمنة مستقرة، أو الفرار من الظلم، وهي عادة ما تكون من بيئة طاردة إلى أخرى جاذبة"[19].

لماذا نهاجر؟ ونركب قطار الرحيل؟ كيف يمكننا أن نترك بسهولة تلك القطعة الجغرافية والمكان الحميمي، لكي نمتطي أحلام الاجتثاث؟ لا شك أن مفهوم الهجرة لا يتوقف فقط على لعبة المكان، ولكنه يتجاوز ذلك إلى أبعاد فلسفية عميقة تتجاوز الذات والمكان والزمان والناس. وكل واحد منا يهاجر! نهاجر داخل اللغة والجسد، والسؤال، والآخر، والأفكار، والآفاق، والقناعات، والمبادئ، والاختيارات.. ببساطة: الإنسان قضية رحيل دائم. "المكان في لا وعي المهاجر يتحول من طوبوغرافيا الخطوط والمتوازيات إلى قطعة مكثفة لغوياً وإيحائياً وشعرياً"[20].

والهجرة في الأدب العربي الحديث كانت أحد تمظهرات ثنائية الأنا والآخر بشكل صريح، وإن الاغتراب بإحالاته النفسية والثقافية كان مشغلاً مهماً في

(17) رومية، وهب. سابق، ص 30.
(18) لسان العرب، ويرد فيه "وسمي المهاجرون مهاجرين لأَنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نَشَأوا بها"، من موقع الباحث العربي.
(19) أبوبكر، صالح أبوبكر بن الشيخ. تريم بوابة الفكر القومي العربي إلى اليمن. دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، طبعة أولى 2020، ص191.
(20) بوخليط، سعيد. تيمة الهجرة في الأدب العربي المعاصر، من عرض لكتاب لعمر الشارني، موقع آوان، مارس 5، 2014م.

كثير من القراءات، فيظهر "الاغتراب" كاصطلاح لمقاربة لحظة التشظي بين أناتين متصارعتين، الأولى تشده لأرض الولادة، والأخرى لبلد المعيش والإقامة، فتنعكس هذه التقاطعات في وسائل تعامل الشخوص مع أوضاعهم المرتبكة، التي تحول في كثير من الأوقات دون اندماجهم في المجتمعات الجديدة، وتصعِّب عليهم في ذات الوقت العودة إلى مرحلة ما قبل الهجرة بسبب إفرازات عملية التحول. لهذا يظهر المهاجر اليمني، أو ابنه المولَّد في النص الأدبي ملتبساً بهذه الحالة بعلاقته بالآخر، أو باغترابه وانهدامه النفسي[21].

(21) صوت الراوي الخارجي في رواية (فتاة قاروت) برؤيته للتاجر الهولندي والعربي المتفرنج، ورؤية (سالمين) لماضيه العبودي في رواية باطويل، ويحاول التخلص منه بتخليق علاقات من نوع آخر بالآخر الأبيض "الزوجات".

المبحث الثاني

الأسباب والتمثيلات

(1) أسباب المقاربة:

الهجرة قدر الإنسان اليمني مُنْذُ أقدم العصور وحقب التاريخ[22]، ليس بتمثيلاتها الأسطورية عبر المرويات التاريخية، لكن بدوافعها المختلفة التي يجيء على رأسها الدافع الاقتصادي[23]، متبوعاً بالدوافع الاجتماعية والسياسية، والتي بسببها يُعاد، في كل التناولات لهذه الظاهرة، تعريف اليمن بوصفه بلداً طارداً.

وكل الكتابات "التي تناولت وضع المهاجر اليمني وأسباب رحيله عن وطنه - في النصف الأول من القرن العشرين وإلى أوائل الستينيات- تؤكد أن افتقار البلاد إلى العدل هو السبب الأساسي وراء المواكب الطويلة للمهاجرين الذين اتجهوا شرقاً وغرباً، ثم تكاثرت العوامل والأسباب، واندفع كثير من شباب الوطن إلى الهجرة نحو أوروبا وأمريكا والخليج، مدفوعين بروح المغامرة والبحث عن الثروة في المجهول"[24]. لهذا لم تغب مثل هذه الدوافع عن وعي الأدباء المعاصرين، حين تناولوا من خلال نصوصهم السردية والشعرية هذه الظاهرة، فلكل مهاجر عند هؤلاء مشكلة دعته لمفارقة وطنه وأهله وأحبابه، فمثلاً يصير الفقر والظلم مركَّباً خالصاً في معظم النصوص. فعند محمد حنيبر في رواية "قرية البتول" يغدو المهجر خلاصاً لعذابات شخوصه الذين يهربون من الفقر والجوع، ومن ظلم عسكر السخرة، وظلم السلاطين، وفساد القضاء

(22) باقيس. سابق، ص 101.

(23) يقول الدكتور أبوبكر السقاف في دراسته الرائدة مشكلة الهجرة في الجمهورية اليمنية: "إن الهجرة اليمانية في جوهرها اقتصادية لاسيما بعد زوال نظام الإمامة وانتهاء الحرب الأهلية في الشمال عام 1970". ينظر كتاب "كتابات 1" سابق، ص 36.

(24) المقالح، عبد العزيز. سابق، ص8 .

الذي لا ينصف الضحايا. فصالح يترك "قرية البتول" بعد أن يقوم العسكر بقتل أبيه الفلاح الأجير: "لقد قررت يا أمي أن أغادر هذه البلاد.. فلن أبقى فيها بعد الآن. وقد بقيت هذين الشهرين- بعد مقتل الأب- مرغماً، حتى لا يحرمنا صاحب الأرض من نصيبنا في المحصول الذي تعبت فيه أنا ووالدي وأنتما عدة شهور.. أما وقد انتهى الموسم وحصلنا على نصيبنا، فلا بد من أن أغادر البلاد؛ لأني لم أعد أطيق البقاء فيها"[25]. و"فضل" يترك يافع إلى البيضاء مع والدته، بعد أن تتعرض عائلته لقهر السلطان، الذي يغتصب أخته، ويُميت أباه كمداً، ومن البيضاء، بعد موت الأم قهراً، ينتقل إلى عدن، ثم إلى البحر:

"لم تمض عشرة أيام على وفاة أمي حتى كنت أقطع عقبة ثرة متجهاً إلى عدن، التي دخلتها كالعصفور الضال، وبعد معاناة قاسية عملت خادماً في منزل تاجر يهودي.. وبعدها عملت مساعداً لسائق سيارة نقل بضائع من الميناء إلى المدينة والعكس، ومن خلال ترددي على الميناء، علمت في أحد الأيام أن إحدى البواخر الراسية فيه تطلب أربعة عمال للعمل فيها.. حالفني الحظ فوقع الاختيار عليَّ أنا والثلاثة الصوماليين الذين يعملون معنا اليوم"[26]. و"عبد ربه الماوري" في ذات الرواية، وبعد أن يموت والده، بسبب قهر القضاء الذي حكم لغرمائه في قطعة أرض يملكها، يهاجر إلى السودان، ويظل ينفق كل ما يدخره من أجل استعادتها بواسطة وكيل شريعة، كان قبل ذلك وكيلاً لخصوم أبيه وغرمائه:

"مساحتها عشرون حبلاً.. نحن لو رصفنا على سطحها الريالات الحجر التي خسرناها في الشريعة لغطته تماماً، كما إنَّا لدينا أحكام وأوراق تتعلق بهذا

(25) حنيبر، محمد. رواية قرية البتول، عالم الكتب، القاهرة، طبعة أولى، 1997، ص 31.

(26) حنيبر، محمد. سابق، ص 115 وما بعدها.

النزاع، لو فرشناها على سطحها لغطته أيضاً. إن في حوزتنا بعض أحكام يصل طول الواحد منها إلى عدة أمتار.. فهل بعد كل هذه الخسارة والتعب أتركها لخصمي؟ ماذا سيقول عني الناس.. أني عجزت عن مشارعة علي صلاح؟! أبداً لن أتركه، خاصة بعد ما حدث لوالدي بسبب تلك الأرض"[27].

ناصر الهيثمي، في رواية قرية البتول أيضاً، يهاجر مرتين: الأولى حين يترك قريته، مع والديه، إلى قرية أخرى وهو في عمر الثامنة هروباً من الموت، والثانية هجرته إلى السودان وهو في العشرين هروباً من الفقر والجوع.

عن هجرته الأولى يرد على لسانه: "قريتي! لقد غادرتها وعمري ثمان سنوات، ولم أعد أعرف فيها أحداً.. كان لنا فيها منزل صغير من الطين، يقال إنه تحوَّل إلى أطلال مُنْذُ زمن طويل... غادرتها هرباً من الموت"[28]. بعد أن اختطف الموت عشرات الأطفال بسبب مرض لا يُعرف سببه، وأسماه أهل القرية "ثعلب الأطفال".

وبعد مقتل والده في حرب قبلية، لا ناقة له فيها ولا جمل، بدأ رحلة صراع مع الحياة يقول عنها: "لم تبخل علينا فيها بأي نوع من أنواع قسوتها. كنا نشقى، ونهان، ونجوع ونمرض.. وكانت لا تعطينا إلاّ المزيد"[29]، لهذا وافق على أول عرض قدمه أحد مهاجري قريته للذهاب معه إلى السودان بعد أن آلمه وضعه ووضع أمه:

(27) حنيبر، محمد. سابق ص 177.
(28) حنيبر، محمد. سابق ص 193.
(29) حنيبر، محمد سابق ص215.

"ما رأيك إذا ساعدت ابنك ناصر على دخول السودان؟ فذلك بلا شك سيساعدكما على التخلص من قسوة الحياة هذه"[30]. وعند محمد عبدالولي يهاجر عبده سعيد إلى الحبشة من أجل تجاوز ظروفه الصعبة كفلاح فقير، ولتحقيق كل أمنياته مثل أي شخص غني يبتني داراً، ويعلِّم ولده، ويهتم بزوجته. و"ربما كان عبده سعيد سيقضي حياته في القرية، عمل في النهار، قات بعد الظهر، وصلاة في المسجد في المغرب حتى ما بعد العشاء، ولكن حدث في القرية شيء جديد. كان ذلك عندما أرسل أحد أولاد قريته الذي هاجر مبلغاً من المال، وبدأ والده في بناء منزل من ثلاثة طوابق.. كان الطابق الثالث فيه شبابيك كبيرة.. وطليت جدران البيت بالأبيض فكان كشامةٍ بيضاء وسط جسم قدر سوداء، وكان أكثر منازل القرية جمالاً"[31]، فقرر من ساعتها الهجرة إلى الحبشة لتحقيق حلم مشابه.

باستثناء نص "خلف الشمس بخمس" في مجموعة الجسر عند "زيد مطيع دماج"، لا تتعين الأسباب في الهجرة الأولى إلا من مضمورات السبب العام لهجرة اليمنيين ككل، لكنها تتجسم في الهجرة الثانية لنفس الشخوص بدوافع الظلم والاستبداد التي يلاقونها، من المشايخ والحكام، عند عودتهم لقراهم.

سيختلف الأمر قليلاً في المقاربة السردية لموضوع الهجرة من حضرموت إلى الأرخبيل الهندي والسعودية، وحتى دول شرق إفريقيا، التي ستأخذ بعداً تجارياً صريحاً مغلفاً بدوافع اجتماعية وثقافية تدخل ضمن أنساق الإرث العائلي، وإن لم يغب أحياناً البعد السياسي الذي ربط بتدخل الإنجليز بشؤون

(30) حنيبر، محمد. سابق ص 217.
(31) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، طبعة أولى 2012، ص100.

حضرموت[32]، وفي هذا السياق طغت شخصية "انجرامس" كمستبد داخل النص الأدبي[33]. والهجرة من حضرموت عند آخرين "في أطوارها الأولى خاصة لم تكن اختيارية، بل إجبارية من بيئة طاردة قاسية بائسة، كانت تعج باضطراب الأمن والمنازعات القبلية"[34]. لكن أيضاً بسبب الفقر، الذي بسببه تدفع الأسر بالأبناء الصغار للهجرة إلى مناطق الثروة الجديدة والقريبة[35]، وهجرة الأطفال "الصبية" الحضارم إلى السعودية ستغدو عند مسعود عمشوش سمة مختلفة عن طبيعة الهجرة إلى "جاوة"؛ لأنها ضمت عدداً كبيراً من الصبية الحضارم للعمل في البيوت[36].

وفي رواية "فتاة قاروت" لأحمد عبد الله السقاف، سيغدو السبب تجارياً يتصل بعبدالله الذي جاء من حضرموت إلى جاوة من أجل "استلام ما تركه

(32) يقول بدر جعفر بن عقيل في كتابة "الهجرة والاغتراب في الشعر اليمني": "إن تدهور الأوضاع الداخلية في حضرموت بالذات سببه تدخل الإنجليز في شؤون حضرموت، بعد أن عقدوا اتفاقيات الصداقة والحماية مع السلطنتين القعيطية والكثيرية، وجاء إليها المستر إنجرامس كأول مستشار بريطاني مقيم وأصبح هو الآمر الناهي. لقد كان لهذا التدخل الأجنبي وقع الصاعقة على الشعب، وسبب من أسباب الهجرة الحديثة. الهجرة والاغتراب في الشعر اليمني". سابق، ص 59.

(33) في رواية عمار باطويل "سالمين" يرد على لسان الجمَّال حمد في صفحة 18 ما يلي: "إنجرامس أحد جنود بريطانيا الذي أرسلته إلى حضرموت للتدخل في شؤونها ومحاربة قبائلها، ومن لا يمشي مع سياستها سوف تحاربه بكل الطرق، فكان ضرب حكومة الكثيري بالطيران البريطاني أحد الأخبار التي وصلت إلى مسامعنا ووصلت إلى أرجاء حضرموت وهزتها".

(34) أبوبكر، صالح أبوبكر شيخ. "تريم بوابة الفكر القومي العربي إلى اليمن"، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، الطبعة الأولى، 2020، ص195.

(35) في رواية (سالمين) لباطويل يصف حمد صالح بداية رحلته إلى جدة بقوله: "كان عددهم عشرين شخصاً من الرجال، وطفلين لا تتجاوز أعمارهما ثلاثة عشر عاماً، ووقفت في حيرة من أمرهما، وكنت أسأل نفسي: كيف لهذين أن يسافرا إلى جدة للعمل، وكيف سمح لهما والداهما بالسفر؟ فبكل تأكيد هو الفقر والجوع الذي جعل هؤلاء الأطفال يرحلون ويتركوا وراءهم وطناً وأهلاً ينتظرون إرسال ما يسد جوعهم"، ص55.

(36) عمشوش، مسعود سعيد. "الرواية في حضرموت في تسعين عاماً"، دار جامعة عدن، طبعة أولى 2018، ص64.

والده وإقامة وكلاء عنه وعن أخيه ووالدته يقومون بما يلزم من استلام غلة العقارات وإصلاحها ونحو ذلك. وكان في نية عبد الله الرجوع إلى حضرموت بعد ترتيب أموره، لكنه لمَّا وصل إلى قاروت، ورأى جمال مناظرها وجودة هوائها رغب في الإقامة بها"[37]. وعند عمار باطويل تصير الرغبة في تعظيم الثروة عند الجمَّال حمد الذي يرث والده المتوفى في إندونيسيا، وفي تجاوز العقدة السوداء والتدوين الاجتماعي للعبد سالمين هي المشغل الأوضح في الهجرة التابعة.

وعند الشعراء محمد أنعم غالب، ومطهر بن علي الإرياني تتجسم دوافع الهجرة في نصَّيهما "الغريب"، و"البالة" بدواعي الفقر والظلم. ففي قصيدة الغريب تكثيف شعري بليغ وبقليل من الكلمات أبوه سماه (علي)..

/ وحين صار في عداد الوارثين/
أثبت اسمه (علي)
في دفتر الزكاة / طارده الجباة
وباع نصف ثروته
ليدفع الزكاة
وأجرة التقدير والجباة والجنود
ورشوة الحاكم والأمير،
وغادر الوطن[38].

وهو ما سنجده مصاغاً بكلمات شعبية عند مطهر الإرياني:

"ذكرت أخي كان تاجر أين ما جا فرش..

(37) السقاف، أحمد عبدالله. رواية "فتاة قاروت"، منشورات نادي القصة، صنعاء 2017، ص 19.
(38) غالب، محمد أنعم. غريب على الطريق، سابق، ص16.

جَوْا عسكر الجن شَلُّوا ما معه من بُقَش
بكَّر غبش.. أين رايح؟ قال أرض الحبش..
وسار، واليوم قالوا حالته ناهية.
بكَّرت مثله مهاجر والظفر في البكر..
وكان زادي مع اللقمة ريالين حجر
وابحرت في ساعية تحمل جلود البقر..
والبن للتاجر المحظوظ والطاغية"[39].

(2) التمثيلات والسمات:

(أ) البحر ملاذ المهاجر الأكثر عدلاً:

لم يكن ركوب البحر بالنسبة للمهاجر وسيلة انتقال من مكان لآخر، في وقت انعدمت فيه وسائل التنقل بين البلدان، وإنما أيضاً مكاناً لكسب الرزق، فمعظم، إن لم نقل كل، المهاجرين اليمنيين إلى ما قبل الحقبة النفطية، اختاروا البحر والسفن البخارية وسيلة للوصول إلى مستقراتهم الجديدة، أو عملوا على ظهر هذه السفن لالتقاط رزقهم- أنموذج "محمد عبدالواسع حميد يتذكر"[40]، و"حكاية بحار" لمحمد صالح الصايدي كنماذج سيروية متحققة يمكن النظر إليها من مقتربات القراءة ذات الصلة بدراستنا، على اعتبار أن الأول كان أديباً معروفاً، وكتب هذا النص من موقعه كأديب، والثاني صار بمرويته الشفهية أنموذجاً للقراءة عند باحثين وكتَّاب مثل الدكتور أحمد القصير[41]، وعند

(39) الإرياني، مطهر علي. قصيدة الباله. موسوعة شعر الغناء اليمني في القرن العشرين، الطبعة الأولى، 2005، الجزء العاشر، الصفحة 22 وما بعدها.
(40) حميد، محمد عبد الواسع. محمد عبد الواسع حميد يتذكر، دار عكرمة، دمشق، طبعة 1996.
(41) القصير، أحمد. الهجرة والتحول في اليمن، طبعة أولى1990.

الدكتور أحمد قائد الصائدي[42]. و"البحري" هي التسمية الشائعة للمهاجر. ولا شك أن أصل هذه التسمية يرجع إلى ارتباط الهجرة، في العصر الحديث، بالبحر ارتباطاً وثيقاً. فقبل أن يعرف المهاجرون اليمنيون بلدان النفط في الشمال، كان اتجاههم دائماً نحو البحر، يشقون عبابه إلى بلدان شرق إفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وأوروبا وأمريكا"[43].

والتقط بعض كتاب السرد شخصياتهم من مهنة العمل على السفن "صالح" و"فضل" في رواية "قرية البتول"، و"أبو عزيز" في رواية "ربيع الجبال" أول عمل له في مصوَّع كان في البحر مع متعهد أسماك للحكومة، وقصة المهاجر الحقيقي عند زيد مطيع دمَّاج، و"علي" الشخصية المحورية في نص "الغريب" لمحمد أنعم، أيضاً عامل بحر في الأساس، وكان لشخصية المهاجر في قصيدة الباله وسيلته للهرب وهي البحر أيضاً، وفي البحر سيعمل لخمس عشرة سنة على مركب يوناني، و"ناجي" في رواية "طيف ولاية" يعمل خلال فترة إقامته في هاواي مع البحرية الأمريكية، بعد أن سبق واشتغل بحاراً على متن إحدى السفن التي تجول على القارات الخمس، بعد تركه العمل في المعسكرات البريطانية في عدن.

(علي فنيتو) في رواية "الميناء القديم" لمحمود صغيري يقضي أجمل سنوات عمره في قيعان ومواقد السفن يهتم بمكائنها، حتى أنه من كثرة حبه لعمله قام أصدقاؤه بتزويجه من إحدى المكائن في مشهد تمثيلي، "يومئذ طلب من أحد الإخوة أن يأتي بالمرفع.. وفي أقل من ساعة تزوجت السيدة مكينة، وبعد أن وزَّع جامع بيده الحلوى قال للجميع: وبما أن العم علي قد تزوج،

(42) الصائدي، أحمد قائد. دراسات يمنية في الهجرة والاغتراب، كتاب مجلة الثوابت، مايو 1999، ص69 وما بعدها.
(43) الصائدي، أحمد قائد. سابق، ص 69 .

فلنأخذ جميعاً بأعراف الزواج الشرقية.. نحن مسلمون ولا يحق لأحد أن ينزل إلى زوجته.. خاصة الماركوني، أو أي طلياني آخر"[44]، لهذا دائماً ما كان يقول: "لا ينسى البحر إلا قليل الأصل".

البحار (علي الزغير) في رواية "صنعاء مدينة مفتوحة" يفني حياته وشبابه فوق ظهور البواخر وفي قيعانها، عندما لم يتسع له سواها، شأنه في ذلك شأن معظم المهاجرين اليمنيين، الذين لم يجدوا في الغربة ما يتسع لهم، عدا أسطح البواخر وقيعانها، حيث المحركات وغرف الوقود والفحم[45]، البحر الأكثر رأفة بمن يلتجئ إليه حتى بظلمه المنظم عوضاً عن اليابسة التي يفتقد فيها العدل[46].

في قصة "العائد من البحر" لزيد دماج يدور الحوار التالي بين الشيخ وأحد رعيته:

- لقد عاد علي بن علي يا شيخ
- ومن أين عاد؟
- عاد من البحر
- وأين كان يعمل؟
- في البحر.. بحاراً متجولاً على باخرة إنجليزية، كما قالوا[47].

في رواية "يموتون غرباء"، وفي استظهار التاريخ الشخصي لشخصية عبده سعيد يرد هذا التساؤل:

---

(44) صغيري، محمود. الميناء القديم، رواية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، طبعة أولى، 1978، ص 61 و ص 77.
(45) باقيس، عبد الحكيم. سابق، 104.
(46) ما يرد على لسان صالح في رواية قرية البتول، ص 241.
(47) دماج، زيد مطيع. الأعمال القصصية الكاملة، وزارة الثقافة، صنعاء، طبعة أولى، 2010، ص 48.

"هل كان ذلك الذي نقله من "الشيخ سعيد" - مدينة صغيرة بالقرب من المخا- إلى عصب صنبوق (سنبوك) أم زعيمه، أم مجرد قارب وضع عليه شراع ممزَّق، لكنَّ هناك تاريخاً أقدم، ماذا كان يعمل عبده سعيد قبل أن يعبر البحر؟[48].

ولكن في مقابل فرص النجاة والحياة التي منحها البحر، فقد أخذ أيضاً من البعض حياتهم. فـ"فضل" في رواية قرية البتول يموت غرقاً، ضمن طاقم الباخرة "ساتيراني" التي كان يعمل فيها مع صالح بين مينائي بورتسودان وجدة:

"لقينا البارحة، بعد مغادرتك لنا، برقية تفيد أن الباخرة ساتيراني حدث بها انفجار فجائي، فغرقت في الحال بجميع من عليها"[49].

و"مبخوت" المهاجر اليمني الفقير في رواية "الميناء القديم" يموت أيضاً في البحر، ويروي موته علي فنيتو بقوله: "بعد أن عمل معنا مبخوت خرجنا من جيبوتي إلى المحيط الهندي، باتجاه الهند. مات مبخوت في الباخرة، وكانت موانئ الهند تبعد عنا عدة أيام.. وفوجئت ولأول مرة في حياتي بما يسمى بشريعة البحر.. طلبوا مني أن أقوم على غسله وتكفينه.. لم أستطع فقام بالواجب جامع، هو وثلاثة من الإخوة الصوماليين.. صلينا عليه.. وبعد ذلك رميناه في البحر.. هذه هي دنيا البحر.. كانت الهند بعيدة، والحي، كما قيل لي، أفضل عند الله من الميت.. مسكين مبخوت.. لم يبق منه في الدنيا غير اسمه"[50].

وهكذا تمضي سردية الهجرة في تقديم نهايات مأساوية للعديد من المهاجرين. ومن المفارقات المأساوية أن أحمد عبد الله السقاف صاحب أول

(48) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، سابق، ص 98.
(49) حنيبر، محمد. سابق، ص163.
(50) صغيري، محمود. سابق، ص 62.

رواية يمنية، هاجر إلى إندونيسيا مطلع القرن العشرين "واستقر بها، وراح يمضي سيرته هناك متنقلاً بين أقاليمها التي استوطنتها الجاليات اليمنية والعربية، ويسهم أثناء ذلك في النهضة الثقافية ونشر التعليم بين المهاجرين العرب في شرق آسيا، وينذر حياته لذلك، وعندما قرر بعد مرور سنوات طويلة العودة إلى موطنه أدركته المنية في طريق عودته على ظهر إحدى البواخر في عام 1950م"[51].

وبين الحالتين تتكشف ثالثة، وهي الرغبة في الحياة، والتغلب على صيغة الموت التي يفرضها البحر، على من قذفت بهم الأقدار إلى جوفه:

"ودار الصراع من أجل البقاء.. وجد نفسه يسبح لا يدري إلى أين، وأمامه أناس يسبحون، بعضهم يصارع سكرات الموت، وخلفه أناس يسبحون.. كان الناجي الوحيد من ذلك "السنبوك".. أما البعض فقد التقطت جثثهم، والبعض الآخر التهمتهم الأسماك الوحشية، أو أبعدتهم الأمواج إلى أماكن أخرى"[52].

عبد الله في رواية "فتاة قاروت"، وفي رحلة اليأس بين سنغافورة وإندونيسيا يسقط في البحر، فينقذه عمه وحبيبته المتخفية، دون أن يكون يعرف عمه، ولم يبصر حبيبته التي كانت معهم في الرحلة تتبعه:

"ورأى نفسه متطرفاً في جلوسه على حافة السطح، فاستمسك بمسمار ريثما يعتدل ويتمكن، فانكسر المسمار، فهوى وهو قابض عليه إلى البحر، ولم يشعر بهذا الحادث المفزع إلا واحد من الركاب كان واقفاً بالقرب من عبد الله فأسرع إلى القبطان وأخبره بالحادث، فحوَّل مجرى السفينة، وأمر بإنزال قارب لانتشال الغريق... حتى أن بعض السيدات المسافرات من ركاب الدرجة الثانية

(51) باقيس،عبد الحكيم. سابق، ص 20.
(52) دماج، زيد مطيع. سابق، ص260.

أخذتها الحمية والشفقة، وصارت تساعد البحارة في إنزال القارب، وتعمل كواحدٍ منهم.. وحين أبطأ النوتية في معالجة إنزال القارب رمى ثوبه واقتحم البحر وذهب يعوم نحو الغريق فأدركه"[53]. أما الذي أنقذه فهو عمه الذي لم يكن يعرفه، ومن ساعدت بإنزال القارب بكل حمية وشفقة فهي حبيبته المتخفية.

(مثنى) في رواية "رجال الثلج" يدخل إلى نيويورك سباحة في ماء شديد البرودة في شتاء 1920م، وهو الذي لا يعرف السباحة، وتشبثاً بالحياة ظل يصارع الموت تسعين يوماً جراء إصابته بمرض برودة الدم بسبب سباحته لساعة كاملة في مناخ شديد القسوة.

(ب) الأمية التي حوَّلت أصحابها إلى حكائين كبار:

مثلما تبينت الهجرة بجملة الأسباب التي عرضناها، وعلى رأس ذلك الظلم والجوع الذي أصاب المهاجرين، كشفت النصوصُ ضعف التكوين المعرفي للمهاجرين، الذين هم في الغالب أميون، قذفت بهم ظروف الهجرة إلى عوالم جديدة ليعملوا في أبسط المهن وأحقرها، عمال فحم في قيعان السفن، أو سائقي عربات تجرها الحمير، وحمالين في أسواق بورتسودان، أو أصحاب دكاكين بائسة في مدن الحبشة وقراها، أو عمال ورش ومحطات وقود في أمريكا.

أكثرهم كانوا يحفظون القليل من سور القرآن التي تعلموها في كتاتيب قراهم البعيدة، ويفقهون القليل جداً من فك الكلمات. فعلي الزغير في رواية "صنعاء مدينة مفتوحة" الذي يقضي كل عمره في البحر، ظل على أميته وجهله، على الرغم من ذهابه إلى زبيد، أشهر مدينة للتعليم في اليمن وقتئذ، من أجل أن يتعلم، ولم يحدث ذلك.

(53) السقاف، أحمد عبدالله. سابق، ص 133.

"وابتسم البحار وقال: لا تظلمني يا صديقي.. فأنا لا أعرف القراءة والكتابة، حتى أتابع الحركة"[54]، وكذلك فضل اليافعي في رواية "قرية البتول" الذي كان أمياً، وتعلم بعض الكلمات الإنكليزية على يد بحار صومالي، وتفتقت مداركه على يد صالح الذي كان يقاسمه الغرفة.

(ناجي الزبيدي) في رواية "طيف ولاية" مهاجر أُميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، وإن كان يتحدث الإنكليزية التي اكتسبها من عمله على ظهر السفن وتنقلاته في أوروبا وأمريكا، وإقامته في ليفربول، وبسبب أميته يدخل في مشاكل جمة بسبب زوجته الإنكليزية "إميللي" التي نهبته كل ممتلكاته حين "نصبت عليه واستغلت عدم معرفته القراءة، وخدعته، فوقَّع على أوراق لا يعرف محتواها"[55]. أيضاً المهاجر (مثنى) في مسرحية "المغترب التائه" لا يعرف القراءة والكتابة، وحين يحقق معه ضابط الاستخبارات في عدن تتكشف أميته، حين يُبان الفارق بين وعيين، إذ غدت المصطلحات التي يستخدمها الضابط، وبعد ذلك السجين قاسم، تؤول بواسطته بحدود معرفية بسيطة.

"أنا عمري ما دخلت مدرسة، أنا هاجرت من اليمن قبل الثورة مع خالي وعمري كان اثنتي عشرة سنة، وظليت أشقى في الحبشة، وما كانش عندي وقت أفكر في الدراسة"[56]. وعلى هذا النحو يتجلى التمثيل السردي للمهاجر اليمني عاكساً بؤس الواقع وجهله.

(54) عبد الولي، محمد أحمد. صنعاء مدينة مفتوحة، الأعمال الكاملة، ص 348.
(55) عبدالله، عزيزة. طيف ولاية، رواية. دائرة التوجيه المعنوي للقوات المسلحة، صنعاء، د.ت، ص 163.
(56) السوسوة، عبد الكريم. "المغترب التائه" مسرحية، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الطبعة الأولى، 2001م، ص65.

النموذج الوحيد الذي ذهب إلى مهجره الجديد وهو على قدر من العلم هو عبدالله[57]، في" فتاة قاروت"، فلم يكن "من عامة الشعب، فقد تربى في حجر والده وأساتذته تربية حسنة، وأخذ بحظٍّ وافر من العلوم والآداب، واتصل بكثير من العلماء وأهل الفضل في حضرموت، وله ميل زائد إلى الأدب وأهله"[58].

لكنهم قد يعودون، من هجرتهم، وهم ممتلئون بالحكايات ودهشة الخارج. وقد كان "لفعل الهجرة من الريف إلى المدينة دور في انتشار "الحكاية"، فالفلاح العائد إلى قريته- يرجع ليحكي- يروي للناس ما شاهده في المدينة، ويضيف من خياله، بل يلوّن في كثير من الأحيان واقع المدينة، لا يضيف بؤسها، يروي وجهها اللامع الزاهي، ويسكت عن الأشياء الأخرى، التي تمس واقعه بالدرجة الأساسية"[59].

يرد على لسان أحد رعية الشيخ في قصة العائد من البحر، وهو يتحدث عن المهاجر العائد علي بن علي "يقولون إنه يحكي لهم مغامراته في البحر، ومشاهداته في البلدان التي رآها"[60]. والمهاجر الحقيقي، العائد من وراء البحار، بدأ يقص رحلته مُنْذُ مغادرته لميناء "مرسيليا" في "بلاد الفرنجة".. وكيف تنقل من ميناء إلى آخر، ومن بلدة إلى أخرى، ومن بحر إلى بحر!! لم يعر ذلك اهتمام الشيخ أو أيٍّ من حضوره.. وحين قاطعه الشيخ بالسؤال عن كيفية وصوله من أسمرا؟ أجابه: جواً.. فوق السحاب.. وتارة تحتها.. على الطائرة[61].

(57) ينظر إلى الشخصية الروائية بتطابق جزء من حضورها النصي مع سيرة الكاتب نفسه
(58) رواية "فتاة قاروت"، سابق، ص 19.
(59) علي، هشام علي. الخطاب الروائي في اليمن، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الطبعة الأولى، 1996، ص19.
(60) دماج، زيد مطيع. الأعمال الكاملة، سابق، ص 49 .
(61) نفسه، ص 441.

الذماري وهو يحكي للمقهوية وردة عن رحلته "وصف لها البحار والموانئ ونوادر اللغة، وفتيات الحانات في هونج كونج وزنجبار.. طلبت منه أن يتكلم بلغة الطبيب فأجاب رغبتها وبدأ يتكلم بالإيطالية، ويترجم لها وهي تضحك بلذة لكلامه"[62]. الرجل العربي الذي يقابل عبدالله في القطار ويحكي له بلهجة حضرموت عن المظاهر السلبية للمهاجريين العرب الحضارمة في جاوة، ومنها تعمير هذه البلدان دون حضرموت، ويُكسبُون أنفسهم عادات مختلفة عن تلك التي تربوا عليها هناك في أرضهم البعيدة:

"أما عبد الله فقد أعجب بحديث الرجل، وما يبديه من الآراء الصائبة، وندم على عدم التفاته إليه أول الأمر، وصار يقارن بين أفكار ذلك المتخرج من المدارس الأوروباوية الحسن العزة، المرتب الهندام، وأفكار هذا العامي الذي لم تطأ قدمه مدرسة، ولم يفكر يوماً تزيين ظاهره بما يناسب ذوق المنتظمين، فرأى عبدالله فرقاً كبيراً بين الرجلين، ورأى أن حب الوطن وأهله والغيرة عليه وعليهم يتجلى بأكمل معانيه في كلام هذا العامي، كما سمع عكس ذلك في صاحبه المتفرنج"[63]. حينما يعود الشاب "عبدالله" من "ديترويت" إلى قرية أبويه في منطقة "جُبَن". كان يتحلَّق حوله شباب القرية ليحدثهم عن أمريكا "الأسطورة التي تصم الآذان، وعن الحلم الكبير الذي يود كل واحدٍ منهم أن يجرب حظه فيه، ولأنه قد ترعرع هناك فقد كان يحس بنوع من الحنين إليها، خصوصاً حينما تأخذه سكرة القات، فيسهب في الوصف، وأصحابه مشدوهون لما يقول"[64].

(62) نفسه، ص 98، 102.
(63) السقاف، أحمد عبدالله. فتاة قاروت، سابق، ص 124.
(64) مجلي، عبد الناصر. رواية رجال الثلج، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الطبعة الأولى 2009، ص 71- 72.

إن سردية المهاجر العائد ممتلئة بالحكايات عن عوالم الارتحال والمشاهدات والأحداث التي شارك فيها، غير أن ما يوحد هذه السردية أنها تقدم رؤية مأساوية، دلالة على جماعية المأساة في عالم الهجرة والاغتراب.

(ج) الأحلام البسيطة التي تشذبها الرغبات:

باستثناء (سالمين) في رواية عمار باطويل التي تحمل الاسم نفسه، وهو مهاجر "أسود" تدفعه عقدة اللون الأسود إلى عدم الرغبة في العودة إلى حضرموت لأنها تذكره بتاريخ العبودية، فقرر أن يندمج في عالمه ومهجره الجديد، وذوبان مالكه السابق "حمد" في مجتمع مدينة جدة الجديد، فإن معظم الشخصيات المهاجرة التي تناولها الأدباء المعاصرون لديها أحلام العودة إلى وطنها، ورؤية هذا الوطن الذي غادروه ذات وقت، فقراء ومظلومين، وقد صار بحالة أخرى غير تلك التي تركوه فيها، وهو يعاني الفقر والتخلف والانغلاق والاستبداد، على نحو ما يرد على لسان محمد مقبل في رواية "صنعاء مدينة مفتوحة":

"أنني أتمنى ألا أموت حتى أرى بلدي هذه مثل تلك البلدان التي زرتها. أتمنى أن تكون كتركيا.. أتمنى أن أرى الطريق مرصوفة، وخطوط السكك الحديدية تخترق جبلنا كتلك التي تخترق جبال الحبشة، وأرى السدود على وادينا هذا، وغيره من أودية بلادنا الكثيرة، فلا يموت السيل، ولا تضيع مياهنا في الصحراء، ولا يلتهم السيل أطفالنا وماشيتنا وأرضنا. أتمنى أن أرى بلادنا كبلاد الآخرين.. أتمنى ألا أموت حتى أشاهد ذلك"[65].

(65) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، سابق، ص 331 – 332.

و"محمد المهاجر" في رواية علي محمد زيد "تحولات المكان"[66]، صاحب المدرسة الخاصة الغريبة العجيبة في صنعاء "واظب في البداية للاستماع مخدراً إلى أمواج أثير بثت ذات يوم غريب في شرايين ضياعه وإحباطه للعودة إلى بلد بعيد المنال لا يربطه به سوى جيش بعوض محمل بالملاريا، ومكر وجوع يصرخ في رئات استوطنها السل، وأسراب جراد يلتهم ما تبقى من حياة في عروق أشجار امتصتها الشمس وشوَتها، حث الخطى مسرعاً ليشارك في المشروع الجمهوري الجديد الحالم من خلال الحرفة الوحيدة التي تعلمها في اغترابه وتشرده حتى أصبح لا يجيد سواها "التعليم" وتوسيع دائرة الممسكين بأعجوبة "القلم"[67].

والذماري في قصة تحمل نفس الاسم في مجموعة "طاهش الحوبان"، يعود "من وراء البحار إلى صنعاء في العام 49، بعد عام من بعد الحركة الدستورية، "شد انتباه الناس إليه ذقنه الحليق ولباسه الغريب.. بنطلون و"بلوفر".. الغبار يعلوه، وحقيبته الصغيرة بيده"[68]، ومع المقهوية "وردة" يدور الحوار الآتي:

"ماذا تريد عمله؟ / مترجم / واستغربت لهذا اللفظ الجديد، فشرح لها أنه يجيد عدة لغات إحداها الإيطالية التي يجيدها جيداً، ويريد أن يعمل مع الطبيب الإيطالي الوحيد في البلاد"[69]، وقال لكاتب العامل: "أنا يمني مهاجر عاد من المهجر، يريد العمل كمترجم يفيد بلاده ومواطنيه... و... و"[70].

(66) ينظر علي محمد زيد. رواية "تحولات المكان"، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، الطبعة الأولى 2005.
(67) ينظر موضوع "الخلاص بعكاكيز هشة "، محمد عبدالوهاب الشيباني، صحيفة الثوري، العدد 1899، فبراير 2006.
(68) دماج، زيد مطيع. الأعمال الكاملة، سابق، ص 96 .
(69) نفسه، ص 101.
(70) نفسه، ص 113.

بعد أن ملَّ من الترحال "تلألأت في جفنيه ومضات النجم اليماني، فاشتاق إلى موطنه، ذلك الوطن الجبل الكبير بحجم الدنيا كلها"[71].

أما حلم عبده سعيد فكان يتجسم في إبصاره لصورة داره التي علقها في الدكان. نعم، متى سيقول الناس:

منزل من هذا؟ يا له من منزل عظيم!!، ومتى سيسمع هذه الأجوبة التي حلم بها أعواماً طويلة، في ليالي الشتاء الباردة وتحت قمر الربيع الحالم. "إن هذا المنزل وذلك البستان والمدرجات الكثيرة التي في الجبل هي ملك عبده سعيد، ولا أحد غيره"[72].

في نص "أبو رُبيَّة" في مجموعة "الأرض يا سلمى" لمحمد عبد الولي نلحظ الحنين الباذخ للرسام المجنون إلى اليمن حين يرسم بعصاه تضاريسها، من جبال وأودية وشموس وحيوانات، ويقول: أنا أرسم شيئاً يشبهني[73].

"أبو عزيز" في رواية "ربيع الجبال" يعود إلى صنعاء.. وأثناء إقامته، في "فندق الخير للراحة والنوم"، في قلب صنعاء مع مجموعة من العمال وصغار الموظفين، وبعض الذين ينتظرون دورهم في الهجرة إلى السعودية عن طريق التهريب، يتكشف من حكاياته ذلك الحلم الذي طارده في كل مكان، وهو حلم البحث عن الذات في الوطن الذي كان يتخلق جديداً بعد سنوات قليلة من الثورة.

وذات الحلم راود "ناجي بن علي" في رواية "طيف ولاية"، الذي سيكشف في حواره مع صديقه اللبناني مدرس التاريخ حين يقول: "حسناً.. إذاً أعود وألتحق بالمقاتلين وأدافع معهم عن الجمهورية التي تقول بأنها في خطر.. بعدها

(71) نفسه، ص 148.
(72) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، سابق، ص 112.
(73) انظر محمد عبد الولي، الأعمال الكاملة، سابق، ص 30.

أحقق أحلامي في بلادي.. أحلامي التي لن أتمكن من تحقيقها في مكان آخر"[74].

(د) عدن المُهاجَر إليها:

عمل المحتلون الإنجليز أن تكون عدن مدينة حديثة في محيطها المتخلف، فمدوها بوسائل الحداثة والخدمات، لتجتذب إليها الكثير من المهاجرين من مناطق الريف اليمني الباحثين عن فرص عمل، أو لتكون نقطة عبور لهم إلى غيرها من البلدان والمدن على الضفة الأخرى. ازدادت المدينة اتساعاً ونمواً في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تحولها إلى "قاعدة عسكرية، وأصبحت إدارياً تتبع وزارة المستعمرات البريطانية، ونُقلت إليها قيادة الشرق الأوسط والقوات البريطانية التي رحلت من البلدان الأخرى وبصورة عامة، كان لتوسيع الميناء وإنشاء مصفاة النفط دور في تعزيز موقع عدن الاقتصادي"[75].

ولم "تكن عدن محطة مرور للمهاجرين اليمنيين إلى الخارج، بقدر ما شكلت مدينة حاضنة لآلاف النازحين من ريف اليمن شمالاً وجنوباً"[76]، أو كما وصفها صالح حسين في قرية البتول: "المهبط الأول لأفواج المهاجرين اليمنيين النازحين من كل أنحاء اليمن"[77].

و"ارتبطت الهجرة من أنحاء اليمن إلى مدينة عدن بفرص العمل، وبالإمكانيات التي يتقنونها، ولكن في حمَّى الهجرة إلى المدينة- لا سيما في أزمنة الفقر والمجاعات التي ضربت كثيراً من الريف اليمني- ذهب إلى عدن

(74) عبد الله، عزيزة. رواية طيف ولاية، سابق، ص 68.
(75) الجناحي، سعيد أحمد. أوائل المغتربين وحكايات العبور إلى الوطن، مركز الأمل للدراسات والصحافة والنشر، صنعاء، الطبعة الأولى، 2002، ص33.
(76) نفسه، ص 32.
(77) حنيبر، محمد. رواية قرية البتول، سابق، ص 33.

كثيرون ممن لا يجيدون أية مهنة، وبالتالي لم تتوفر لهم فرص للعمل.. ورغم التضييق على الوجود العربي لليمنيين داخل المدينة، ووضع نظام بطاقة الهوية التي يُسمح بموجبها لحاملها بالدخول إلى عدن، ورغم هذا التضييق والحصار كانت الهجرة إلى عدن تتزايد بشكل ملحوظ، من مناطق اليمن المختلفة، ومن السلطنات المحيطة بالمدينة، وكانت منطقة الشيخ عثمان وضواحيها هي الساحة الأكبر لاستقبالهم"[78].

وفي معظم النصوص السردية تظهر المدينة العصرية كموطن هجرة؛ "لأن المشاعر التي كانت تثيرها مغادرة الريفيين في الشمال لقراهم متوجهين إلى عدن هي مشاعر الهجرة، وقد كان النزوح إليها في نفوس الناس وضمائرهم، وفي آثاره التي تعكس على أولئك الناس ضرباً من الهجرة لا يختلف عن الهجرة الداخلية"[79].

وغير ذلك تصير أيضاً موطئ قدم وحضناً دافئاً للواصلين إليها من أرض هجرة أخرى، على نحو استقبالها لـ"أبو رُبيَّة" المهاجر الفنان الذي كان يرسم الناس، كنوع من الاحتجاج، على هيئة حيوانات قميئة، وخصوصاً التجار، وبسبب ذلك تم طرده من أديس أبابا لتحتضنه عدن بهيئته المتسخة، وجنونه البهي الذي يعبِّر عنه بالرسم:

"بعد خمس سنوات غادرت أديس أبابا إلى عدن. وفي ضجيج مقهى من مقاهي الشيخ عثمان، وأنا جالس أحتسي قدحاً من الشاهي لمحته مقبلاً وصرخت بسرعة: أبو ربية.. أبو ربية.. والتفت إليَّ، وقبل أن أتمكن من القيام

(78) علي، هشام علي. خربشات على جبل شمسان، مركز عبادي، صنعاء، الطبعة الأولى 2010م، صفحة 117- 146 .
(79) رومية، وهب. سابق، ص 57 و61.

لمعانقته كان قد ترك المقهى وولى خارجاً.. جريت وراءه، إلاَّ أنه غاب في الزحام. كان في ملابس ممزقة وقدمين حافيتين، وفي وجهه آثار بؤس.

قال لي صاحب المقهى:

- من فين تعرفه.. اسمه المجنون.. جالس كل يوم يشخطط على الجدران صور للناس مثل الكلاب..
- إنه ليس مجنوناً.
- إذا كان مش مجنون ليش ما يدور له على شغل ويشقى على بطنه.. وصمت"[80].

في رواية "صنعاء مدينة مفتوحة" يلتقط محمد عبدالولي من أحد مقاهيها مجموعة من المهاجرين المنهدمين، الذين هربوا من قسوة الحياة إلى خارجها، مثل "نعمان" الذي يتركها في المرة الأولى لأشهر ويعود إلى قريته، لكنه يعود إليها وإلى حيث يقيم في المقهى مع "الصنعاني"، والبحار "علي الزغير".. الصنعاني صاحب اللحن الحزين، يهرب إليها بعد أن فقد في سنة نهب صنعاء في 1948م زوجته وابنته ودكانه، ويستقر في ذات المقهى. أما البحار "علي الزغير" الذي جاءها طفلاً ليعمل في دكان، وغادرها من أجل أن يتعلم في مدينة زبيد، ومنها إلى البحر، لكنه بعد سنوات طوال يعود إليها ليقيم في المقهى. أما المهاجر "محمد مقبل" الذي جاب العالم، واشتغل في عشرات المهن يعود إليها وإلى ذات المقهى، وبعد أن يقرر العودة نهائياً إلى القرية يتلبَّسه من جديد الحنين إليها فيعود. صحيح أن هؤلاء "جميعاً شخصيات مهزومة تتعمقها المأساة، وتشتبه عليها مسالك الحياة، فلا تدري كيف تجد

(80) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، سابق، ص 34.

مخرجاً من مأساتها، بل هي لا تدري كيف تبحث عن هذا المخرج"[81]، إلا أنها شخصيات حملت روح وقتها ومثلته بكل اقتدار.

وفي رواية "زهرة البن" لعلي محمد زيد سنكتشف "أحمد" الشخصية المحورية في العمل، التي لم تستطع أفعال القهر كسر إرادتها وإبطالها عن العمل على تحرير المقهورين. فالريفي الطفل، وابن القرية المعلقة في جبل يشبه السكين، يقضي سنين طفولته مسجوناً بمعية أبيه في القلعة بغير ما سبب، ليجد عمره الطري محاصراً بالظلم والمظالم، التي تفرضها قوانين القلعة، والتي بسببها يذوي الأب رويداً رويداً، حتى يدركه الموت فيها.

في السجن المظلم الذي تأكله العفونة، يتفتق وعي الشاب بالحياة، الذي يبدأ من التعلم، وتالياً من علاقته الأولى بالمرأة حمامة المقهوية "أميرة القلعة" التي شقت في جسده أول ثلمة جنسية، ولا تنتهي بالمساجين الذين ظل يكتب لهم بلغته ورغبته شارحاً مظالمهم إلى الحاكم، لتصقل هذه التجربة بداخله قيمة الحرية والتمرد. وبموت الأب وإخراج جثمانه من القلعة التي امتصت أيامه، لا يجد أمامه من حل لوضعه سوى الهروب، والذي سيصير لازمة في تشرده السردي الطويل.

أول خطوة في سلسلة هروبه، كانت إلى خارج بلاد "أمير المؤمنين"؛ لأن بقاءه فيها سيعيده إلى ذات السجن في القلعة، لتمضية عقوبة لا يعرف سببها ولا مدتها، وفي الأصل ليس بها حكم. والخارج حينها لم يكن سوى مدينة عدن، أو ما وراء بحرها. خارج ليس به مظالم ولا عساكر يمتصون حتى جفاف الأرض.

(81) رومية، وهب. سابق، ص 51.

هرب من القلعة إلى مدينة النور والحرية وحاضنة الأحرار، التي وصل إليها مهدوداً بعد سيره لأيام على قدميه، وفي عدن سيكون هروبه الثاني، وهذه المرة من "عيشة" المطلَّقة البدينة، التي شغّلته أول مرة كبائع آيسكريم لحسابها، وسبب هروبه منها هو رغبتها في الزواج بالقوة منه.

الهروب الثالث سيكون هذه المرة من "الشوكي" الإنكليزي (المخفر)، بعد أن يُلقى القبض عليه في مظاهرة عمالية منددة بالاحتلال والشركات الأجنبية التي تستغلهم، على الرغم من أنه بالكاد كان قد تحصل على عمل في إحدى الشركات كحارس. والهروب الرابع سيكون من عدن برمَّتها بعد أن ضاق عليه العيش بها، وقد جرفه الحنين إلى قريته، ولأنه صار مطلوباً أمنياً لقوات الاحتلال بعد حادثة المظاهرة، وهروبه من المخفر. والهروب الخامس سيكون هذه المرة من القلعة، التي سجن فيها من جديد بُعيد عودته إلى القرية من عدن، بسبب ديون البواقي، التي فرضها الحاكم والقلعة عليه عن سنوات الجفاف[82].

وغير أن عدن كانت مركز عبور للعديد من المهاجرين إلى أرض أخرى من بوابة بحرها، فهي أيضاً تعيد تشكيل اللائذين إليها بشكل إيجابي:

"لاحظت يا أخ صالح من خلال حديثك معي أنك شاب ذكي، ولديك وعي وطني جيد، فهل تعلمت في مدارس خارج اليمن؟

- تعلمت قراءة القرآن في مكتب القرية فقط، ولكني مكثت في عدن حوالي عامين قبل صعودي للعمل هنا، وكنت خلال تلك المدة أشتري بعض الكتب والصحف وأقرأها.. فالحقيقة أني شغوف بالقراءة، وأحب أن أعرف من خلالها كل جديد"[83].

(82) الشيباني، محمد عبد الوهاب. ينظر موضوع الخلاص بعكاكيز هشة، صحيفة الثوري، العدد 16،1899، فبراير 2006.

(83) حنيبر، محمد. قرية البتول، سابق، ص 75.

في رواية "ستيمر بوينت"[84] لأحمد زين، يظهر المهاجر الشاب سمير "الذي قدم إليها من الحديدة، مُنْذُ أعوام خمسة قبل الاستقلال، بعد مقتل أبيه في حروب الجمهوريين والملكيين في شمال اليمن، وبإلحاح من جدته لأمه اندمج فيها إلى الدرجة التي حاول الذوبان فبها، وتمثل حياتها المدنية، معتبراً أن حضورها المميز كمدينة حضارية في منطقة متخلفة، صار بفضل الإنجليز وفعلهم، وهو المأخذ الذي سيؤخذ عليه من قبل بعض أصدقائه الثوريين، وعلى رأسهم نجيب الذي كان يرى في قناعات سمير حيال المدينة وأثر الإنجليز فيها نوعاً من الخيانة للقضية الوطنية"[85].

ورواية "بخور عدني"[86] لعلي المقري، اشتغال على ثيمة التعدد في المدينة، فهو يجمع الفرنسي بتاريخه المرتبك الممزق، الأعرج والسليم في آن، الهارب من الحرب والذاهب إليها، باسميه: فرانسوا أو ميشيل. والفتاة ماما الصومالية بأحلامها وعدنيتها التي تستطيع التأثير في الجميع لتكون روح المدينة وضميرها اليقظ. واليهودية اليمنية شمعة المطربة التي يحبها ويطرب لصوتها المسلمون قبل بني عمومتهم، قبل أن تجبرها حملة الكراهية ضد اليهود على مغادرتها للمدينة. وهي سعيد الحُجري الشاب اليمني الذي اختزل بحضوره صوت العمال الريفيين بأحلامهم الثورية وشعاراتهم التي أوصلتها إلى الاستقلال.

(84) زين، أحمد. ستيمر بوينت، رواية، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى 2014.
(85) الشيباني، محمد عبد الوهاب. عدن الإنجليزية تتشظى في مرآة الواقع، جريدة الشرق الأوسط، 1 يونيو 2015 م، ونشرت المادة تحت عنوان آخر هو "ستيمر بوينت" أو حين تساوت رائحة البارود بالكحول في مساء عدني كأنه الدهر، في أكثر من موقع ووسيلة منها الاشتراكي نت.
(86) المقري علي. رواية بخور عدني - دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى 2014.

في رواية "رجال الثلج" لعبد الناصر مجلي ستكون عدن المحطة الأولى لـ"مثنى" في سلسلة ترحالاته ومغامراته الطويلة التي ستنتهي بقتله في نيويورك على أيدي عصابة إيطالية:

"لما كانت حياتنا لا تطاق في تلك القرية النائية، فقراً وجوعاً وأمراضاً، سافرت إلى عدن، حيث أخبرني بعض أبناء قريتي بوجود عالم آخر يسكنه بشر غيرنا، يعيشون في قصور، وشوارعهم نظيفة، وحياتهم سهلة، يأكلون ويشربون ويتزاوجون دون مواجع أو منغصات"(87).

"ناجي" في رواية "طيف ولاية" بعد أن ترك أمه في تعز باتجاه المخا "ركب أحد قوارب الصيد التي أقلته إلى الصومال. وعندما لم يجد عملاً مناسباً في الصومال سافر إلى السودان، وهناك تعرَّف على بعض اليمنيين الذين زينوا له فرص العمل والرزق في عدن، وعاد معهم إلى هناك، والتحق بالخدمة في المعسكرات البريطانية"(88).

في جل نصوص الهجرة تغدو مدينة عدن المُرتَحَل إليها، أو المُهَاجَر إليها، معبراً في تغريبة الشخصيات، ورمزاً في سيرة المهاجرين للحظة التحول والاجتياز، والاكتشاف بين عالمين: الذات والآخر، الداخل والخارج.

(87) مجلي عبد الناصر. رواية رجال الثلج، سابق، ص 40.
(88) عبدالله، عزيزة. طيف ولاية، سابق، ص 45.

المبحث الثالث

تحليل النصوص ودراستها

القراءات المنجزة هنا يتوزعها أكثر من شق، فهي بالإضافة إلى قيامها بعروض لأفكار محتوى النصوص المدروسة، تعمل في ذات الوقت على تحليلها لجهة الأسباب والتمثيلات والسمات التي تطرقها الدراسة، مع مقاربات لتجارب الكتابة وخصوصياتها عند المؤلفين من كُتَّاب سرد وشعر، تبعاً للمادة المتاحة، ويبلغ عدد القراءات اثنتي عشرة قراءة في اثني عشر نموذجاً للكتابة، يغلب عليها الطابع الروائي كمحصلة منطقية لطبيعة الكتابة في الموضوع، إلى جانب نصين شعريين، الأول فصيح والآخر عامي، وقرابة عشرة نصوص قصصية، ونص مسرحي واحد.

كاتبة واحدة، هي عزيزة عبد الله، تحضر بنصها الروائي "طيف ولاية" إلى جانب تسعة كتاب ذكور، يمثلون أصواتاً وأجيالاً ومناطق مختلفة في اليمن. أما الاستشهادات والإحالات فستكون من وإلى مؤلفين آخرين لم نتمكن - لأسباب تقنية صرفة- من مقاربة منجزهم في هذا الجانب، واكتفينا بما تتيحه الإحالات إليها لتعزيز أفكار الدراسة.

وأقدمُ نصٍّ مقروء عمره 93 عاماً، وهو رواية "فتاة قاروت" لمؤلفها أحمد عبد الله السقاف، أصدرها بجاوة عام 1927، وكانت بالنسبة لدراستنا تمثل عمقين أساسيين: الأول يتصل بالريادة الزمنية للكتابة الروائية في اليمن، والثاني بقضية الهجرة والاندماج الثقافي في مناطق جنوب شرق آسيا. أما أحدث نص مقروء فهو رواية "سالمين" لمؤلفها عمار باطويل، وأصدرها في عمَّان خلال العام 2015م.

واعتبارات الترتيب للمادة المقروءة هو زمني وفني صرف، وليس له علاقة بأهمية وجودة النصوص من وجهة نظر الباحث، لهذا لم نتوقف طويلاً أمام القضايا الفنية واستشكالاتها النصيَّة في الأعمال المدروسة، وركزنا على تتبع سمات وتمثيلات موضوع الهجرة فيها.

أولاً: نصوص التأسيس:

(1)"فتاة قاروت" لأحمد عبد الله السقاف.. الريادة والهجرة:

في دراسة للكاتب عن القصّ في اليمن خلال سبعة عقود، قال في مدخلها الذي عنونه "بين القصة والرواية"[89]: "يذهب الكثيرون من دارسي السرد الجديد في اليمن إلى القول بأن "رواية سعيد" لمحمد علي لقمان المنشورة أول مرة على حلقات في صحيفة "فتاة الجزيرة" العدنية عام 1939م، هي أول عمل سردي يظهر في اليمن، وتبعاً لذلك يغدو هذا العمل معلماً مهماً يشير إلى لحظة الولادة الأولى لشكل كتابي أدبي، لم يكن قد أفصح عن نفسه بهذه الهيئة قبل هذا التاريخ، وإن تنبه بعض الدارسين لعمل سردي آخر، أصدره بجاوة الإندونيسية مهاجر يمني هو أحمد عبدالله السقاف، {غير أن هذا العمل على كونه في حكم المفقود}، يضعنا أمام إشكالية الكتابة في المهجر، وما إذا كانت تمثل بالفعل جزءاً من النتاج الروائي في اليمن، لاسيما إذا تذكرنا "العلاقة الضرورية بين الرواية والمجتمع الذي تعبِّر عنه، أو تسعى لتصوير تحولاته والتعبير عنها بشكل أدبي"[90]، ورواية "فتاة قاروت" "لا تتحدث عن هموم المهاجر اليمني

(89) مؤلفين، مجموعة، كتاب النقاد يصنعون موجة البحر، ينظر محمد عبد الوهاب الشيباني، الكتابة القصصية في اليمن خلال سبعة عقود، ص 258.

(90) علي، هشام. الخطاب الروائي في اليمن، سابق، ص 27.

ومشاكله في القرية، أو عن الإنسان اليمني وهمومه داخل بلده، ثم دوافع هجرته"[91].

بعد اثنتي عشرة سنة[92] كان لا بد من إعادة معاينة التوصيف من زاوية أخرى، أقلها الملامح الهوياتية والثقافية التي حملتها الشخصيات الرئيسة في النص، إلى جانب المقتربات التي يفرضها النص واستشكالاته داخل موضوع الهجرة التي تُدرس هنا، وعلى وجه الخصوص موضوع اندماج أبناء المهاجرين في المجتمعات الجديدة. والأهم العثور على النص ملموماً في كتاب[93].

"وإذا اعتبرنا صدور رواية "فتاة قاروت" عام 1927م، وهي رواية فنية استوفت شروط البناء الفني للرواية رغم ما يعتريها من عيوب ومآخذ لا تخلو منها أية بداية روائية، فذلك يعني أن الفارق الزمني بينها وبين الرواية الفنية العربية الأولى لم يتجاوز خمسة عشر عاماً"[94].

ولد أحمد عبد الله السقاف "سنة 1880م في مدينة الشحر، وتربى في كنف أخواله آل بن عثمان، ثم انتقل إلى سيئون ومكث فيها بضع سنوات قبل أن يسافر إلى حيدر آباد، ثم إلى سنغافورة، ومنها انتقل إلى باتافيا التي قضى فيها معظم سنيّ عمره. ومثل غيره من الحضارمة هناك سعى السقاف أولاً إلى تأمين مصدر رزقه من خلال دخوله شريكاً للتاجر عبدالله الحبشي، ثم تأسيسه لمصنع خاص به في مدينة صولو. ومع ذلك فقد دفعته اهتماماته الأدبية إلى

(91) صبرة، وهيبة. البنية الروائية في يموتون غرباء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الأولى 2002، ص31 .

(92) أعدَّت هذه الدراسة لمشروع الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية، لصالح مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية، صنعاء 2021.

(93) يحسب لنادي القصة في صنعاء إعادة إصداره، غير أن ارتباكات الطباعة والتدقيق يفرضان إعادة إصداره بعد تجاوز هذه الهنات.

(94) باقيس. سابق، ص 22.

تكريس معظم وقته للقراءة والكتابة، وانكب على مطالعة جميع الصحف والمجلات العربية، وبدأ يحرر بعض المقالات الاجتماعية والأدبية وينشرها في صحيفة (الإصلاح) التي كانت تصدر باللغة العربية في سنغافورة. وكان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والتربوية الخاصة بالجاليات الحضرمية في الأرخبيل الهندي، إذ أسهم بشكل فعال في تأسيس (جمعية خير)، وأصبح سكرتيراً لها ومديراً لمدرستها. واضطلع كذلك بدور كبير في تحرير مجلة (الرابطة العلوية) التي تصدى من خلالها لأفكار الحضارم الإرشاديين في الأرخبيل الهندي"[95].

الرواية كتبت بقلم مهاجر يمني حضرمي في إندونيسيا، في منتصف عشرينيات القرن العشرين، وهنا تكمن قيمتها التوثيقية في هذه الدراسة، وهي في هذا التموضع تتوازى مع رواية أخرى تُعنى بموضوع الهجرة وقضايا الاندماج في المجتمعات المُهاجر إليها، غير أن الذي كتب الرواية الأخرى ولد في الأصل في مجتمع مهاجرين، وفي قارة أخرى. أما الرواية المقصودة فهي "يموتون غرباء"، والكاتب هو "محمد أحمد عبدالولي"، والقارة هي إفريقيا. ومن كتب عن مجتمع المهاجرين الحضارمة في إندونيسيا هو مهاجر تسلح بخبرات أدبية واضحة قبل هجرته، وضاعفها من انشغاله بقضايا التعليم والصحافة في مستقره الجديد. أما "محمد عبدالولي" فهو ابن لمهاجر يمني في الحبشة، "وجد نفسه مُنْذُ الطفولة الباكرة ممزقاً بين لغة أمه، لغة البيئة التي ولد فيها وعاش طفولته الباكرة من جهة، وأب "فقيه" يعلم أطفال المهاجرين اليمنيين القرآن الكريم، ومبادئ اللغة العربية حرصاً على المحافظة على

(95) عمشوش، مسعود. الحضارم في الأرخبيل الهندي، دار جامعة عدن، الطبعة الأولى 2006، ص53.

هويتهم الثقافية العربية الإسلامية من الضياع في ثقافة أخرى يتعلمونها في الكتب المدرسية وفي الحياة العامة الإثيوبية، من جهة أخرى. وهكذا وجد محمد عبد الولي نفسه يتحدث لغتين في الوقت نفسه، لغة أمه الإثيوبية، ولغة والده العربي اليمني، ويجد نفسه أيضاً ممزقاً بين الانتماء لمجتمعين، مجتمع المهاجرين اليمنيين المحافظ أخلاقياً والمجتمع الإثيوبي المنفتح نسبياً"[96].

رواية "فتاة قاروت" خضعت في خطابها لسطوة كاتبها الذي انصرف لسنوات طويلة لقضايا التعليم في مجتمعه الجديد، فأصبغ عليها لغة وعظية وإرشادية، تحاول إصلاح مكامن الخلل في مجتمع بدأ في التهام القيم الأصيلة للمهاجرين العرب "الحضارمة"، لهذا يعرِّفها المؤلف في الغلاف بأنها "رواية غرامية انتقادية تتضمن انتقاد بعض عادات المهاجرين الحضارمة في الأرخبيل الهندي، ويقدم في أسلوب شيق جملة من أفكاره وآرائه التي أفصح عنها في صحيفتي الإصلاح والرابطة العلوية"[97].

ووصفُ السقاف لروايته بأنها "غرامية انتقادية" يضعنا مُنْذُ البداية في سياق خاص من التلقي لخطاب مهموم بالشأن الاجتماعي، ولذلك فقد توازى الخط السردي الذي يدور حول العلاقة الغرامية بين (عبد الله) و(نيغ)، وما يتصل بهما من أحداث مع الخط التعليمي الإصلاحي في نقده لبعض جوانب حياة المهاجرين العرب، وجُعلت القصة الغرامية إطاراً لتمرير خطاب المؤلف الثقافي"[98].

لكن في قصديَّة التأليف ببعده الجمالي "تطلَّع المؤلِّف إلى رؤية جديدة في الطَّرح الأدبي مُنْذُ ما يزيد على ثمانية عقود من كتابة الرواية، وبالتحديد مُنْذُ

(96) زيد، علي محمد. الثقافة الجمهورية في اليمن، سابق، ص 246 .
(97) عمشوش، مسعود. الحضارم في الأرخبيل الهندي، سابق، ص54.
(98) باقيس. سابق، ص 28.

صدورها عام 1927م، ولهذا أتت روايته في الصفوف الأولى في كتابة الرواية في الجزيرة العربيَّة، بل هي أول رواية في الجزيرة العربيَّة، في أرض المهجر كغيره من أدباء المهجر العرب، مثل جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، في نيويورك في عشرينيات القرن الماضي. وليس من المصادفة أن يكون هناك عربيٌّ آخر- وفي السنة نفسها التي وجد فيها أدباء المهجر في نيويورك- من حضرموت يكتب رواية في إندونيسيا محاولاً كسر الجمود الفكري"[99].

رواية "فتاة قاروت - مجهولة النسب" تعيد إنتاج صورة منمَّطة لعلاقة حب عذري بواسطة خطاب تعليمي وإرشادي، ولفكرتها الرئيسة علاقة بموضوع الهجرة والاندماج في مناطق الأرخبيل الهندي، وخلاصتها أن "عبدالله" الشاب الحضرمي الذي يترك حضرموت إلى سنغافورة وإندونيسيا من أجل الوقوف على ثروة والده الذي قضى غرقاً في بحر الهند، وفي فترة إقامته في منطقة "قاروت" السياحية بالقرب من "جاوة" تتلاقى مصائره مع فتاة سندواية اسمها "نيغ" يحبها من أول نظرة، "إذ لم يكن قد رأى في تلك البلدة، بل في جاوة كلها امرأة جمعت من المحاسن واللطف ما خص الله به هذه البنت"[100]، ولا يلتقي بها مباشرة وبكل دراية إلا حين يعود إلى مسكنه في قرية "رنجا ناصر" بالقرب من قاروت، بعد أن تتزوجه بوكالة منه، حين ظن أنه غير ملاقيها.

أما "ايفه" أو "نيغ"، فتاة ملاوية أو سندية في الخامسة عشرة من عمرها، تظهر في النص أنها ابنة لـ"رسنا" و"مينة"، تخفي أنها تتكلم الملاوية أو لغة

(99) باطويل، عمار. مقارنة بين مهاجري عرب إندونيسيا وعرب أمريكا في القرن العشرين، جريدة الجزيرة السعودية 2014/04/19.
(100) السقاف، أحمد عبدالله. فتاة قاروت، سابق، ص 7 .

أهل البلاد الأصلية، وتتكلم العربية، التي اكتسبتها من إقامتها في مكة ودراستها القصيرة في مصر.

حين يراها عبد الله، أول مرة، وهي تتبع والديها في طريقهم إلى قاروت، يكون الوالدان قد عقدا العزم على منحها لثري هولندي، صاحب معمل في بتاوي يسمى "فان ريدك"، ينزل في أحد الفنادق في المنتجع اسمه "سيناريون" مقابل إغراءات مالية كبيرة للأبوين، ويكون الهولندي قد رآها في مدرسة، رغب الأبوان في إلحاقها بها بُعيد عودتها من مكة، لكن المدرسة لم تقبلها؛ لأن البنت لا تتكلم اللغة الميلاوية. فيأخذهم الثلاثة الأب والأم والبنت إلى حيث يقيم، ثم يبدأ بالتفاوض، طبعاً بعد أن يستعرض- أمام الثلاثة- ثروته الباهظة معهما لمنحه البنت كمحظية مقابل عائد مالي يحصلان عليه، ويدور بين الأب "رسنا" والهولندي" فان ريدك" هذا الحوار:

"اسمح لي أن أتغالس بالسؤال عما إذا كان جنابكم يحب التزوج بهذه البنت أم يريد إبقاءها كصاحبة ينفق عليها كما هي العادة؟

- لا أخفي عليك أني أحببت ابنتك هذه، وأعجبت بها من حين رأيتها في المدرسة، صباح هذا اليوم، وزادت رغبتي بها أنها تفهم العربية، وأنا أحسن تلك اللغة، فلذلك رأيت أن أجعلها صاحبة لي أنفق عليها، وأعطيها ما يليق من الحُلل، وأجعل لها محلاً خاصاً تقيم فيه، وهذه السيارة ستكون تحت إشارتها متى شاءت تنزل، والذهاب إلى أي مكان، والذي تطلبونه من المال أحضره لكم هذه الساعة"(101).

تدور كل تفاصيل الحديث بالسندية، و"نيغ" تُظهر أنها مُنشغلة عنهم، بمشاهدة الحديقة والمروج الخضراء؛ لأنهم متيقنون أنها لا تفهم ما يدور حولها،

(101) نفسه، ص 31.

لكنها حين بدأ الهولندي بشتم العرب بقوله: "أنت لا تعرف أن العرب هم ألد الأعداء لكم معاشر الوطنيين، ولولا وجود العرب بينكم لكنتم في أحسن حال. العربي لا يحب لك ولابنتك السعادة، ولهذا إذا استشرت عربياً في قضيتنا هذه يعكس المسألة عليك، ويخوفك بالنار والعذاب إن أعطيت ابنتك للإفرنجي؛ لأنه يحب أن تبقى فقيراً مهاناً"[102]، بعدما رغب "رسنا" أن يعرض الموضوع على أحد العرب في القرية، لتفهيمها ما يحبان هو وأمها من الخير، نهضت بعدما حاولت كظم غيضها مراراً، وجادلته بكل ما أوتيت من قوة دفاعاً عن العرب وأخلاقهم، وتأثيرهم العلمي على الغرب، بلغة سلسة ومعلومات غزيرة، لا يمكن لعاقل أن يستوعب أنها لطفلة في الخامسة عشرة من العمر، حتى حينما استعانا بقس ومبشِّر أمريكي يفهم العربية ينزل في ذات الهوتيل اسمه "دي مولد" ليكون حكماً بينهما، تقوم بإقناعه هو الآخر بالدور الحضاري والأخلاقي والعلمي للعرب وكان رده، بعد سجال وعرض حقائق واستشهادات لكتاب وصحف وعلماء، في النهاية:

"إنك إذ أخجلتني بلطف أخلاقك أيتها السيدة الصغيرة جسماً، الكبيرة عقلاً، ولم أر منك إلا كل معاملة حسنة، وليت في البنات كثيراً من أمثالك"[103]، أما المال الكثير الذي أعطاها بمثابة هدية، بعد هذه الواقعة وبعد حصوله على وعد منها بدراسة عرضه حتى صباح اليوم التالي، فقد وزعته كاملاً على عُمال الهوتيل أمام عينيه حتى كاد أن يُجن.

بعد عودتهم إلى القرية يذهب الأبوان إلى الشيخ "مخطي" - فقيه في القرية يتكلم العربية- لاستفساره شرعاً بما نويا أن يقدما عليه، أو بالأصح الطلب منه

(102) نفسه، ص35.
(103) نفسه، ص، 47.

إقناع الفتاة بقبول العرض، وبعد تردد أزاله برشوة من الأب يذهب بمعيتهم إلى مسكنهما، في الوقت هذا تكون "نيغ" قد ذهبت إلى حانوت "رصيدة" - امرأة محلية كانت متزوجة لعربي- وتكتب رسالة إلى "عبدالله"، تقوم الأخيرة بتوصيلها لمسكنه وتضعه في الصورة، وأنها في طريقها إلى "قاروت".

يخرج عبدالله للبحث عنها، في ذات الوقت الذي يكون الأبوان يبحثان عنها في المزارع وضفة النهر، تعود إلى بيت مخطي للإيقاع بينه وبين رسنا والأم للتخلص من ضغوط الجميع، وحين تنجح الخطة بحدوث مشاجرة كبيرة ودامية بين "مخطي" وزوجته، وذهاب الجميع إلى الشرطة، تعود إلى مسكن عبد الله، غير أن خادمه يمنعها من البقاء فيه، فتذهب إلى الطريق لانتظاره، وهي بهذا الوضع يمر أحدهم على دراجة هوائية ويناولها خطاباً من عبدالله - تكون الأم قد زوَّرته باسمه - مضمونه أنه متخلٍّ عنها.

وحين يعود عبدالله إلى المسكن، بعد بحثٍ مضنٍ عنها في قاروت، يكتشف أن خادمه قد طردها فيجن، ويقوم بطرد الخادم "سترون"، الذي يقرر بدوره البحث عنها وإحضارها إلى سيده من جديد، لكنها تكون في ذلك الوقت قد قررت التخلص من حياتها برمي نفسها تحت عجلات القطار، وتكتب بذلك رسالة إلى عبدالله أشبه بوصية وعهد حب.

أثناء بحث الخادم "سترون" عنها في الطريق والمقاهي والنُّزل، وفي حانوت "رصيدة"، يناوله أحد العربجية رسالة كانت قد فلتت منها أثناء ركوبها معه إلى المحطة مساء، وحين يعرف محتوى الرسالة يسرع إلى المحطة قبل وصول القطار، وقبل أن تُقدم على فعلتها، وبالفعل ينقذها قبل أمتار من دهس القطار لجسدها. وحين يعود بها إلى مسكن سيده يتفاجآن أن عبدالله قد غادر إلى سنغافورة، وقد طلب من مسؤول القرية وقاضيها بيع المسكن والتصدق بقيمته

وكذلك محتويات صندوقه من المال إلى روح "نيغ"، بعدما علمه من عرافة القرية - كانت "نيغ" قد ذهبت إليها مساء- أنها رمت بنفسها في النهر، أيضاً لم ينس أن يطلب منهما أن يحررا عقداً بزواجه منها. وحين يراها مسؤول القرية والقاضي مع "سترون" يقومان بتسليمها كل شيء في البيت، بصفتها زوجة عبدالله التي لم تمت، كما تناهى إليهم.

أما عبدالله يكون قد استقل ذات القطار الذي كانت سترمي "نيغ" نفسها تحت عجلاته في طريقه إلى سنغافورة لملاقاة أخيه "عبدالقادر" الذي قدم من "حضرموت".

رسائل التطمين التي كانت تصل إلى وكيل العائلة من "سترون" و"نيغ "، قبل وصول عبدالله، كان يعرضها الوكيل على "عبد القادر" الذي يقوم بإخفائها، وحين تقلق "نيغ" عليه تتنكر بزي امرأة أوروبية وتأخذ معها "رصيدة" إلى سنغافورة، وتعمل على مراقبته إلى أن يحين يوم سفره مع أخيه على الباخرة إلى مدينة يقيم فيها عمٌّ لهما يدعى "عبدالرحيم"، فتركب معه نفس الباخرة، وحين يتعرض للسقوط في الماء تساعد في انتشاله، وسيُنقذ من رجل بزي هندي، سيعرف تالياً أنه عمهما "عمر" الذي ظن الجميع أنه قد غرق مع والد "عبد الله" و"عبد القادر" في بحر الهند.

تعرف "نيغ" أن الأخ عازم على تزويجه من ابنة عمهما، الذي سيذهبان إليه، وحين تطمئن عليه، وتعرف موعد زواجه تعود إلى قاروت، حتى موعد زفافه، فترجع مرة أخرى وتزفه دون أن يعرف من هي، ويطمئن قلبها بعد أن أحست أن العروس الذي زفت إليه لن توافقه لكبريائها، واكتسابها صفات انفتاح السكان المحليين الذي لا يمكن أن يقبل به عبد الله. بعد فترة قصيرة يقوم عبد الله

بتطليق ابنة عمه "سعيدة"، بعد أن يستنفد كل الوسائل لاستمرار حياتهما، وبعد أن يوافق الأخ والعم على قراره.

في فترة إقامتهما يُسرّ لعمه عمر بمكنونات حبه، ويحدثه عن "نيغ" التي ماتت بسبب حبه لها، غير أن أخاه "عبدالقادر" يصارحه بحقيقة عدم موتها، ويخرج له كل رسائلها التي كانت ترسلها إليه لتطمينه بأنها حية، فيقرر في ساعته العودة إلى قاروت لرؤية حبيبته، ويقرر الأخ والعم مرافقته.

وبعد وصولهم ستتكشف الكثير من المخبوءات الغامضة، ومنها أن (نيغ) هي في الأصل ابنة عمه "عمر"، وهي ثمرة لزواجه بـ"مينة" لأيام قلائل قبل حادث غرقه، وأن نيغ وضعتها أمها في رحلة حج، وتربت في مكة عند خال لها يدعى "الحاج"، وهناك اكتسبت اللغة العربية والكثير من صفات الأخلاق الحميدة والعلم الغزير.

القيمة التاريخية للنص تضعه في مصاف "الريادة السردية المهمشة"[104] في اليمن للاعتبارات التي ذكرناها، وهي أن النص كتب بقلم مهاجر يمني حضرمي، وأن موضوعه يتناول قضية اندماج المهاجرين العرب في مجتمع هجرة تقليدي في شرق آسيا. ويعد تمثيلاً شديد الوضوح لوقته، ولوعي شخوصه بما يحيطهم، وهو في سياقه البنائي يحمل قدراً مهماً من التجديد الجمالي، وعلى وجه الخصوص في حبكته، وفي تقطيعات الزمن داخل المسارات الحكائية النشطة للشخصيات، بما فيها تلك الشخصيات المستنبتة عرضاً لإيصال الرسائل التربوية من وجهة نظر الكاتب.

النص كتب بوعي عالٍ لعرض قناعات ثقافية وأخلاقية وسيروية أيضاً أُسقطت على الشخصيات، إلى جانب تفكيك علاقة أنا المهاجر بالآخر الشرقي

(104) باقيس. سابق، ص 20.

والغربي معاً، فبمقابل إمكانية التعايش مع الأول يصعب معها في الثاني "الآخر الشرقي الأكثر قرباً والتصاقاً بنا، مكاناً وحضارةً ومعتقداً، والعلاقة به لا تقوم على الصراع أو المواجهة أو التقاطب كما في العلاقة بالآخر الغربي، وإنما على التعايش والانسجام"(105).

التيمة الأكثر وضوحاً في النص هي تلك التي تلتمس "الحب العذري" الذي لا يمكن أن يصل إلى مبتغاه إلا بتجاوز عقبات الشر التي وضعت أمامه، باعتباره الموازي الآخر أو القطب الخالص للخير، وفي سياق هذه الثنائية الحادة تتولد الثنائية الأخرى لتعمل في إطارها، وهي ثنائية الآخر إما بوصفه جحيماً أو نعيماً.

وبما أن الخطاب العام الذي يسوِّقه النص يتبنى، بأسلوب الوعظ، إعلاء قيمة الثانية، كان لابد من إبطال مفاعيل الأولى، حتى ولو بالإزاحة الخشنة، لهذا سنرى كيف سيعمل على إماتة "فان ريدك" بوصفه الآخر الأوروبي الشرير:

"أضمر في قلبه الشر لعبد الله، وصمم على الانتقام منه بنفسه، فذهب إلى "بيتاوى" راكباً سيارته ليدرك عبدالله قبل سفره إلى سنغافورة، وكأنه في بعض الطريق أجراها بسرعة زائدة، فاعترضه ما أوجب انحرافه قليلاً، فصدم بها شجرة كبيرة، فقضي عليه هو والسائق تلك الساعة، وتعطلت السيارة، بحيث لم تعد صالحة للاستعمال ولا قابلة للإصلاح"(106).

(2) محمد أنعم غالب.. الشعرُ الجديد بوابة تعريفٍ بالهجرة:

محمد أنعم غالب، أحد عناوين اليمن المعاصر، وشاهدٌ نابهٌ على كثيرٍ من محطات التحول فيه مُنْذُ أواخر أربعينيات القرن الماضي، حين كان طالباً في

(105) نفسه، ص 37.
(106) نفسه، ص 158.

القاهرة، وتالياً قائداً طلابياً ضمن صفوف اليسار مُنْذُ أواسط الخمسينيات.. هو "مؤرخ وأديب ولغوي، وقانوني واقتصادي وصحفي وتربوي، والأهم من ذلك أنه يتصل بالآداب الأجنبية عبر ما يجيده من لغاتها "الإنكليزية والفرنسية". وقد أتاح له التواصل المبكِّر بالأدب الإنكليزي خاصة، أن يرود التجديد الشعري مبكراً من جهة، وأن يؤسس من جهة تجديده، لا على أساس بناء تجربة خاصة به، مستقلة عن تجارب الرواد تمام الاستقلال"[107].

وسيرته الثرية المتعددة صيَّرته "علماً من أعلام الثقافة والفكر والإبداع، فهو إنسان متعدد المواهب، وهو من رواد وصناع التجربة الشعرية الحديثة، كما هو من دعاة الحرية والفكر العلمي باكراً". كذلك هو محسوب على اليسار بالمعنى العام، وهو أيضاً رائد من رواد التعليم، فقد تبوأ أوائل الستينيات منصب نائب عميد كلية بلقيس في عدن، وهي المدرسة الحديثة التي تبناها ودعا إليها رائد الاتجاه الليبرالي أحمد محمد نعمان، أبرز زعماء حركة الأحرار اليمنيين ضد الحكم الإمامي، ومثلت الكلية الاتجاه الأكثر نضجاً وتقدمية في اتجاه الحركة الوطنية للخلاص من العهد الإمامي وقتها."[108].

الأثر الذي أحدثه - كرائد - في كتابات شعرية وسردية خاضت في موضوع الهجرة كان عميقاً، فصورة المهاجر "الغريب"، والمهن العديدة التي مارسها في نصه الرائد الذي حمل نفس العنوان وكتبه في العام 1956م صارت ثيمة

(107) سيف، عبد الودود. محمد أنعم غالب شاعراً، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الأولى 2009، ص22.

(108) أبو النصر، فتحي. الشاعر اليمني محمد أنعم غالب... الريادي المجهول - المدن 2015/01/01.

متناسلة في شخصية المهاجر الذي ظهر عند كثير من الكتاب اللاحقين شعراء وقصاصين[109].

ويرى علي محمد زيد "أن هذه القصيدة قد ألهمت الكثير من الكتاب والشعراء اليمنيين الذين تأثروا بمأساة المهاجرين اليمنيين، وتشردهم، ومعاناتهم، وضياعهم، وكفاحهم المرير من أجل كسب لقمة عيش لا تتوفر في وطنهم الذي كان تحت وطأة الفقر والجهل والمرض والظلم والاستبداد"[110].

أما "الميزة الأولى في هذا الديوان فهي الصياغة الشعرية لتأملات أنعم الحضارية، التي استطاعت أن تستوعب بمقدرة فائقة قضية الإنسان في اليمن لمراحل عديدة من تاريخه الطويل"[111]، وقصيدة "الغريب" التي ندرسها في هذا السياق "تقدم تصويراً حياً لحياة مهاجر غريب كادح بائس أرغمته ظروف وطنه، وخضوعه للاستبداد والظلم والفقر، على أن يترك بلاده، وأن يبحث عن أي عمل. ولأنه لم يؤهل في وطنه على أية مهنة ولا أية حرفة، فإنه يباشر أي عمل يتوفر له ليكسب عيشه، ويتشرد في الآفاق بحثاً عن أي عمل شاق"[112].

في تتبع لبداياته الباكرة مع التجديد الشعرى، أوصلت الباحثين في مساراتها إلى تلك المساحة الزمنية التي بدأت فيها القصيدة الجديدة بالتشكل في فضاء القراءة والتلقي، فقد "بدأ رحلته الجديدة مع الشعر في مطلع الخمسينيات، والقصيدة الأولى في ديوانه وعنوانها "عند الغسق" تومئ إلى التاريخ 1951م،

(109) كثير من النصوص الأدبية المعاصرة التي ابتدأت بالظهور مُنْذُ مطلع الستينيات وانشغلت بموضوع الهجرة أشارت إلى واحدة من المهن الإشكالية التي زاولتها الشخصيات الرئيسة في المكتوب، وهي مهنة الحرب قبل أن تصير أنموذجاً يحتذى به عند مطهر الإرياني ومحمد عبد الولي وأحمد الشامي كما يقول الجاوي في تقديمه لديوان غريب على الطريق.

(110) زيد، علي محمد. الثقافة الجمهورية في اليمن، سابق، ص 152

(111) الجاوي، عمر. ديوان غريب على الطريق، سابق، ص6

(112) زيد، علي محمد. الثقافة الجمهورية، سابق، 154

ولم يكن قد مضى على ابتداع هذا النوع من الشعر في بغداد سوى ثلاثة أعوام، وهي فترة قصيرة تؤكد قدرة الشاعر على التقاط صوت الابتكار والدخول في لحظة الريادة في وقت مبكر. كما تكشف عن إحساس فطري لتقبل النغمة الجديدة والمشاركة في توسيع دائرتها الموسيقية، والوصول عبر الفيافي إلى صنعاء التي لم تكن قد أجادت الاستماع إلى القصيدة المستحدثة، وهو الوحيد بين كل شعراء الجديد الذي لم يقترف إثم كتابة العمود، ولم تشتهر له أو حتى تروى عنه قصيدة عمودية، فقد بدأ جديداً وتوقف جديداً"[113].

وبهذا المعنى صار محمد أنعم غالب رائداً "لا يكتسب معنى ريادته من أسبقيته الزمنية إلى كتابة القصيدة التفعيلية أو القصيدة النثرية، ولكن يكتسب ريادته، إلى جانب ذلك، من كونه أسس تجربته بشكلٍ موازٍ لتأسيس رواد القصيدة العربية لتجاربهم"[114].

في ديوان (غريب على الطريق) "نقرأ كتاب الغربة سطراً سطراً، ونحس مرارة الاغتراب يوماً يوماً، وهذا الديوان لا يتحدث عن الغربة وحسب بل يتحدث عن الضياع في الوطن، عن الإحساس الفاجع بالضياع الذي يدفع بالإنسان اليمني إلى الرحيل دون هدف والإبحار دون هدف"[115].

وقصيدة الغريب "مست وتراً حساساً في النفس، فقد كنت أسمع صاحبها يلقيها في حزن شديد، واليمنيون قد ران عليهم صمت موحش، وقد يتساقط من بعضهم الدموع؛ لأنها تتحدث عن اليمني في بليَّته الأولى أو مشكلته الأولى"[116].

(113) المقالح، د. عبد العزيز المقالح. من البيت إلى القصيدة دراسة في شعر اليمن الجديد، دار الآداب، بيروت، 1983، ص47 -48.
(114) سيف، عبد الودود. محمد أنعم غالب شاعراً، سابق، ص22.
(115) علي، هشام. الثقافة وقضايا الاغتراب، كتاب الثوابت، سابق، ص 232.
(116) إبراهيم، د. عبدالحميد. القصة اليمنية المعاصرة، دار العودة، بيروت، 1977، ص 193.

"تعد القصيدة الأبرز التي أنتجت نصاً قصصياً جمع بين أركان القصة كوحدة الموضوع، والفكرة، والتكثيف، والجرأة في تقديم الحدث، وبين الخصائص اللازمة كتقنيات رئيسة اقترنت قبل ذلك بالقصة النثرية، كالبناء المحكم، والسرد، والمواجهة والإيقاع القصصي، والتي يبدأها الشاعر راوياً بضمير الغائب من خلال بدايته بالفعل الماضي (كان)"[117].

كان اسمه "علي"
قابلته.. في الشاطئ البعيد
عرفته من سحنته
ومضغة التمباك تحت شفته،
وكنت في بداية الرحيل
فرحان.. أنني خلفت من ورائي اليمن
لأشهد الحياة.. في العوالم الفساح
تموج بالزحام والصراع[118].

تنفتح البنية الحكائية في مدخل نص "الغريب" على شخصين، الأول راوٍ يظهر كواصف، والثاني موصوف تبرز بعض سماته التي تُسترجع من هويته كاسمٍ وسحنة مميزة تقول إنه يمني، وتتعزز أكثر بمضغه للتمباك تحت شفتيه (الشمَّة). الراوي في هذه المقابلة التي - تمت في شاطئ بعيد- يصف بطريقة الإخبار الحكائي، شعوره في تلك اللحظة بالفرح الذي مبعثه في الأصل تركه لليمن وراء ظهره في بداية رحلة أمَّل فيها أن يشهد حياة مختلفة في عالم مفتوح، غير تلك التي تركها وراءه.

(117) قحطان، د. عبدالرحيم. القصة في القصيدة المعاصرة في اليمن، مطابع تعز الحديثة، د.ت، ص59.
(118) غالب، محمد أنعم. غريب على الطريق، سابق، ص11.

الزمن هنا غير متعين، وإن كان هشام علي يقول: "إن الشاعر يصور حال الاغتراب في الثلاثينيات حين كانت سفن الفحم تأتي إلى موانئ اليمن، فيقفز إليها العمال اليمنيون هرباً من موت محقق في اليمن، ولكن إلى موت محتمل أو مؤجل خارج اليمن في ذلك الزمن"[119]، والمكان أيضاً غير محدد، والشاطئ البعيد لا يدل على مكان بعينه، فهو مجرد شاطئ وبعيد، غير أن وصف سحنة الموصوف ووجوده في شاطئ قصيٍّ تقول إنه مهاجر يمني يعمل في بحر مفتوح على زمن الهجرة وأكلافها التي تركت للمياه المالحة أن تتقاذفه.

قابلته.. في الشاطئ البعيد
مُنْذُ عشر من السنين
في مرفأ.. يمتد ميل
أحواضه.. تكتظ بالسفين
حدثني.. ولم أكن أعي أكثر ما يقول
ولم أكن أعرف سر حزنه
وهو الذي قد طوَّف الأقطار
وذاق ماء كل نهر
وخمر كل كرم[120].

يعود الراوي في المقطع الثاني للتوكيد على مكان المقابلة في الشاطئ البعيد، الذي يصير معرَّفاً بـ "ال" التي تُعرِّف بدورها بالمهاجر الغريب ومهنته وقتها، ويحدد أيضاً زمن هذه المقابلة بعشر من السنوات المنقضية، لكن إذا أردنا معرفة التموضع الزمني لتاريخ المقابلة، لن يكون إلا بالعودة لتاريخ كتابة

(119) هشام، علي. الثقافة وقضايا الاغتراب – سابق، ص 234.
(120) غالب، محمد أنعم. غريب على الطريق، سابق - ص11-12.

النص وهو 1956م، وهذا التموضع يصير فخاً قرائياً شديد الالتباس، وإن كان وقتها موضوع الهجرة والاشتغال في البحر يدل على ذلك بوضوح.

الشاطئ البعيد المعرَّف لغة، وليس موضعاً بعينه، يصير مرفأ بمساحة ميل، وحوضاً مكتظاً بالسفن، ويصير معرِّفاً بمهنة الغريب، الذي يبادر بالحديث للراوي الذي لم يعِ ما يقول؛ لأنه كان يبحث عن إجابة لسر حزنه الدفين، وهو الذي قد طوَّف الأقطار، وذاق ماء كل نهر، وخمر كل كرم، فمن الطبيعي بالنسبة لشخص مكسوٍّ بالفرح لمغادرته اليمن المعزول والمغلق، ومنطلق لاكتشاف الحياة، أن يكون مستغرباً لهذا الحزن.

في المقطع الثالث يبدأ الراوي بتدوين السيرة المهنية شديدة القسوة للغريب، وهي السيرة الشائعة لكل المهاجرين اليمنيين الأميين:

قد عاش في كل المهن:
ينقل الأثقال في رصيف
بالحبل، والخطاف، والعرق
وفي الثغور النائيات..
يكسب القليل
أو يقطع الأحجار في جبل
ليرفع القصور الشاهقات
في كل أرض
أو ينزل الأعماق.. في مناجم الشمال
في بلد.. يلفه الضباب والثلوج
ويستوي فيه المساء والصباح
ينزل الأعماق.. ينزع الوقود

من أجل أن يدب دفء.. أو تسير قاطرة
أو يصارع الأمواج في البحار
يجوب كل ثغر..
على سفينة دائمة التطواف
وكم يرى الجليد.. يقفل البحار في الشمال،
بياضه الشفاف يخطف البصر
وفي المحيط ذلك العريض
في وسط الدنيا
والشمس قرص نار مقره بجانب السخان
يطلب المزيد من وقود
قطعة من اللهب
تسير في لهب
في مركز العالم كل شيء يستحيل نار
والفلك جمرة سوداء في جحيم
لا يرى له لهب
لكم رأى، وكم بنى، وكم هدم!
وعاش تحت كل شمس،
كل النجوم تعرفه
الموج، والجليد يعرفه
والصخر والشجر
ونسمة الصباح والمساء
والبحر والقفار

وكل ريح[121].

ونحن نبحث في الموضوع، تبادرت إلى أذهاننا كل الأعمال القاسية التي زاولها هؤلاء المهاجرون، وتتكثف في هذا النص (عتالون، عمال محاجر، عمال مناجم، بحارة، وقَّادون)، لهذا لفحتهم الشموس، وعرفتهم كل النجوم، والأمواج والجليد والصخر والشجر ونسمات الصبح والمساء والبحار والقفار، وعرفتهم أيضاً كل ريح.

العالم الوسيع موطنه
لكنه غريب
ليس له فيه على اتساعه مقر
شارك في بناء كل دار
وعاش تحت كل شمس
وكل أرض تنكره
لأنه الغريب
يسير ها هنا.. مشرداً يحث خطوه المديد
يردد الأغاني الذابلات
ويزرع الأمل
ويحصد الضياع،
كل الموانى الغارقات في الضياء
تحس حمله الثقيل
وتستحم في مياهها ألحانه
وكل ريح حملت أشجانه

(121) نفسه، ص 12- 13.

حتى الصدى رد عليه
شاركه أحزانه
كل المهن يعرفها
حمال، أو وقاد، أو شحاذ[122].

الشعور بالغربة انهدام كامل، واستدامة هذا الحال هو الموت المنفتح على كل الجهات، و"الغربة كلمة لها معنى بائس حزين، وهي شعور بالوحدة والاختناق على الرغم من وجود الهواء حولنا، والقيود على الرغم من الحرية، وعدم الانتماء يشعر به الغائب عن وطنه، فالشعور بالغربة مرتبط بالبعد عن الوطن والأهل والأرض"[123].

ليس للغريب في هذا العالم الفسيح مقر؛ لأن الأرض كلها تتنكر له وتنكره، ففي الوقت الذي يزرع الأمل بالمهن التي يعرفها لكنه لا يحصد غير الضياع، حتى الأغاني التي حملها في ترحالاته لتؤنسه من وحشة الضياع ليست أكثر من أغانٍ ذابلات.

وذات يوم نبذته باخرة
في مرفأ يغرقه الزحام
وليس فيه موضع لعامل جديد
العاطلون بالمئات
يقضون يومهم ممددين
في العراء يعصرون النسمات
بأجنحة

(122) نفسه، ص 14 .
(123) فاخوري، سميرة. الغربة والاغتراب، موقع خبرني، 14 يونيو 2010.

مصنوعة من سعف النخيل
وكل شيء فيه نار
الجو نار والغلاء نار
حتى كؤوس الماء تباع بالنقود،
وعاش مثل ساحر عجيب
يبيع آمالاً ليائسين
يخط في الترب السطور
ويكشف المحجب المستور
ويخلط الكلام
ببضع تمتمات
وآية الكرسي، والنجاة
ويكتب التمائم المطلمسات
لعاشق مفارق، وغائب يعود[124].

في هذا المقطع سيضيف الشاعر للغريب مهنة جديدة تنضاف إلى تلك التي زاولها في رحلة عذابه الشاقة، فقد عمل قبل ذلك بنقل الأثقال في رصيف بالحبال، وبقطع الأحجار في جبل، وعامل مناجم تحت أرض الشمال، وبحاراً يُنزل الأشرعة في ذروة العواصف، ووقاداً في بطون السفن التي تعمل بالفحم لتجوب العالم.. المهنة الجديدة التي سيزاولها هنا هي مهنة السحر العجيب، يبيع آمالاً وأوهاماً ليائسين مثله، يخط في التراب مثل قارئات الودع، ويخلط الكلام المطلمس لعاشق مفارق حتى يكتسي بالطمأنينة، واقترن شرط مزاولته لهذه

(124)غالب، محمد أنعم. غريب على الطريق، سابق، ص 14-15.

المهنة الاحتيالية بعد أن قذفته "نبذته" باخرة في مرفأ بعيد ومجهول مؤثث بزحمة العاطلين الذين يقضون وقتهم ممددين في العراء.

كل الموانئ تعرفه
كل البلاد جابها
كل البحار خاضها
بأي اسم/ أبوه سماه "علي"
وحين صار في عداد الوارثين
أثبت اسمه "علي"،
في دفتر الزكاة
طارده الجباة
وباع نصف ثروته
ليدفع الزكاة
وأجرة التقدير والجباة والجنود
ورشوة الحاكم والأمير..
وغادر الوطن
حكوا له أن البحار في البعيد تقذف اللآل
وأن عالماً يمتد خلف دولة الإمام
أنهاره شطوطها ذهب
جباله ألماس
عالم عجيب
يصنع الثياب والساعات
والخيوط والإبر

والطائرات
تلك التي تمر في السحاب
وفيه ينطق الحديد،
ما ضره، لو غادر الوطن
وآخرون غادروه قبله
وهذه أخبارهم تعود
وطيها نقود
وقطع الكساء[125].

ويواصل الشاعر سرد حكاية المهاجر الغريب في بحثه عن ذاته المهشمة، وفي طريق سيره صادف الكثير ممن يشبهونه، وفي نفوسهم ذات الحنين للرحيل إلى خارج البلد الذي انتهكهم، ومثلهم ركب البحر على سفن ألقت بهم في شواطئ مهجورة، وهناك سيعيش بعض سنوات حيث سيصير اسمه القديم مجرد ذكريات:

وسار...
وفي الطريق صادف الكثير مثله
وفي نفوسهم نفس الحنين للرحيل
واجتاز بحر
على شراع
وألقت السفين
حملها بشاطئ مهجور
هناك عاش بضعة من السنين

(125) نفسه، ص 16.

واسمه القديم صار ذكريات
ونقش اسمه الجديد
في ورق
مكتوبة بخط أعجمي
وطوَّف البحار والقفار،
كم بدَّل الأسماء
وبدَّل الأوراق
في جيبه منها الكثير
والاسم أي اسم
أي اسم لا يهم
من صنف ما يحمل من ورق[126].

ولأن الحكاية تنبني أيضاً على ماضٍ فسيعود الراوي للتذكير بمهنه القديمة التي هي: بائع جائل يبيع كل شيء، لكنه بقي تاجراً صغيراً، وحينما قامت الحرب الكونية الثانية، لم يجد أفضل منها كمهنة لأنها مربحة، فصارت له عملاً، فهو محارب شجاع يجيد إطلاق الرصاص، ورصاصه لا يخطئ الأهداف. سجل اسمه في دفتر المجندين، وحارب إلى جانب الفاشيست من أجل الرغيف، تماماً، مثلما حارب على الجانب الآخر يمنيون مثله ولذات الهدف:

ومرة قد كان تاجراً يجول في الطريق
يبيع كل شيء
العطر، والصابون، والحرير
والكتب....

(126) نفسه، ص 16.

لكنه كتاجر صغير
رأس ماله العرق،
والحرب قامت مُنْذُ شهر
والغلاء نار
تجارة التطواف.. لا توفر الرغيف
الحرب قامت مُنْذُ شهر
والمجندون يمرحون
ويشترون المتعة الأخيرة
الحرب مربحة..
الحرب لي عمل
"أنا المحارب الشجاع
أجيد إطلاق الرصاص
رصاصتي ما أخطأت هدف"،
وسجل اسمه في دفتر المجندين.
ولم يزل يذكر ما في الحرب من أهوال:
"حاربت لا دفاعاً عن وطن
حاربت من أجل الرغيف، بجانب الفاشيست
وفي الليالي السود بين الدم واللهب
رأيت لي أصحاب..
كانوا من اليمن في الجانب المضاد
حاربتهم وحاربوني
لا دفاعاً عن مُثل

وكان لا يهم من يعيش أو يموت
ولا يهم قاهر أو منكسر[127].

هذه المهنة الجديدة والمربحة للمهاجر الغريب ستظهر عند أكثر من شخصية مهاجرة في النصوص الأدبية التي كُتبت بعد هذا النص[128]، لكنها حين يلقاه الراوي بعد أكثر من عشر سنوات على انتهاء الحرب، ستكون من الماضي ومهنته الجديدة هي البطالة التي تكتسيه في الشمال القاسي البارد، حيث سيكون الموت عنواناً لكثير من أمثاله إلا هو:

في عامه الماضي كان في الشمال
في مرفأ بشاطئ الشمال
جو الشمال ما أقساه
جو الشمال...
كم يزرع الأحزان والضياع
ضبابه الملبد الكثيف
وريحه نواح
كأنما تبكي مشرداً غريب،
يا قسوة الحياة في الشمال
مات صديق في الشتاء في أرض الشمال
كان عاطلاً شهور
ومات.. اغتاله برد الشمال
وهو الذي غاص في المناجم العميقة

(127) نفسه، ص 18- 19.
(128) "محمد مقبل "في رواية صنعاء مدينة مفتوحة، و"أبو عزيز" في رواية ربيع الجبال، و"مثنى" في رواية رجال الثلج هي أوضح الشخصيات تمثيلاً للحالة.

من أجل أن يدب دفء في الشتاء
يا برد جسمه المدفون من تحت الثلوج
يا موتة المشرد الغريب
حتى اسمه المنقوش فوق شاهدة
ليس اسمه، ليس اسمه[129].

لأنه سيعود من الشمال في رحلة الجنوب، بموازاة نصوصية لثنائية (الشمال والجنوب) كما صارت في سياقات القراءة الشائعة. عودته جنوباً ستكون في الربيع بعد أن يكون الشمال قد تخلص من برده القارس، ويتهيأ لاستقبال طيوره في رحلة عودتها من الجنوب الدافئ. يعود بفرحته، وهو الغريب، بعد عشر من السنين من لقائه الأول بالراوي، الذي صار الآن بمقدوره الاستماع إلى صوته نقياً، وهو يسرد خوفه من الموت في المكان البعيد المجهول، ويخاف أن ينقش على شاهدة قبره اسماً غير اسمه الحقيقي.

وعاد من أرض الشمال
منحدراً على المياه
في رحلة الجنوب
وشاهد الطيور
تعود أسراباً إلى الشمال
تسوقها الرياح في نيسان
يا فرحة الغريب إذ يعود
عاد سائراً في رحلة الربيع للجنوب
وفي طوافه الطويل

(129) غالب، محمد أنعم. غريب على الطريق، سابق، ص 19.

عبر كل بحر
وفوق كل أرضٍ
قابلته مشرداً، يقلقه الحنين
في مرفأ يمتد ميل
أحواضه تكتظ بالسفين
وكان ذاك مُنْذُ عشرة من السنين،
ولم يزل حديثه في مسمعي
والآن صرت أدري ما يقول،
إني أخاف أن أموت في البعيد
وفوق قبري ينقشون أي اسم
إلا.. "علي"..
عمَّرت كل أرض
وموطني خراب
لكم أتوق أن أعود أعمِّر الوطن
لكم أتوق أن أدق فوق صخره بفأس
لكم أتوق أن أشم ريحة الحقول
لكم أتوق أن أرى عيد الحصاد
وأن أعيد الأغنيات
في موسم البذور والحصاد
لكم أتوق أن أنادى: "يا.. علي"[130].

(130) نفسه، ص 20-21.

في المقطع الأخير من النص سيصير الراوي هو نفسه الغريب المشرد الذي وعى من الحديث الطويل والبسيط معنى الضياع، وكيف بدأ يعي معنى الغربة المريرة، وهو الذي ظن في بداية رحلته أنه سيشهد، بمغادرته لليمن، الحياة في العوالم الفساح. من البذور الصغيرة التي القاها المشرد في وعيه ستثمر المعرفة بمعنى التشرد والضياع.

الغرُّ الذي كان يرى في مغادرة اليمن خلاصاً سينتهي بمخاطبة "ركب اليمانيين" الذين تشردوا لإعمار أرض غيرهم وأرضهم ينهبها الخراب: متى سيعودون؟

يا أيها المشرد الغريب
يا من وعيت من حديثه البسيط
معنى الضياع
يا من بذرت في فؤادي الغرير
ـ فؤادي الذي كم تاق للرحيل ـ
بذور إحساس مرير
بالغربة المريرة
بعد مائة من الشهور
بذورك الصغار أثمرت
وها أنا مثلك أدرك الضياع
يكاد اسمي أن يضيع
إني أحس معنى أننا مشردون،
يا نحن
يا ركب اليمانيين المشردين

يامن أراكم تعبرون كل درب
وتعمرون كل أرض
وأرضكم خراب،
يا أيها الركب الطويل
يمتد من موانئ الجنوب في اليمن
وينتشر
في كل أرض
في مناجم الشمال
وفي البحار
وفي عيون الزيت
يا أيها الركب الطويل
متى نعود؟
متى تعود؟[131].

العودة الأهم ستكون بمعاينة هذا النص الذي يقترب عمره من خمسٍ وستين سنة، وكيف حفر عميقاً في لاحقيه من النصوص الأدبية التي عاينت موضوع الهجرة، وكيف شكل مُفتتحاً مهماً في شعر الحداثة في اليمن، وصار ببنائه وهندسة جُمله الشعرية يمثل صوتاً ريادياً لا يمكن القفز عليه، حتى في حال الاقتراب، ومعاينة دروس الريادة الشعرية في البلدان العربية.

(3) محمد أحمد عبد الولي.. الهجرة من التمزق الهوياتي إلى الريادة الفنية:

أصدر محمد أحمد عبد الولي أولى مجاميعه القصصية "الأرض يا سلمى" في العام 1966م، وكانت تجربته في كتابة القصة بالكاد تكمل عقدها الأول؛ إذ

(131) نفسه، ص21- 23.

أرَّخ للنص الأول فيها "امرأة" بالعام 1958م، غير أنها كانت قد قفزت، بهذا الشكل الجديد، أو بكتابة القصة القصيرة في اليمن إلى لحظة (جمالية) متقدمة جداً، وعلى يديه انتقلت فجأة من ذلك المجال الضيق إلى الميدان العالمي للقصة، وتحس بالفرق واضحاً بين الأسلوب القصصي عند غيره وبين القصة ذات الأريج المميز عنده، فلم يكتب القصة صدى لأفكار الآخرين، أو انعكاساً لأفكار شائعة، بل كان يكتبها من مواقع المعاناة الشخصية[132].

لم تعد القصة عنده محصورة في طبيعة الوعظ والتقرير والحكمية، ولم تعد المدينة بإسمنتها وعلاقاتها المعقدة (الزائفة)، ولا التصنع الذهني والمثالي مسرحاً لموضوعاتها، بل بدأت تبحث عن تحققاتها في فضاء القرية والهامش، وفي موضوع الإنسان المهاجر ويومياته، وفي مشكلة اندماج المولدين، وفي قضايا المسكوت عنه مثل "الجنس والسياسة"، التي لم تُطرق بذات الكيفية والتوظيف الجمالي وأبعاده الرمزية[133].

افتتح عقد الستينيات بكل صخبه شمالاً وجنوباً مثل كتاب آخرين، غير أنه استطاع بأسلوبه المميز ووعيه الحاد تمهيد الأرضية الأكثر تماسكاً ووضوحاً لقصاصين جعلوا من عقد الستينيات ذاته وعقد السبعينيات "زمناً" للتمرد الكتابي، ليس فقط في طبيعة التقنية الكتابية، بل في الأفكار والمعالجات، إذ بدأت القصة في معاينة الأشياء وتحليلها وتفكيك آلياتها، وغدا المتخيل السردي في القص جزءاً من ظاهرة الكتابة ذاتها، وليس وسيلة لإسقاط الأفكار، أو "مجرد أسلوب لخدمة مقالة أو بحث أو فكرة"[134].

(132) إبراهيم، عبدالحميد. القصة اليمنية المعاصرة، سابق، ص 118 .
(133) الشيباني، محمد عبد الوهاب - النقاد يصنعون موجة للبحر، سابق، ص 262.
(134) إبراهيم، عبد الحميد. القصة اليمنية المعاصرة، سابق، ص 30 .

القصة اليمنية شهدت في حياته "ازدهاراً لم يسبق له مثيل. ويعود الفضل في ذلك إلى تنوع تجربته وثقافته وموهبته الفنية التي صقلها بدراسة فن القصة. ولم يعتمد على جهده الفردي الذي اكتسبه من القراءة المتواصلة، وإنما تابع أثناء دراسته في مصر كل الندوات والمحاضرات، ودرس في معهد جوركي للآداب مدة عامين"(135).

"تبدو خطوة محمد عبدالولي وتجربته الروائية هي الأكثر قدرة وتمكناً في هذه المرحلة، لما يمتلكه هذا القاص من أدوات خاصة وموهبة حقيقية جعلته يعالج موضوعاً اجتماعياً في غاية الخطورة في حياة اليمني، هو موضوع الهجرة والمولدين- الذين يكونون من أب يمني وأم حبشية تحديداً- في روايته «يموتون غرباء" 1971م، ويقدم روايته في شكل فني محكم ورصين، يمثل بالفعل الشكل والمستوى الأكثر نضجاً وتأسيساً للخطاب الروائي في هذه المرحلة"(136).

تكوينه الثقافي و"عبقريته الإبداعية تجلَّت أكثر ما تجلَّت في المعالجة الفنية لجملة من القضايا الاجتماعية، مثل قضية الهجرة وما نتج عنها من قضايا إشكالية، من قبيل قضايا الوجود"(137).

محمد عبد الولي يمثل ظاهرة فريدة؛ "فهو أشبه بالنبتة العجيبة التي شقَّت طريقها وسط ركامٍ من الصخور الصلدة، تكتنفها من كل جوانبها صحراء جرداء"(138).

(135) الجاوي، عمر. يموتون غرباء، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية 1978، مقدمة الرواية، ص7ظود.
(136) أبو طالب، إبراهيم. الخطاب الروائي اليمني «المسيرة والمضمون»، منتديات ستار تايمز، 22 يناير 2008.
(137) يوسف، د. آمنة. الرؤى السردية في قصص محمد عبد الولي، النقاد يصنعون موجة للبحر، سابق، ص 116.
(138) الحضرمي، طه حسين. الإضاءة والعتمة.. قراءة في استراتيجية العنوان في قصة الأرض يا سلمى- مجلة الثقافة، صنعاء، العدد 113 ص 27.

أسماء أدبية عديدة "من القصاصين اليمنيين أدلوا بدلائهم في بئرها - الهجرة - لكن محمد عبد الولي يتفرد عن هؤلاء جميعاً بخصوصية تعود إلى منشئه ووضعه الاجتماعي المختلف نسبياً عن منشأ هؤلاء، إذ إنهم كتبوا عن المغترب اليمني الذي يذهب إلى وراء البحار، وكتب محمد عبد الولي عن هذا المغترب وعن المغترب الآخر "المولَّد"[139].

كل القراءات في أعماله تكتشف أن موضوع الهجرة والاغتراب "يُخيِّم على متن النص السردي بصورة مكثفة وحميمية على نحوٍ لافت. وفي أضعف نموذج لهذه الحالة تجد طيفاً من هذا الملمح الموضوعي ينسلُّ بين ثنايا النص، أو خيطاً عالقاً في إحدى زواياه. وباختصار شديد فإن المهاجر اليمني هو البطل الأكثر حضوراً في قصصه ورواياته، يعكس، في ما يكتب، حياة ومعاناة ومصير المغترب اليمني، وقد تكون الحبشة من أكثر النماذج تكثيفاً وكشفاً لحقيقة ما يعيشه المغترب اليمني من مكابدات اجتماعية واقتصادية وثقافية، تُطوِّح به بين زوايا شتى من تناقض الانتماء والهوية وشتات المقام والمراوغة المؤلمة بين الذات والواقع"[140].

وغير هذه الصورة النمطية الاختزالية، التي تشكلت عبر سنوات طويلة من القراءة والدرس النقدي، عن الموضوع في أدب محمد عبد الولي "ثمة صورة أخرى لأدبه، لاتزال غائبة أو مغيَّبة، ويتطلب استكشاف خطوطها الأولية النظر إلى أعماله بمنظور إنساني وكوني، يتسق مع طبيعة ورسالة النص الإبداعي

(139) الوريث، إسماعيل بن محمد. تطواف، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، د.ت، ص 345.
(140) عبد الوارث حسن - شذرات من أدب الهجرة اليمنية. ورقة مقدمة لورشة تدشين الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية، صنعاء، ديسمبر 2019.

عموماً، على اعتبار أن كل نصٍّ إبداعي هو نص كوني وإنساني وعالمي بالضرورة"[141].

في 1939م، ولد محمد عبد الولي في حي من أحياء العاصمة الإثيوبية أديس أبابا، من أم حبشية وأب مهاجر يمني. ووجد نفسه مُنْذُ الطفولة الباكرة ممزقاً بين لغة أمه، لغة البيئة التي ولد فيها وعاش طفولته الباكرة من جهة، وأب "فقيه" يعلم أطفال المهاجرين اليمنيين القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية حرصاً على المحافظة على هويتهم الثقافية. وهكذا وجد محمد عبد الولي نفسه يتحدث لغتين في الوقت نفسه، لغة أمه الإثيوبية، ولغة والده العربي اليمني، ويجد نفسه أيضاً ممزقاً بين الانتماء لمجتمعين، مجتمع المهاجرين اليمنيين المحافظ أخلاقياً، والمجتمع الإثيوبي المنفتح نسبياً.

عاد إلى اليمن سنة 1946م، في السنة نفسها التي أنشئت فيها "مدرسة الجالية اليمنية" في إثيوبيا، ولذلك لم يلتحق بها إلا بعد عودته من اليمن. فقد التحق بها سنة 1949م، وفي سنة 1954م حصل من "حركة الأحرار" على منحة للدراسة في مصر ومعه مجموعة من الطلبة الذين سيكونون فيما بعد من العاملين للتحرر من ظلام القرون[142].

وكان المتوقع أن يقع الطالب المراهق محمد عبدالولي وزملاؤه إما تحت تأثير التيار الإسلامي، بفعل دراسته في الأزهر، أو تحت تأثير الحركة الناصرية التي كانت في أوج صعودها حتى حققت أكبر إنجازاتها بتوحيد مصر وسوريا وقيام "الجمهورية العربية المتحدة" سنة 1958م، لكن الطالب محمد

(141) السلامي، أحمد. مدخل لإعادة قراءة الموضوع في أدب محمد عبد الولي، مجلة الثقافة، صنعاء، العدد 113، ص 62.
(142) ومنهم عمر الجاوي وأبوبكر السقاف وخالد فضل منصور وأبوبكر باذيب.

عبدالولي وصحبه فاجأ الجميع بانتمائه لليسار، واقترابه من الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني في مصر المعروفة اختصاراً بـ"حدتو".

انتماء محمد عبد الولي لليسار في مصر أتاح له الانفتاح على الثقافة الحديثة. فقد كان أغلب المثقفين المصريين، في منتصف خمسينيات القرن العشرين، حين بدأ تفتحه السياسي وتكوينه الثقافي، من خريجي المدارس الفرنسية في مصر وعلى صلة بالثقافة العالمية، وبخاصة الفرنسية، ولهم حضور كبير في الشعر ولقصة والمسرح، والفن التشكيلي، والنقد الأدبي والفني، وفي الصحافة، وبخاصة الصحافة الثقافية. واضطر الضباط الأحرار للاستعانة بالبارزين منهم في المؤسسات الصحفية والثقافية.

وفي هذه الفترة برزت مجموعة من زملاء محمد عبد الولي في الدراسة في القاهرة وفي حركة اليسار، مثل محمد أنعم غالب، وعبده عثمان، وإبراهيم صادق في الشعر الجديد أيضاً، وعمر الجاوي، وأبوبكر السقاف في النثر الأدبي، وهي المجموعة التي تولت قيادة "مؤتمر الطلبة اليمنيين الدائم في مصر"، وأصدرت بياناً ما يزال يعد وثيقة تاريخية.

كان متوقعا أن يصل هذا الخيار السياسي الذي اتبعه محمد عبد الولي وزملاؤه إلى الاصطدام بالمخابرات المصرية، وهو ما أدى إلى طردهم من مصر وحصولهم فيما بعد على منحة للدراسة في الاتحاد السوفيتي. لكنه لم يغادر مصر إلا بعد أن كان قد اكتسب تكويناً أدبياً وثقافياً متيناً، وكان قد قرأ في الأدب، سواء باللغة العربية أم باللغة الإنجليزية، أم مما تُرجم من الأدب العالمي إلى اللغة العربية. ومع أن المنحة التي حصل عليها للدراسة في موسكو كانت في الهندسة المدنية، فقد وجد نفسه منشداً مرة أخرى للتحويل للدراسة في معهد مكسيم جوركي للأدب، على أمل دراسة الأدب الروسي في مصادره، لكن

الإقامة في موسكو والدراسة في هذا المعهد لم تدم طويلاً، كما أن لغة الأدب فوق اللغة وليس من السهل إجادتها بسرعة. ويتضح من استعراض القصص التي كتبها خلال تلك الفترة أنه قد ركز جهوده على إجادة لغة السرد وتصوير الشخصيات، وتحسين رسم الحبكة القصصية، وتطوير فنه الأدبي.

لقد كان بحق مغامراً كبيراً يعيش غربة وتمزقاً بين انتماءين، إلى أثيوبيا موطن أمه، واليمن موطن أبيه، وجالت العبقرية القصصية والأدبية مُنْذُ وقت مبكر في حياته، فأولى القصص التي رضي عنها واختار نشرها تعود إلى سنة 1958، حين كان سنُّه لا يتجاوز تسع عشرة سنة، وهو سن مبكر بالنسبة لكتابة قصص ذات مستوى متقدم من حيث تقنية فن القصة القصيرة.

وقد اختار مُنْذُ البداية قضيتين رئيسيتين ليركز عليهما فنه القصصي، الغربة التي يعيشها واقعياً ونفسياً، وقضية المرأة ومعاناتهما معاً"[143].

على مدى نصف قرن بقيت رواية "يموتون غرباء" عنواناً صريحاً لأدب الهجرة اليمنية، أو بأحد التعبيرات "تكاد تكون المانفيستو الأدبي لموضوع الهجرة والاغتراب"[144]، وهي كنص تبدأ بصوت راوٍ خارجي، يمهد للقارئ التعرف بالنصف المكمل لسيرة الشخصية المحورية "عبده سعيد" في زمنها المهجري. فكل ما عرفه سكان "سدست كيلو" في أديس أبابا أنه فتح دكانه الصغير مُنْذُ عشرة أعوام، وبالمقابل عرف "عبده سعيد" كل شيء عن أهل الحي، وعلى وجه التحديد نسائه، وهذا الحي "حي السادة والعبيد، حي الفيلات الصغيرة الأنيقة وحي الأكواخ.. حي هادئ كحدائقه الخضراء، وصاخب كالخمر تتدفق براميلها في بطون السكارى، حي موحش كصراخ المومسات

(143) زيد، علي محمد. الثقافة الجمهورية، سابق، ص 248 وما بعدها.
(144) عبد الوارث، حسن، سابق.

القبيحات.. أما هو فلا يهمه هذا الأمر، إنه يعيش بينهم لكنه بعيد عنهم، كالبعد بين ملابسه المتسخة السوداء ووجهه الأبيض المبتسم"[145].

في دكانه الضيق الذي يحتوي على كل ما يرغب في اقتنائه سكان الحي، كان ينام ويطبخ، لم يُبصر إلا بملابسه تلك، أما بدلته الأخرى فلا يلبسها إلا حين يذهب إلى الميركاتو مرة واحدة في الشهر لشراء البضائع، أو يذهب أيام الأعياد إلى مقايل أبناء الجالية.

كان له أكثر من اسم، صالح وجماله، ويبلغ الأربعين، كان أهل الحي يحبونه، ولا يعرفون لماذا؟ وحدهن النساء كن يعرفن ويتواصفن برجولته وقدرته الجنسية.. الأطفال أيضاً يحبونه، حتى ليقال إنه أب كثيرٍ من أولئك الذين من غير أب[146].

امتلك عقلاً جباراً في إدارة حساباته وإرضاء الزبائن جميعهم.. أما الأرمني صاحب المحل الأكبر والأنظف والمنظم في ذات الحي فقد كان يستغرب إقبال السكان نساءً ورجالاً وأطفالاً على دكان عبده سعيد، وتحول مع مرور الوقت، هذا الاستغراب، إلى حقد مضاعف ابتدأ مع تساؤله:

"إن هذا اللعين يكسب بكثرة، لكن أين تذهب نقوده، إنه لا يأكل.. إنه يطبخ شيئاً كالمرق.. إنه يلبس ثوبه نفسه من عشر سنوات، ترى هل ذهب مرة إلى الحمام؟ هل يعرف ما هو الديك الرومي؟"[147]، وكان كثيراً ما يقدم بلاغات للجهات الضريبة يتهمه بالتهرب، ولم يكن أمام عبده سعيد سوى الذهاب إلى زوجة أحد المسؤولين الكبار، وكانت عشيقته، لإعفائه من حصة الحكومة بحجة أنه فقير، ومردود حانوته لا يطعمه من جوع.

---

(145) عبد الولي، محمد أحمد. رواية يموتون غرباء، سابق، ص 14.
(146) نفسه، ص19.
(147) نفسه، ص16- 17.

كان يعيش بأعماقه لا في "سدست كيلو"، ولكن في قريته البعيدة حيث أحلامه ترف عالياً في سمائها. أهالي الحي والأرمني كلهم لا يعرفون أين تذهب نقوده، أما هو فقد كان يعرف تماماً أين تذهب.

معاناته الحقيقية ستبدأ مع حضور "طائتو" ذات مساء إلى دكانه، فحين افتتح الدكان كانت تبلغ من العمر ستة أعوام، وظلت تحلم به بعدما سمعت من أمها وصويحباتها عن رجولته، فانتظرت حتى بلغت السادسة عشرة ليطلق فيها الأنثى على أجولة الدقيق ذات مساء في دكانه الضيق، وتحولت بعد وفاة والدتها إلى "أجمل مومس" في الحي.

زيارتها جاءت لمطالبته احتضان ولده من امرأة توفيت وكانت عشيقته وتركت الطفل وحيداً لديها، وحين يرفض تقوم بلطمه وشتمه، وذهبت تشكوه للشيخ أمين - أحد المهاجرين اليمنيين ذو سطوة دينية، ويدَّعي الكرامات- الذي بعد أن استمع إليها طلب منها عدم إخبار أحد بزيارتها له، ومباشرة يستدعي إليه الحاج عبد اللطيف - تاجر يمني على علاقة بالأحرار- ليخبره بأن الله اصطفاه بمهمة إنقاذ طفل مسلم من التنصُّر، وعليه الذهاب لوالد الطفل "عبده سعيد" وإقناعه باحتضان ولده، فيذهب، وملؤه فخر بهذا الاصطفاء الرباني، مع صالح سيف- مهاجر يمني من أنصار الأحرار- إلى دكان عبده سعيد، فيرفض طلبه بأخذ الطفل بحجة أن الطفل غير شرعي "زنوة"، وأنه إذا فعل ستأتي أغلب نساء الحي بأطفالهن إلى باب دكانه، ويدعين أبوته لهم.

في هذا الوقت يكون "عبده سعيد" قد حقق كل حلمه هناك في القرية، فلديه أجمل دار من ثلاث طبقات، علَّق صورته في واجهة الدكان ليبصره كل داخل، لكنه يخبر كل من يسأل عن مالك الدار الجميل يرد بأنه شيخ القرية، حتى لا يُتهم بغناه وتهربه من دفع الضرائب، وسيكون قد امتلك أيضاً دكاناً كبيراً في

المدينة يديره ولده، وتملَّك أهم حقول القرية وبساتينها. وبدأ يفكر بالعودة إلى اليمن والذهاب للحج، ويفكِّر بالزواج من أخرى فوق زوجته.

وفي ليلة شتوية باردة أشعل موقده الوحيد ليتدفأ قبل نومه، وأثناء انسراحه في أحلامه التي تحققت هناك في بلده البعيد، يتسرب عادم الموقد "ثاني أكسيد الكربون" فيصاب بالاختناق، ورغم استغراب أهل الحي من قفل الدكان مُنْذُ الصباح، لا يُسعف إلا مساءً بعد كسر الباب، فيجدونه في غيبوبة، وبه بقية حياة، فينقل للمستشفى، حيث سيستغرب الطبيب الإيطالي بقاءه لهذه الساعات يقاوم سموم العادم، لكنه بعد هذه المقاومة الجبارة ينهار؛ "لأنه صمد أكثر من الواجب.. إنها حياة لا تستحق أن تُعاش"[148].

وبدلاً عن أجمل دار هناك في القرية حيث يشير الأطفال، لن يتحلق هنا حول قبره أيٌّ منهم ليقولوا "أجمل قبر في الدنيا قبر عبده سعيد"[149]، القبر الذي سيحسده عليه الحاج عبد اللطيف، لوجوده على حافة النهر وبالقرب من شجرة باسقة تظلله. القبر الذي ستضعُ عليه زهوراً وترشه بالماء امرأة تخرج من إحدى زوايا المقبرة متشحة السواد، ويكسو وجهها الجميل الحزن.. المرأة التي سيسأل صوت الراوي الخارجي: "ما الذي تحمله لهذا الغريب، الذي مات دون أن يترك شيئاً سوى قبره؟"[150].

"يموتون غرباء"، نص احتجاجي شديد الوضوح لنوع من هجرة اليمنيين الأميين والفقراء إلى شرق إفريقيا، والذين يسعون لتحقيق أحلامهم البسيطة بشتى الطرق، ومنها التجاوزات الأخلاقية، دون أن يسعون لتطوير أنفسهم، أو الاندماج والتعايش مع قيم المجتمع الذي يعيشون فيه.

---

(148) نفسه، ص 94.
(149) نفسه، ص 95.
(150) نفسه، ص 97.

وشخصية "عبده سعيد" تكثيف واضح لهذا المنزع، يعيش في أقسى الظروف من أجل كسب المال، وحين يكون مطالباً بدفع الضرائب يدعي الفقر، ويستخدم نزواته الجنسية مع زوجة أحد المسؤولين للحصول على إعفاءات متكررة، ويجد تبريرات لكل أفعاله، لهذا تغدو هذه الشخصية "معلولة تحمل بذور تدميرها داخل نفسها، وتسعى إلى مأساتها سعياً حثيثاً، فقد انفصلت عن الواقع انفصالاً مأساوياً، وراحت تصدر في سلوكها كله عن صوتٍ نابع من داخلها هي، وهو داخلٌ معزولٌ لا علاقة له بظروف المجتمع إلا في الحدود التي تكون فيها العزلة ظاهرة اجتماعية"[151].

الشخصيات الثانوية في "يموتون غرباء"، تلعب أدواراً محورية في تشكيل خطاب الاحتجاج في النص، ستتقاطع مصائرها بعبده سعيد، ومن هذه الشخصيات السيد أمين "الذي ترك اليمن وهو في العشرين من عمره.. تعلم في مدارس "جبلة "علوم الدين والفقه.. ووجد في الحبشة مكاناً واسعاً أيضاً وأتباعاً كثيرين، وعندما بلغ الأربعين كان قد اعتزل الناس في بيته الكبير المكوَّن من عشر غرف وحوش كبير. كان يجلس دائماً في غرفته التي قسمت إلى قسمين، قسم خاص لا يدخله أحد حتى زوجته، يعتكف فيها نصف شهر يُقدم له الطعام من خلال نافذة صغيرة.. ويبقى يتعبد ويقول أتباعه إن الملائكة دائماً ما تزور زاويته وتتحدث معه، وقد سمعوا أصواتاً رقيقة ناعمة وعذبة تحدث السيد عن أشياء كثيرة في الدين"[152].

هذه الشخصية تعيش على اتجارها بالدين وتزييف الوعي وتحترف الكذب، فهي التي تقنع الحاج عبد اللطيف بأنه مصطفى من السماء لإنقاذ روح مسلمة،

(151) روميه، وهب. سابق، ص 34 .
(152) عبد الولي، محمد. يموتون غرباء، سابق، ص 53-54 .

وأن الملائكة هي أخبرته وليس "طائتو" التي استنجدت به. شخصية تعيش "على الخرافات والمعجزات والغش والادعاء بمعرفة أسرار الكون، وتعيش عملياً على حساب عرق أفخاذ العاهرات وجبين المهاجر الفقير"[153].

الحاج عبد اللطيف "رجلٌ قصير القامة ممتلئ الجسم، ذو لحية سوداء صغيرة، في الخامسة والأربعين من العمر.. أثر السجود ظاهر فوق جبهته، وكان أحد أغنياء اليمنيين في أديس أبابا، وأحد قادة "الجالية" فيها، كما كان له دور في ثورة 1948م؛ إذ إنه كان أحد كبار الأحرار اليمنيين، وهو لايزال حتى الآن يؤمن بهم، بل ويقدم لهم الكثير من المساعدات"[154]. يتظهر في النص كشخصية "مركَّبة، ويرى في الدين مخرجاً لحل مشكلة اليمن.. يلعن الخمر وهو يشربها، يلعن الزنا لكنه يحترس كي لا ينجب أطفالاً غير شرعيين.. يفرح حين يخبره السيد أمين بأن الله اختاره لمهمة إنقاذ نفس مسلمة، لكن كيف له أن يتحمل "زنوة" لإخوانه بذات منطق عبده سعيد"[155].

ومقابل هذه الشخصيات تتظهر أخرى بمنزع إنساني، يطفو على تاريخها الشخصي، مثل "طائتو"- المومس الجميلة- التي تطرق كل الأبواب ليستعيد عبده سعيد ابنه غير الشرعي الذي فقد أمه، وتخوض معه معركة شرسة وصلت إلى لطمه وشتمه بأقسى العبارات، حين وجدته قاسي القلب وهي التي تعشقه بكل جوارحها.

"فاطمة قد ماتت بالأمس، ولقد تركت في غرفتها الصغيرة طفلاً وأنت تعرف أنه ابنك.. أنا أعرف أنك إنسان تافه.. ولكن لعل في أعماقك تولد عاطفة

(153) الجاوي، عمر. مقدمة رواية يموتون غرباء، سابق، ص 10.
(154) عبد الولي، محمد. يموتون غرباء، سابق، ص 58.
(155) روميه، وهب. سابق، ص42- 43.

اسمها الأبوة.. إنه ابنك يا عبده يجب أن تعمل من أجله أي شيء"[156]. وحين تيأس تذهب إلى الشيخ أمين وتعرض عليه مشكلة الطفل اليتيم:

"أعرف أنني مسيحية، وأن إلهك غير إلهي، وكلنا بشر.. وهذا الطفل لا أستطيع وحدي أن أتكفل به، وأنت تعرفني أعمل كخاطئة.. لكن ماذا أستطيع أن أعمل، يجب أن أعيش أن أبحث عن لقمة خبز"[157]. نفس "طائتو" المومس حافلة بنوازع الخير، عامرة بمحبة بني الإنسان حتى لو كانوا من دين آخر غير دينها.. إنها امرأة فاضلة في جوهر علاقتها بالمجتمع، على نحو ما لاحظ عمر الجاوي في تقديمه للرواية"[158].

في مسار الرواية يستنبت محمد عبد الولي شخصية مكملة لصورة الهجرة وداخل مفاعيلها، إنه الابن المولَّد صاحب الموقف الواضح من الهجرة ومن واجهاتها الاجتماعية في الحبشة.. هذا المولَّد يعمل سكرتيراً للحاج عبد اللطيف ويعرف كل خباياه، وبواسطة الجدل بينهما تتكشف المسافة الثقافية والأخلاقية التي أنضجتها إشكالية الهجرة داخل كل واحدٍ منهما.

كانا مختلفين في تفكيرهما السياسي.. وكلما قام الحاج بجمع تبرعات راح السكرتير يطلق في المركاتة مختلف النكات والتعليقات عليه وعلى الشيخ أمين.. لكن الأمر الآن أصبح جدياً ويتعلق بمصير طفل يرفض الحاج عبداللطيف تبنيه بحسب طلب الشيخ أمين.. شعر السكرتير بحب يجذبه للطفل الذي لم يره.. إنه أيضاً مولَّد ومثله ممزق، لا يعرف وطناً ينتمي اليه، أو تراباً يحتويه.. سيكون مثله غريباً لا يستطيع أن يقول إنه يمني، فهو لا يعرف اليمن.. لم يرها في حياته، ولو ذهب إليها كيف ستستقبله؟ لعلها تلفظه كما تلفظه هذه

(156) عبد الولي، محمد. يموتون غرباء – سابق، ص 44 .
(157) نفسه، ص51.
(158) روميه، وهب. سابق، ص 38.

الأرض التي ليست أرضه، على الرغم من أنها أرض أمه، نعم... إنه ويا للأسف ليس حبشياً[159].

لقد قرر أن يأخذ الطفل ليربيه مثل أخٍ صغير، ليس لينقذه من كفرٍ وإلحاد، ولا لجعله مسلماً، كما يرغب الشيخ والحاج، فهذا الأمر سيقرره الطفل حين يكبر، ولكن حتى لا يكون غريباً. إنه بهذا الموقف "يدين الهجرة ويرفع أصبع الاتهام في وجه المهاجرين، وينكر على الحاج عبداللطيف طريقته الخاصة في النضال، ويسخر منها.. شخصية تتميز بإشكالية موقفها من الواقع، لا تستضيء بعالمها الداخلي فحسب، بل تتعامل مع حقائق الحياة الصلبة أيضاً، في محاولة للخروج من المآزق التي تحدق بها من كل جانب"[160].

في أعمال محمد عبد الولي الروائية والقصصية الأخرى لابد أن نصادف مهاجراً يمنياً منهدماً، أو قل منفصلاً عن واقعه، أو مهاجراً يعود إلى وطنه مجنوناً، أو إلى قريته ليموت، بعد أن تكون الأرض التي هاجر إليها هرباً من الفقر والجوع والظلم قد امتصت عصارة عمره في المكابدة والشقاء. خليط متنوع من البشر الذين يشبهون أرضهم.

في مجموعة "الأرض يا سلمى"، (المجموعة القصصية الأولى التي أصدرها ببيروت في العام 1966م) سنصادف "أبو رُبِّية" مهاجر يمني "في الخامسة والثلاثين من عمره، أسمر الوجه، غائر العينين، ذو ابتسامة غامضة تسخر من كل الناس، لم أكن أعرف أين يعيش وكيف، وكلما سألته كان يجيب: يا شيخ أرض الله واسعة"[161]. لا يعمل، ويقتات من مزاولته للرسم على الجدران، ويتفنن في رسم وجوه من يكرههم من التجار البخلاء على هيئة

(159) عبد الولي، محمد. يموتون غرباء، سابق، ص79 وما بعدها.
(160) روميه، وهب. سابق، ص 48-50 .
(161) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، سابق - ص29.

حيوانات، وكان لا يطلب سوى رُبِّية "عملة قديمة". له فلسفته في الحياة، كان كلما تذكر اليمن يقول سأرسم شيئاً يشبهني، ثم يأخذ عصاه ويبدأ بالرسم على الأرض، والعرق يتصبب من وجهه ودمعة تنحدر على وجنتيه، وعينان غائرتان تحدقان في الأرض، وبعد قليل تتضح معالم الرسمة: جبال وشمس وناس وحيوانات وأشياء أخرى، وبعد أن ينتهي من الرسمة يشير إلى البعيد، ويقول: هناك بلاد جميلة كلها جبال وأشجار وشمس ووديان.

يضيقون منه فيتم تسفيره من الحبشة بحجة الجنون، ليظهر في إحدى مقاهي الشيخ عثمان أكثر رثاثة، ولا يُعرف في أوساط زبائن المقهى إلاَّ بالمجنون الذي يرسم كل الذين لا يحبهم على هيئة حيوانات ممسوخة وكريهة.

في رواية (صنعاء مدينة مفتوحة) تظهر شخصية محمد مقبل، وهو مهاجر يجوب الأقطار ويعمل في كل المهن، يعود ليقيم في مقهى في عدن، ومنه يعود مرة أخرى "إلى قريته ليراجع تاريخه، ويكتشف أنه أمضى حياته في ضياع بلا هدف، ودخل في قتال مع أناس لا يعرفهم، قاتل معهم مرة، وقاتل ضدهم مرة أخرى، وقاتل في قضايا يجهلها، ولصالح ناس لا ينتمي لهم، فقد قاتل الإيطاليين في الحرب العالمية الثانية ضد الإنجليز، ثم قاتل مع الإنجليز ضد الإيطاليين"[162]. يعود وقد "أعطته الحياة بعض أسرارها، وعلمته مقادير من حكمتها، فإذا هو رجل خبير ذو رؤية سديدة وثاقبة"[163]. ومثل محمد مقبل يحضر في ذات الرواية المهاجر علي الزغير الذي عمل بحاراً، بعد أن تعذر عليه مواصلة التعليم في زبيد، لكنه بقي منكفئاً على ذاته، وغير منشغل بالهم العام.

(162) باقيس، عبدالحكيم. سابق، ص 103 .
(163) رومية، وهب. سابق، ص59.

في نص (طريق أسمرا) يلتقط محمد عبد الولي شخصية المهاجر اليمني في لحظة تمزق هوياتي في منطقة نائية، لم تعد تربطه باليمن أية صلة، "لقد نسيتها، إنني أنتظر الموت فقط.. لن يعرفني أحد هناك إذا عدت.. ثم ما الذي سأحمله لهم بعد غياب عمر كامل؟ لا.. سوف أبقى هنا حتى النهاية.. لا أحد بقي معي هناك. لن أعود.. قد يعود أبنائي يوماً ما إذا عرفوا أن أباهم كان غريباً.. وقد لا يعودون، قد يظلون مثلي غرباء"[164].

يبقى منجز محمد عبدالولي (القصصي والروائي) هو العلامة الفارقة في خارطة الكتابة السردية الجديدة في اليمن، وانشغاله بموضوع المهاجرين والمولدين اليمنيين عزز من التحام الأدب بقضايا المجتمع، وعبر عنها بكل رقي.

(4) زيد مطيع دماج.. النهايات المقترحة للتخلص من الإذعان:

(1)

زيد مطيع دماج، أحد كتاب القصة السبعينيين في اليمن، الذين انهمكوا في مقاربة وعي التحول في اليمن "الذي تخصب بفعل الهجرة"[165]، من خلال إعادة تمثيل الكثير من حكايات المهاجرين التي ارتبطت بالعهد المتوكلي الإمامي، ومن ثم إعادة توظيفها جمالياً في إبراز واضح لصوت الإدانة لتلك الحقبة، و"يحتل الفن القصصي لدى زيد المساحة الأوسع في نتاجه السردي. وقد يكون ذلك بسبب إيمانه بأن فن القص هو فن اللحظة التي تلتقط الأهم

(164) عبد الولي، محمد أحمد. الأعمال الكاملة، سابق، ص 86.
(165) الحسامي، د. عبد الحميد. التحول الاجتماعي في اليمن من خلال الفن القصصي، مؤسسة السعيد، تعز 2009، ص167.

والأكثر سخونة من قضايا الواقع"[166]، وقد "صنع لنفسه موقفاً خاصاً في مجال القصة اليمنية القصيرة، بخاصة، سواء في اختيار موضوعاته الساخنة، أم لغته القريبة من القلب، أم في تعامله الواعي والذكي مع الرموز"[167]. و"تتميز المعالجات القصصية للكاتب الراحل بمنحاها الاجتماعي، المتكون عبر رؤية فكرية انشدَّ إليها الجيل الذي ينتمي إليه كقناعات لتأكيد ضرورة التغيير الذي آمنوا به، وتعكس تلك القناعات اعتراضاته على السائد من قيم متوارثة جهلاً وتقليداً، في ظل تغييب الوعي داخل المجتمع، كمظهر للتخلف الذي بني على أساسه النظام، والقوى التي تحكمت في السلطة في اليمن قبل قيام الجمهورية"[168].

وتتحول الحكاية في المدونة السردية الشعبية ومشافهتها في كثير من قصص زيد إلى نوع مختلف التصوير، يتكثف في ما يمكن اختزاله بالدهشة التي تصير حالة مختلفة للتلقي، فـ"اللذة والإمتاع هي الجانب الإبداعي عند زيد، التي تستمد أصولها وجذورها من الذاكرة الثقافية الشعبية ومن المخيلة الشعبية أيضاً"[169]، والالتفات إلى أعمال زيد دماج القصصية "يجعلنا نقول إن معظم حكاياته هي حكايات سياسية، ولكن بأسلوب القاص الذي يصنع الأحداث في قلب النظر

(166) الشيخ، د. حفيظة صالح. سيميوطيقيا العنوان في مجموعة المدفع الأصفر، زيد مطيع دماج.. سيرة وطنية حافلة بالإبداع، ص147.
(167) عبد العزيز المقالح. الدلالات الرمزية في القصة القصيرة، زيد مطيع دماج أنموذجاً، زيد مطيع دماج.. سيرة وطنية حافلة بالإبداع، 2009، ص13.
(168) الصكَر، حاتم. الرؤية الاجتماعية في قصص زيد مطيع دماج، زيد مطيع دماج.. سيرة وطنية حافلة بالإبداع، ص 29.
(169) علي، هشام علي، السرد والتاريخ في كتابات زيد مطيع دماج، مركز عبادي، صنعاء، الطبعة الأولى 2000، ص8.

الأدبي، ومن ثم يقوم برسم شخصياته القصصية رسماً عفوياً صادقاً، وفي بناء درامي أصيل هو درامية الواقع نفسه "[170].

لقد كانت موضوعات الهجرة بدوافعها الاجتماعية المباشرة، وأحياناً ضغوطها السياسية، واحدة من متكئات الكتابة في تجربته القصصية الثرية التي بلغت خمس مجموعات، صدرت بين 1973 و1998م، إذ احتوت هذه المجموعات على أربعة نصوص تامة التعيين، ابتدأت بنص "العائد من البحر" في مجموعة "طاهش الحوبان"، وآخرها نص "قصة مهاجر حقيقي" في مجموعة المدفع الأصفر، وبينهما نصان آخران عنوان الأول "الذماري" في المجموعة الأولى، والثاني في المجموعة الثالثة الجسر وعنوانه "خلف الشمس بخمس".

كل النصوص تقارب حالات الهجرة في الزمن المتوكلي الإمامي الذي تشير إليه صراحة تعيينات الوقت والمكان وترميزات سلطة الحكم ذاتها، التي لعبت الأدوار المتقدمة في هجرة الأشخاص بفعل استبدادها.

وفي النصوص الأربعة تتعين دوافع الهجرة، ولو بشكل مضمر، وتتضح أسباب العودة، وتالياً الدوافع الجديدة التي تحمل نفس المهاجرين إلى اتخاذ قرارات بعضها مأساوية للتخلص من العبء الذي تريد السلطة القاهرة تحميلهم إياها بسبب هذه العودة.

في نص "العائد من البحر" في مجموعة "طاهش الحوبان" يتظهر المهاجر باسمه "علي بن علي"، لقد عاد من البحر ومعه المال الكثير، يلبس الأبيض والأزرق، ولديه بندقية "زكي كرام"، وجنبية مذهَّب، وحذاء من "عدن"،

(170) علوان، عبدالله. القصة اليمنية الموقف والأسلوب، مطابع دائرة التوجيه المعنوي، الطبعة الأولى 2010، ص224.

ويشرب السجائر الفاخرة، ويُحمل له الماء البارد في ثلاجة صغيرة أينما ذهب ليقيل في مقايل القات"[171].

يعود هذا المهاجر إلى قريته دون علم الشيخ (كبير الإقطاعيين وحاكم القرية)، ويبتني مسكناً في أرض بور على أطراف القرية، كان قد رسم تفاصيله بمخيلته مُنْذُ كان مهاجراً، ويشتري أرضاً من فلاح، ويخطب ابنة فلاحٍ آخر أيضاً دون علم الشيخ، وحين يعلم الأخير يستخدم كل الأساليب لتركيع المهاجر، تبدأ أولاً بتنفيذ العسكر عليه، وحين يرفض الحضور، يُتهم بالاعتداء على العسكري، فيضطر عمه إلى إرضاء "تهجير" الشيخ بثور، وحين يرفض علي الإذعان يطلب أن تحال قضيته إلى الحاكم، وحين يصل إلى مقر الحاكم في "المقام الشريف" يجد أمامه وكيل الشيخ، الذي يدعي قيام المهاجر بتزوير أوراق شراء الأرض، وأنه ليس لديه مسكن في الأصل في قرية الشيخ، فيطلب المهاجر العائد من الحاكم شخصياً أن يخرج إلى القرية للتحقق من كذب ادعاء وكيل الشيخ، وحين يصل الحاكم إلى القرية بموكبه يطلب منه أن يريه مسكنه، وحينما يصلان مع الجموع الغفيرة إلى المكان، لم يجدا المبنى، ووجدا بدلاً عنه أرضاً مفلوحة، بدأ الزرع ينبت فيها، ولا أثر للبناء ومخلفاته من أحجار وأخشاب، وفي غمرة دهشته واستغرابه، يقترب "من الحاكم وبندقيته متدلية إلى الأمام، بيده تترنح، وأشار الحاكم نحو عساكره فتحركوا نحو علي بن علي ليطوقوه.. ولما اقتربوا منه دوت طلقة نارية، سقط على إثرها الشيخ مضرجاً بدمه"[172].

(171) دماج، زيد مطيع. الأعمال القصصية الكاملة، سابق، ص49.
(172) نفسه، ص 73.

ثنائية الشيخ "الإقطاعي المتجبر والمتسلط والظالم الذي يمتلك كل شيء"، والرعوي الراضخ المظلوم الذي لا يمتلك شيئاً، هي الفكرة التي ينهض عليها النص.. الشيخ رمز للسلطة الفاسدة، والرعوي هو المواطن المقهور، الذي يحاول التغيير من وضعه بالهجرة، ويعود ليكون رقماً مستقلاً عن حسابات الشيخ، تُصنع له المشاكل التي يشترك فيها الشيخ والحاكم وإذعان الفلاحين، ولا يكون أمامه من حل سوى قتل الشيخ، في نهاية مفتوحة على أكثر من قراءة، ومنها القول إن الهجرة صنعت إنساناً جديداً، بمقدوره ألَّا يكون مذعناً، أو كما يقول عبد الحميد إبراهيم: "يعود بعد أن رأى مجتمعاً مختلفاً، فيتحلق حوله "الرعويون" ويحكي لهم حكايات عما وراء البحر، إنه بهذا يصبح خطراً على النظام؛ لأنه يفتح الأعين ويثير الوعي فيحدث الصدام مع واقعه ويكون عنيفاً"[173].

(2)

في نص ثانٍ في ذات المجموعة عنوانه "الذماري"[174] تتكرر مأساة المهاجر العائد، من خلال شخصية عائد من وراء البحار، كان يعمل بحاراً، ويجيد العديد من اللغات، يُعرف باسم الذماري، يصل صنعاء بعد عام من فشل حركة 1948 الدستورية، بملابسه العصرية، وهيئته المتمدنة التي تثير الريبة في مدينة مغلقة ومحافظة. يسكن في سمسرة "وردة"، فتنشأ بينه وبين المقهوية علاقة ألفة، وحين يذهب إلى مقر عامل صنعاء للحصول على وظيفة مترجم للطبيب الإيطالي الوحيد في البلاد، يتعرض للنصب من أحد العساكر حين يوهمه بشراء هدية للحاكم من محل أقمشة، يمكنه بواسطتها الحصول على

(173) إبراهيم، عبد الحميد. القصة اليمنية المعاصرة، سابق، ص 2001.
(174) دماج، زيد مطيع. الأعمال الكاملة، سابق، ص 96 وما بعدها.

الوظيفة، وحين يشكوه صاحب محل الأقمشة للحاكم لعدم وفائه بسداد المبلغ يتعرض لابتزاز جديد من كاتب الحاكم، وحين يرفض الإذعان يُرمى في سجن الرادع، لا يخرج منه إلا بعد تعيين حاكم جديد، وبشرط عدم بقائه في صنعاء.

أولاً، أريد أن أعترف بأن العرض المقتضب لفكرة النص تظلم بشكل مطلق هندسته السردية المحكمة، التي تخوض في تفاصيل المدينة والحياة فيها، وهو أمر فرضته مساحة المعاينة وطبيعتها. ولجهة القراءة ذاتها يواصل الكاتب مقاربة المستحيل في أحلام المهاجرين، فهو مرة أخرى لا ينشغل بالأسباب التي قادت الذماري للهجرة قبلاً، لكنه معنيٌّ بنتائج عودة المهاجر، بشخصيته الجديدة وحلمه النبيل الذي يصطدم بفساد الحاكم وجبروته.

(3)

"خلف الشمس بخمس"، عنوان النص الثالث المقروء، وهو ضمن محتوى مجموعة "الجسر"[175]، وتقوم فكرته على مغادرة شاب فقير، لا يمتلك غير مئزر يغطيه من الركبة إلى السرة، لقريته في جبل بعدان باتجاه مدينة عصب، بعد أن ضاق به الحال، وأكلت الشريعة كل ما يمتلكه الأخ الكبير. وبعد رحلة مضنية يكون فيها الناجي الوحيد من غرق الزورق المتهالك الذي ركبه مع آخرين، يصل إلى عصب "تلك المدينة التي راودت خياله دائماً مُنْذُ بدأ غيره من شباب القرية والعزلة والناحية يهربون إليها من الفقر والجوع الذي صنعه عساكر ومأمورو الإمام يحيى"[176].

وبعد حياة قاسية في المدينة كان يقتات بها من السرقة، بمعية أحد أبناء قريته، عمل بمغسلة إحدى البواخر، فجاب معها كل الأصقاع، وحين تبقى

(175) نفسه، ص 248 وما بعدها.
(176) نفسه، ص 260.

الباخرة التي يعمل عليها لأشهرٍ في مدينة ليفربول للإصلاح، يتعرف بإنجليزية شقراء تزوجته لأنه من بلاد البن "المخا"، يفتح معها بقالة، وينجب منها خمسة أولاد، وبدلاً عن مواصلة عمله في البحر عمل في مجال مراهنات سباقات الخيل التي كان يكسب منها كثيراً.

انفجار الحرب العالمية الثانية، وتوقف سباقات الخيل والملاحة، "وبين أزيز صفارات الإنذار ودوي القنابل، وأضواء الكاشفات، والمناطيد المعلقة والخراب والدمار في كل مكان، جرَّب حظه في تجارة جديدة.. تجارة الأسلحة إلى أمريكا اللاتينية وإلى الشرق الأوسط والأدنى والأقصى.. ونجح، وتسلطن كتاجر أسلحة.. انتهت الحرب وقد أصبح ثرياً"(177).

يتزوج من مغنية ملونة تعرف عليها في حانة، لا يدري من أين قذفت بها الحرب، ويجوب معها العالم، ومنها البرازيل التي كان يحلم بزيارتها، وحين يمل يطلقها، وبعد أعوام يحن إلى بلاده. يصل المخا فيجدها مدينة أطلال ولم يعد هنالك أي أثر لتجارة البن فيها، وبعد انتظار لأيام للسيارة الوحيدة التي تنقل أشياء الإمام الذي وصل بها إلى تعز العاصمة الجديدة للإمام، ومنها إلى إب، وحين يصل إلى قريته يسبقه حمار عليه ملابسه وجهاز الراديو وآلة الطرب، يُستقبل ويُحتفى به لأيام.

وجد القرية بذات الكيفية، "الشريعة مازالت كما هي مع غريمهم... المخمِّنون، والكشَّافون، وعساكر الأمير، والعامل، والحاكم تنهال على قريته كما كانت في أيامه.. لا شيء تغير سوى أن قبة الفقيه قد تهدمت، وأن بيت الله الصغير قد كُسرت بعض أخشابه، مما أدى إلى تسرب مياه الأمطار إلى

(177) نفسه، ص263.

داخله"[178]. وحين يعرف الحاكم بالراديو وصندوق الطرب يأمر عساكره بإحضارهما، "سلَّم الصندوق والراديو، ودفع غرامة مالية ورشوة كبيرة للجند حتى لا يأخذوه إلى السجن. وانتهى ما لديه من نقود، وباع ما تبقى لديه من أشياء، حتى ملابسه، لكي يسدد عن أخيه أعباءه التي تراكمت بوصوله"[179].

من جديد لبس المئزر الذي يغطيه من السُرَّة إلى الركبة، وغادر إلى عصب، بذات الكيفية التي هاجر إليها في المرة السابقة شاباً، ومودَّعاً من أخيه الكبير بذات السخرية.

لا أدري لماذا ينتابني شعور أن بذرة هذا النص كانت ستكون رواية لو صبر عليها المؤلف قليلاً. فتقطيع الزمن إلى وحدات سردية تبدأ من لحظة حنينه لموطنه، وتحديداً حين "تلألأت" في جفنيه ومضات النجم اليماني.. فاستذكر تفاصيل خروجه من قريته مهاجراً، ووصوله في أول محطاته إلى مقهى السبيل حيث يتعرف على قريبته المقهوية التي هربت مُنْذُ وقت طويل مع رجل غريب.

ثم نجده في التقسيم الثاني في مدينة "ليفربول"، حيث البرد القارس والانتظار يقتله بسبب تأخر إصلاح السفينة التي يعمل عليها، وكيف قادته قدماه إلى مقهى حيث يتعرف على امرأة شقراء قصيرة ستصير زوجته، وفي التقسيم الثالث سيعود به الكاتب إلى ظهر القارب الصغير "السنبوك" الذي سيقله إلى مدينة عصب، قبل أن يغرق ويكون هو الناجي الوحيد.

في التقسيم الرابع سيكون قد وصل عصب بعد إنقاذه. سيعود بعدها الكاتب في لعبه على الزمن في التقسيم الخامس بعودته إلى ليفربول والزوجة التي تنجب كأرنب، وفتحه لبقالة تعمل بها، ثم سيعيده في السادس إلى عصب، حيث

(178) نفسه، ص 269.
(179) نفسه، ص 269.

التسكع والجوع والتقائه بأحد أصدقاء طفولته. وفي السابع ستكون الحرب في حمى وطيسها، حيث سيبدأ بتجارة الأسلحة بدلاً عن مراهنات الخيول التي كان يربح منها. في التقسيم الثامن سيتعرف بامرأة ملونة وسيتزوجها وسيجوب معها العالم. وفي التاسع سيعود به من جديد إلى عصب، حيث سيقتات من السرقة مع صديق طفولته. وهكذا.

هذا النص الوحيد، في النصوص الأربعة، الذي تعينت فيه أسباب الهجرة في المرتين، الأولى والثانية، والتي تتكثف في رده على صديق طفولته حين يسأله عن أحوال البلاد:

"كما هي.. جوع وفقر.. وعساكر، و"مخمنون"، و"مثمرون"، و"كشافون"، كلهم جباة للإمام.. وموت أحمر، وشرائع ومغارم وفروقات لا أول لها ولا آخر"[180].

(4)

"قصة مهاجر حقيقي"، عنوان النص الرابع من نصوص زيد القصصية التي تُعنى بموضوع الهجرة، وخلاصته أن مهاجراً يعود من مرسيليا عبر أسمرا، وكان كل الذي يشغله كيف يصل بهدية معتبرة لشيخ القرية، بعد تجوال طويل بين المرافئ والموانئ، فلم يجد أفضل من بندقية أبو ناظور، وزجاجة نبيذ فاخر.

وبعد رحلة مضنية يصل إلى قريته ليلاً فوق حمار متهالك، يصل "مرهقاً وكان بحاجة للنوم.. عذرته زوجته قبل والدته إشفاقاً عليه، لكنه رغم ذلك لم ينم.. كانت لاتزال هدايا الشيخ في هاجسه.. ترى كيف سيقابل الشيخ؟ وهل الهدايا لائقة؟

(180) نفسه، ص 263.

البراغيث و"البق" أيقظته قبل أن توقظه زوجته، وانطلق في طريقه الصاعد والهابط بين المدرجات الخضراء، يعبُّ من هوائها النقي كل ما تتسع رئتاه جوار الينابيع والعيون، متأملاً المدرجات الخضراء، والسهول والوديان...

"تمتم في نفسه:

إنها ملك للشيخ.. كلها.. كل هذه القرى.. كل هؤلاء "الرعية" المزارعين، وأنا منهم أُجراء للشيخ، إن لم نكن عبيداً له"[181].

وحين يصل إلى بوابة دار الشيخ المسمى بـ"دار الزهور" وساحته فوجئ بعدم وجود زهور أو أي نباتات خضراء، عكس ما كان يتوقع، فقد وجدها "قطعة جرداء ممتلئة بروث البقر والبغال التي تقطن الدور الأسفل من الدار، وعشرات الخرفان التي يسوقها المزارعون كل يوم، وبعض من الحطب الشوكي اليابس الملقى هنا وهناك"[182].

وحين يصل الديوان يُستقبل بعدم اكتراث من قبل الشيخ وضيوفه، لكنه حين يقدم هديته للشيخ يتغير الوضع، إذ يُجلَس في مكان قريب من الشيخ، ويُعطى من قاته الفاخر، ثم بعد حين سأله عن الرحلة ومشاقها، وكيف وصل إلى البلاد؟

بدأ يقص رحلته مُنْذُ مغادرته لميناء "مرسيليا" في "بلاد الفرنجة".. وكيف تنقل من ميناء إلى آخر، ومن بلدة إلى أخرى، ومن بحر إلى بحر!!

لم يعر ذلك اهتمام الشيخ أو أي من حضوره.. وحين قاطعه الشيخ بالسؤال عن كيفية وصوله من أسمرا؟ أجابه: جواً.. فوق السحاب.. وتارة تحتها.. على الطائرة.. حديد يطير في السماء وعليه مسافرون؟ نعم يا سيدي. وحين اعتقد الشيخ أن المهاجر يسخر منه أمر عساكره بسجنه وتكبيله بالحديد، وحين أغارت طائرات بريطانية في عام تالٍ على القرية تذكر الشيخ المهاجر، فأمر

(181) نفسه، ص 439.
(182) نفسه، ص 440.

معاونه إحضاره من السجن، عله يفصح عن مكنونات ذلك الوحش الحديدي الطائر.. وسرعان ما عاد المعاون ودنا منه وهمس في أذنه:

لقد هاجر من جديد إلى "وراء البحار"، مُنْذُ مدة.. ولم يعد حتى الآن [183].

"ثيمة الهجرة في هذا النص محملة بدلالات مركبة، فهي لم تعد تعني غياب الفرد عن أهله ومجتمعه، باعتبار أن هذا "المهاجر" بطل القصة قد عاد من المهجر، فانتفت- إذن- هذه الصفة عنه، ولكنه نفي ظاهري، إذ يدخل معنى الهجرة في بعد دلالي آخر، ويكتسب البطل صفة "مهاجر" مرة أخرى حتى وهو في وطنه"[184].

(5)

النهايات المقترحة للشخصيات المهاجرة التي عادت في النصوص الأربعة، المتوزعة على خمس مجموعات قصصية، هي ردود أفعال طبيعية لأشخاص لم يعد الإذعان متحكماً بقراراتهم، بعد أن أكسبتهم الهجرة طرائق جديدة في التفكير، أقلها العودة مرة أخرى إلى حيث أتوا، إن لم يتخذوا قراراً أصعب، وهو التخلص من مركز الظلم، كما حصل مع شخصية نص العائد من البحر "علي بن علي" حين يقوم بقتل الشيخ الذي اغتال مشروعه الجديد، في إشارة واضحة إلى حدوث النقلة الجديدة في طبيعة الصراع بين وعي التحول والعوائق الحائلة دونه[185].

(5) مطهر الإرياني.. "البالة" وحنين المهاجر:

لم يكن الشعر الشعبي في اليمن بمعزل عن موضوع الهجرة، بوصفها قضية اجتماعية ألقت بظلالها على مشاعر الشعراء وأفئدتهم، فكتبوا عشرات

(183) نفسه، ص 443.
(184) الشيخ، د. حفيظة صالح. سابق، ص161 .
(185) ينظر د. عبد الحميد الحسامي - كتاب التحول الاجتماعي في اليمن، سابق، ص167.

النصوص فيها، ومنها تلك التي قيلت بلسان المرأة[186]، وفي المقابل ظهرت العديد من ملحونات الغناء الشعبي المعبرة عن حال المرأة واكتوائها بنيران هجرة الأزواج وغيابهم.

ويرد في كتاب عبدالله البردوني "فنون الأدب الشعبي في اليمن" قوله: "الغربة أنتجت أشجى الأغاني الشعبية وأرغدها إبداعاً، باعتبارها من أعظم الأحداث المثيرة للأشجان، فقد تنفست المراتع والحقول بالأشجان الملحنة، وكأن كل مكان ينادي إلى الإياب، كما أن كل مهجر يذكِّر بوجه الوطن"[187].

وتبقى قصيدة "البالة" للشاعر والمؤرخ واللغوي مطهر بن علي الإرياني أحد العناوين الصريحة لهذا النوع من الكتابة الشعرية، وقد حازت على شهرتها الواسعة بواسطة عملية التلحين والغناء التي قام بها الفنان "علي عبدالله السمة".

سُئل مطهر الإرياني في واحد من الحوارات عن حكاية قصيدة "البالة"، فقال: "وأنا طفل صغير كان في قريتنا شخص اسمه أحمد ظافر، وكان كبيراً في السن، ولكن أمه كانت أماً لنا كلنا، وكنا نسميها الجدة قبول بنت العنسي، وفي لحظة متبادلة سألتها أين ظافر؟ فقالت: هَجّ (هاجر ضنكا)، هجَّجُوه القضاة والمشايخ.. فقلت: إلى أين سافر؟ فقالت: إلى الحبشة.. والله يا بني أنه ذهب وما في جيبه إلا قرصين فطير (خبز بلدي)، وليس لديه ما يصرف منه. عندما سمعتها وشاهدتها تبكي وأنا طفل بكيت معها؛ وظلت حكايتها مؤثرة في نفسي إلى أن شفيت غليلي في "البالة"، إلى حد أنه كان من يسمعها في قريتي يقول: مسكين مطهر كم تعب، وكم سافر وهاجر.. وكأنني أنا الذي هاجرت"[188].

---

(186) تبقى قصيدة سلطان الصريمي "مسعود هجر" التي غناها الفنان عبد الباسط عبسي مطلع سبعينيات القرن العشرين أبرز عناوين هذه الحالة.

(187) بن عقيل، بدر جعفر. الهجرة والاغتراب في الشعر اليمني، وزارة المغتربين، 2001، ص 91.

(188) الأغبري، أحمد. أجنحة الكلام وقضاء الأسئلة مقاربات يمنية، مؤسسة أروقة للدراسات، القاهرة، الطبعة الأولى 2021، ص147.

تبدأ القصيدة بلازمة الموال- الذي تفتتح به جلسات السمر في مناطق اليمن الأوسط، بذات طريقة الدان الحضرمي، أو الشبواني اللحجي، و"بنى (مطهر) قصيدته على أساس من فن البالة، (مستنطقاً) صمت المغترب أو تقمصه، وقال عنه هذا التساؤل: ما لنسيم الليلة معبأ بروائح نبت الوطن، من شذى الكاذية"[189]، غلاء ومهابة وحباً، كلما ابتعدنا عنها.

البالة والليلة البال ما للنسمة السارية..

هبَّت من الشرق فيها نفحة الكاذية

فيها شذى البن فيها الهمسة الحانية..

عن ذكريات الصبا في أرضنا الغالية.

الذي أشعل كل هذا الشوق والحنين هو ذكرى ليلة العيد التي داهمته وهو في مهجره القاسي بعيداً عن بلاده- لا أدري لماذا قفزت إلى ذهني أغنية ام كلثوم القديمة "يا ليلة العيد" بنبرة الحزين الذي يتلفعها- جاءت وفؤاده المثخن بأعاصير الحزن لا يستطيع تلقف المزيد منها. لكن القلب الذي تجري به أودية أبين وبَنَا وزبيد (أودية خصبة في جنوب ووسط وغرب اليمن) لم يزل ينبض هياماً بحبه لتلك الأرض، أما الجسم فمعتلٌّ وأسيرٌ للغربة القاسية.

والليلة العيد وأنا من بلادي بعيد..

ما في فؤادي لطوفان الحزن من مزيد

قلبي بوادي بنا وابين ووادي زبيد..

هايم وجسمي أسير الغربة القاسية

شريط التذكر سيبدأ من تاريخ خروجه من اليمن- كثيراً ما كان يؤرخ اليمنيون لحياتهم بأزمنة الكوارث- والذي حدده هنا بزمن الفناء، أو بموسم

(189) البردوني، عبدالله. فنون الأدب الشعبي في اليمن، دار البارودي، بيروت، الطبعة الخامسة، ص 374.

الطاعون الذي حصد مع المجاعات والأوبئة الكثيرة أرواح اليمنيين، بمن فيهم أهله الذين لم يتبقَّ منهم، وبسبب حظ النكد، سواه. عاش يزرع الأرض، لكنه لم يحصد سوى روحه الذاوية.

خرجت أنا من بلادي في زمان الفنا..

أيام ما موسم الطاعون قالوا دنا

وماتوا أهلي ومن حظ النكد عشت انا..

عشت ازرع الأرض واحصد روحي الذاوية.

لم يزل شريط التذكر ينتج صوره المتعاقبة في ليلة المهاجر الحزينة، لتأتي صورة الأخ، حينما كان هناك يزاول مهنة التجارة- مسمى شائع لكل من يقوم بعملية البيع والشراء للبضائع العادية والرخيصة أيضاً- ويُلاحظ هنا أن أخاه التاجر كان يحمل سلعه البسيطة، وكان يقوم بافتراش أي مكان يحل به، ويقوم بعرضها للبيع.. حتى باغته ذات يوم عسكر الإمام (عسكر أحمد يا جناه)، وأخذوا كل النقود "البُقَش" التي كانت معه. وكردة فعل لعملية النهب هذه، انتظر حتى غبش اليوم التالي (الوقت المبكر من النهار)، فغادر إلى أرض جديدة، حينما سئل عنها قال: أرض الحبش. وهو اليوم بتلك الأرض بحالة طيبة. هذا المقطع يشير إلى سبب من الأسباب التي تدفع اليمني إلى الهجرة، والمتمثل في ظلم عسكر الإمام وبطشهم، وبمقابل الوطن الطارد سيستقبله وطن بديل يحفظ له كرامته.

ذكرت أخي كان تاجر أين ما جا فرش..

جَوْا عسكر الجن شَلُّوا ما معه من بُقَش

بكَّر غبش.. أين رايح؟ قال أرض الحبش..

وسار واليوم قالوا حالته ناهية.

صارت هجرة الأخ في المقطع السابق مثلاً يحتذى، وخصوصاً بعد أن حملت الأخبار حالته الطيبة في مُستقره البديل، لهذا اتخذ هو الآخر من أسحار أحد الأيام ميقاتاً لهجرته؛ لأن الظفر بالأرزاق يكون في مفتتح النهارات، حسب الاعتقاد الفلاحي المؤصل في اليمن.

ولكل مسافرٍ زاده في السفر، وزاد صاحبنا كان لقمة (خبز جاف يُحضَّر من أنواع مختلفة من الحبوب، مثل الذرة بأنواعها، أو الدخن والشعير، وغير ذلك)، إلى جانب ريالين حجر (عملة فضية نمساوية اسمها "ماري تريزا"، وهي العملة الرسمية ليمن ما قبل الثورة، وكانت تعرف شعبياً بالريالات الفرنسية)، أما وسيلته في السفر عبر البحر فكانت ساعية (قوارب خشبية عتيقة، وحجمها أكبر من الزوارق وأصغر من السفن)، هذه الساعية كانت تحمل جلود البقر (وهي أحد أهم السلع التي كانت تصدرها اليمن عبر موانئ البحر الأحمر)، وإلى جانب الجلود كانت تحمل أيضاً البن اليمني الخاص بالإمام (الطاغية) وشريكه التاجر المحظوظ.

بكَّرت مثله مهاجر والظفر في البكر..

وكان زادي مع اللقمة ريالين حجر

وابحرت في ساعية تحمل جلود البقر..

والبن للتاجر المحظوظ والطاغية.

بعد الإعلام عن تفاصيل رحلة الهجرة من الميقات والوسيلة والزاد، سينتقل في شريط متسلسل إلى محطة الوصول، وهي ميناء عصب (التي كانت واجهة لمعظم المهاجرين اليمنيين، وتظهر في كثير من النصوص الأدبية المنشغلة بموضوع الهجرة والبحر).

وأول شيء قام به بعد وصوله كان البحث عن عمل في الدكة والميناء، أيضاً في الطرق والمباني، لكنه لم يجد مراده في العمل الذي يناسب إمكاناته كفلاح أمي، وحين أعيته الحيلة واستبدت به البلوى والتعب الطويل شكا حاله لإخوانه من المهاجرين اليمنيين، الذين بدورهم أشاروا عليه بركوب البحر من جديد، وهو ما فعله.

بحثت عن شغل في الدكة وميناء عصب..

وفي الطرق والمباني ما وجدت الطلب

شكيت لإخواني البلوى وطول التعب..

فقالوا البحر.. قلت البحر وا ساعية.

ينتقل بعدها إلى تلخيص حياته في البحر، الذي عاش فيه خمس عشرة سنة، عاملاً في مركب إجريكي (يوناني) يقوده قبطان أعور قوي وحازم (صورة شائعة عن صورة القرصان الشرير). عمله في هذا المركب كان في مرجل الفحم، وبسببه اسودَّ جلده، وصار مثل مدخنة المركب نفسه، وفي هذا المركب طاف عدداً غير محسوب من البلدان في الأراضي البعيدة (قاصية).

وعشت في البحر عامل خمستعشر سنة..

في مركب اجريكي أعور حازق الكبتنة

وسوَّد الفحم جلدي مثلما المدخنة..

وطفت كم يا بَلَوِّد أرضها قاصية.

يعيد تصوير حاله في سنوات البحر القاسية، ويشبِّه نفسه بالطيور المهاجرة، التي تتنقل من مكان لآخر بحثاً عن الدفء والطعام، وفي هذه السنوات أشبع كل رغباته حتى ملَّ من السفر والترحال، وقرر بعدها، ليس العودة إلى بلده التي تتلبَّسه مثل جلده المدبوغ، ولكن إلى "بر الدناكل" أو صحراء الدناكل (تقع

شمال شرق إثيوبيا، وجنوب إريتريا، وشمال غرب جيبوتي. وتقع في مثلث العفر، وهي أقسى منطقة في العالم، وتشتهر بعض منخفضاتها ببراكينها السامة) ليعمل تاجراً متجولاً مثل مركب بلا سارية.

مثل الطيور القواطع طفت كل الجزر..

غويت لي ما غويت لوما كرهت السفر

واخترت (بر الدناكل) متَّجِر بالحُصَر..

من حيّ لا حيّ يا مركب بلا سارية.

فاصل استرجاعي مشبَّع بالحنين لوصف حاله كمهاجر يستبد به الشوق إلى أرضه.. غريبٌ في الشاطئ الغربي (الغريب هنا صفة ألصقها محمد أنعم غالب بالمهاجر المشرد، وهنا يظهر مقدار التأثير الذي أحدثه "أنعم" في لاحقيه من الأدباء، حسب ما ذهب إليه عمر الجاوي في تقديمه لديوان "غريب على الطريق"، ومنهم مطهر الإرياني). هذا الغريب نزل بالشاطئ الغربي (تعيين جغرافي لشواطئ شرق إفريقيا من جهة اليمن، وتصير اليمن شاطئاً شرقياً للمهاجر اليمني في إفريقيا). جسم هذا الغريب حلَّ في الغرب، لكن قلبه دائم الترحال إلى المشرق، ويتمنى لو أن البحر الأحمر بأخدوده الضيق الذي فصل بين قارتين لو يضيق أكثر، أو أن يلحم أخدوده، أو يوصل بين ضفتيه جسور الوصل، ليطفئ الغريب حنينه لأرضه البعيدة.

غريب في الشاطئ الغربي بجسمه نزل..

والروح في الشاطئ الشرقي وقلبه رحل

يا ليت والبحر الاحمر ضاق والا وصل..

جسور تمتد عبر الضفة الثانية.

أكثر مقاطع النص تصويراً لحزن المهاجر الغريب هو ما سيرد تالياً بصوتين، الأول بصوت المهاجر الغريب، فمثله غريب وماله مستقر، ليس عليه من ملامة إن بكى حاله وأبكى الحجر والشجر.. والثاني بصوتٍ يُستدعى بذكاء في بنية النص، لتعزيز خيار الغريب في البكاء وتبريره أيضاً حين يقول: ابكِ لك ابكِ، وصب دمعك مثل المطر، وحتى من دم القلب ابقِ دمعتك جارية. الدمعة الجارية مثل المطر واحدة من لوازم التصوير الفني للبكاء المحزون للفقد والفراق، وتقفز إلى الذهن هنا صورة أم الرهينة في رواية زيد مطيع دماج حين يدندن: "يا رهينة قد امك فاقدة لك دمعها كالمطر".

من كان مثلي غريب الدار ماله مقر..
فما عليه إن بكى وابكى الحجر والشجر
إبكي لك ابكي وصبّ الدمع مثل المطر..
ومن دم القلب خَلِّي دمعتك جارية.

بعد البكاء سيأتي الدور على الغناء الحزين، أو ترديد ذات الأغاني الذابلات التي رددها قبله غريب أنعم، بعد أن مزَّق الشوق روحه في جمر الفراق ولهيبه، غير أن هذه الأغاني هي أغاني الرجوع إلى ديار الهناء، وليست أغاني فراقها؛ لأنها في نهاية المطاف الملاذ الأخير والحضن الدافئ لكل أبنائها.

غنَّيت في غربتي (يا الله لا هنتنا)..
ومزَّق الشوق روحي في لهيب الضنى
راجع أنا يا بلادي يا ديار الهنا..
يا جنَّتي يا ملاذي يا أمي الغالية.

ثانياً: الهجرة في نصوص التطور والتناول:

"قرية البتول".. الهجرة بأسبابها وسماتها أدبياً:

(1)

بعد أربعين عاماً ويزيد، من صدورها الأول والوحيد، تبقى رواية "قرية البتول"[190] لمؤلفها محمد حنيبر[191] أحد المصادر الكلاسيكية المهمة في الرواية اليمنية التي عنيت بموضوع الهجرة، وهي هنا تمثل العينة الواضحة والمتماسكة لطبيعة الهجرة وسماتها الرئيسة التي تقاربها هذه الدراسة.

تبدأ أحداثها من قرية يمنية بائسة ترزح تحت وطأة الفقر والجهل والاستبداد، أعطاها المؤلف اسم "قرية البتول"[192]، والبتول هو الفلاح اليمني الذي يعمل على حرث الأرض بواسطة الثيران، وبعض المواشي القوية كالحمير والجمال، التي يُركَّب على أعناقها محراث خشبي، ينتهي بلسان حديدي قوي لشق الأرض، لجره وسط الحقول. وهو بمثل هذه التسمية يستنبت رمزاً قريباً للمشترك الكلي بين قرى اليمنيين وفلاحيها.

عساكر الإمام "عساكر السخرة" يقتحمون القرية الوادعة في ليلة شتائية بحثاً عن جِمال الفلاحين وحميرهم لأخذها مع أصحابها لأعمال سخرة تنفذها سلطة الإمام في مناطق أخرى خارج القرية. "الحاج حسين" الذي لم يكن قد وصل القرية مع حماره وولده، علم من زوجة الولد التي تلقفتهم في الطريق

---

(190) قرية البتول، رواية يمنية بقلم محمد حنيبر، عالم الكتب، القاهرة 1979.

(191) المعلومات شحيحة جداً عن مؤلف الرواية سوى مولده في السودان أوائل الأربعينيات، التحق بالكلية العسكرية وتخرج ضابطاً شرطوياً، عمل في هيئات التعاون الأهلي في السبعينيات ومحرراً في مجلة الغد. ورواية قرية البتول التي أصدرها في القاهرة عام 1979 هي عمله الوحيد.

(192) يقدر الترميز الذي حمل اسم القرية، لكن جغرافياً تصير هذه القرية بمنطقة رداع، ويشير إليها بجبل "أحرم" الذي يوجد به الجرف الذي خبأ به الحمار، إلى جانب نقيل "سارقه" الذي صعده وهو في طريق هجرته إلى عدن.

بوجود العسكر في منزله بانتظاره هو والحمار، فأخذ الابن الحمار إلى كهف بجبل في القرية، ورجع الأب إلى المنزل وحيداً بدون الحمار والولد، وتحجج للعساكر أن ولده سافر بالحمار بمعية مستأجر إلى يريم، غير أن العسكر لم يصدقوه وأوسعوه ضرباً بوحشية قاسية بعصيهم الغليظة وأعقاب بنادقهم، ولم يتركوه إلا بعد أن صار جثة هامدة، وحينما عاد ولده "صالح" في الصباح الباكر من اليوم التالي، من الجرف الذي اختبأ به مع حماره، تلقفته فاجعة مقتل أبيه المسن، وحينما عاد لأخذ الحمار من الجرف بعد وقت طويل من دفن أبيه وأخذ العزاء فيه، وجد وحوش الجبل قد أكلته.

بقي (صالح) في القرية لأشهر قليلة حتى انتهاء الموسم الزراعي ليستطيع الحصول على حق العائلة، بما فيهم الأب المقتول، من عملهم في حقول الغير، وبعدها قرر الهجرة، تاركاً زوجة شابة حامل، وأماً ثكلى.

غادر إلى مدينة عدن "المهبط الأول لأفواج المهاجرين اليمنيين النازحين من كل أنحاء اليمن"[193]، وبعد وصفه لحالة الاندهاش التي اعترته من مشاهدته للمدينة بزحامها وأضوائها وسحنات الناس فيها، يصل إلى مقهى الحاج مانع في سوق الحراج.

عمل وسكن في تلك "المقهاية"، التي يمتلكها صديق قديم لوالده، وخلال وقت وجيز تعرف على أغلب رواد المقهى والقاطنين حوله. أنجبت له زوجته "بلقيس" ولداً أسموه "حسين"، فبدأ يفكر جدياً في تحسين وضعه المعيشي خارج العمل في المقهى بعد أن صار مسؤولاً عن نفس ثالثة في العائلة، وحين سمع من أحد البحارة الذين يعملون على ظهر إحدى السفن عن الفرص الكثيرة التي يتيحها العمل على السفن في تحسين الدخل، قرر العمل في البحر، غير أنه

(193) حنيبر، محمد. رواية قرية البتول، سابق، ص 33.

خلال عام من تردده على مكاتب الملاحة لم يجد مراده، فقد رفضته كل المكاتب لصغر سنه وبنيته الهزيلة.

وحين يعرف أن أحد سكان الحي الذي يقطنه، واسمه الخواجة قونجي الهندي، يعمل في إحداها موظفاً كبيراً، طلب منه المساعدة في الحصول على عمل في البحر، بعد أن شرح له ظروفه القاسية، وبعد فترة يجد له العمل على ظهر إحدى البواخر الإنجليزية "ساتيراني".

في الباخرة سيتشارك غرفته مع فضل اليافعي، الذي سبقه للعمل على الباخرة، وعانى كثيراً قبل التحاقه بالعمل، وله مع الهجرة قصة دامية هو الآخر، وتتلخص في أن والده كان يمتلك قطعة أرض في بلاد القارة بيافع بالقرب من "وادي رُصد"، وتجاور الأراضي الشاسعة التي يمتلكها سلطان يافع الذي كانت عينه عليها، وكان في كل مرة يتفقد فيها الأرض مع خدمه وعبيده يقول لوالد فضل: "هل تعلم يا مقبل أن أرضك هذه هي أرض أبي وجدي، لهذا فخير لك أن تبيعها لي بثمن وإلا فسآخذها بدون ثمن، فالحق يجب أن يعود إلى أصحابه"[194]، وفي إحدى المرات من زيارته للوادي رأى ابنة مقبل الشابة فأعجبته، وطلب من والدها أن يسمح لها بالالتحاق بحريمه في القصر، ونقل الماء إلى القصر على ظهر الحمار، وبعد شهرين أعفاها السلطان من قدح الماء لتتفرغ للعمل بداخل القصر، وكان لا يسمح لها بالعودة إلى المنزل، وحين عادت بعد ذلك كانت حزينة ومتعبة، لتكتشف والدتها أنها حامل من السلطان الذي قام باغتصابها. لم تتمالك الأم نفسها وذهبت إلى السلطان تطلب منه المساعدة، فيقوم السلطان بطردها واتهام البنت بالزنا، ويطلب من عساكره إحضار الأب وأودعه السجن، وطلب إقامة الحد على البنت. تهرب

(194) نفسه، ص 81.

فاطمة من القرية إلى قرية مجاورة وترمي نفسها في البئر، أما الأب فيموت كمداً في سجن القصر، واستولى السلطان على الأرض. تبيع الأم المنزل وبقية الممتلكات عدا الحمار وتغادر مع ابنها ذي السادسة عشرة إلى منطقة "الطفة" في لواء البيضاء في بلاد الإمام، حيث يعمل الابن فلاحاً في ممتلكات أحد وجهاء المنطقة، وتبقى الأم حبيسة أحزانها وبكائها في الكوخ حتى تفقد بصرها وتموت، فيغادر ابنها فضل إلى عدن، ويصف مغادرته إلى عدن بقوله: "لم تمض عشرة أيام على وفاة أمي حتى كنت أقطع عقبة ثرة متجهاً إلى عدن، التي دخلتها كالعصفور الضال، وبعد معاناة قاسية عملت خادماً في منزل تاجر يهودي.. وبعدها عملت مساعداً لسائق سيارة نقل بضائع من الميناء إلى المدينة والعكس، ومن خلال ترددي على الميناء، علمت في أحد الأيام أن إحدى البواخر الراسية فيه تطلب أربعة عمال للعمل فيها.. حالفني الحظ فوقع الاختيار عليَّ أنا والثلاثة الصوماليين الذين يعملون معنا اليوم"[195].

بعد عام واحد صار صالح يتقن اللغة الإنجليزية كتابةً ونطقاً، بعد أن تعلمها من أحد البحارة الصوماليين، ويصير أحد تجار الشنطة البارعين بين الموانئ يكسب منها الكثير من الأموال.

سنوات يقضيها الشابان على ظهر الباخرة "ساتيراني" يجوبان البلدان والمدن والموانئ، والتي ابتدأت بمومبي وانتهت بميناء بورتسودان، حيث غادرها صالح لزيارة ابن عمه "شقيق زوجته" في مدينة عطبرة لإقناعه بالعودة إلى قرية البتول للاعتناء بزوجته وولده بعد وفاة والدته، على أمل أن يلتحق بالباخرة في حوض السفن الذي توقفت به لإصلاح عطب فيها، أو يلتقي بالباخرة في جدة وهي في طريق عودتها من السويس، غير أن الباخرة انفجرت

(195) نفسه، ص 115 وما بعدها.

في البحر ليموت كل بحارتها وركابها بمن فيهم فضل اليافعي، ويبقى صالح في بورتسودان مشرداً محطماً لفقده أعز أصدقائه وكل مدخراته، قبل أن يعمل كاتباً في أحد محلات التجار الحضارم المعروفين في المدينة التي يكثر بها العمال اليمنيون، الذين يعملون حمَّالين على عربات كارو، وصبيان دكاكين، ويقيمون في محل يدعى "ديم العربجية"، وهناك أقام مع اثنين من المهاجرين البائسين، عبدربه الماوري وناصر الهيثمي، لهما مع الهجرة إلى السودان قصص تدمي هي الأخرى. فالأول بعد أن يموت والده، بسبب قهر القضاء الذي حكم لغرمائه في قطعة أرض يملكها، يهاجر إلى السودان، ويظل ينفق كل ما يدَّخره من أجل استعادتها بواسطة وكيل شريعة، كان قبل ذلك وكيلاً لخصوم أبيه وغرمائه (مساحتها عشرون حبلاً.. نحن لو رصفنا على سطحها الريالات الحجر التي خسرناها في الشريعة لغطته تماماً، كما أنَّ لدينا أحكاماً وأوراقاً تتعلق بهذا النزاع، لو فرشناها على سطحها لغطته أيضاً. إن في حوزتنا بعض أحكام يصل طول الواحد منها إلى عدة أمتار.. فهل بعد كل هذه الخسارة والتعب أتركها لخصمي؟ ماذا سيقول عني الناس.. أني عجزت عن مشارعة علي صلاح؟ أبداً لن أتركه، خاصة بعد ما حدث لوالدي بسبب تلك الأرض) [196]. هكذا لخص حكايته وهو يرويها لصالح.

والثاني، يهاجر مرتين: الأولى حين يترك قريته، مع والديه، إلى قرية أخرى وهو في عمر الثامنة هرباً من الموت، والثانية هجرته إلى السودان وهو في العشرين هرباً من الفقر والجوع.

عن هجرته الأولى يرد على لسانه: "قريتي! لقد غادرتها وعمري ثمان سنوات، ولم أعد أعرف فيها أحداً.. كان لنا فيها منزل صغير من الطين، يقال

(196) نفسه ص177.

إنه تحوَّل إلى أطلال مُنْذُ زمن طويل.. غادرتها هرباً من الموت"[197]، بعد أن اختطف الموت عشرات الأطفال بسبب مرض لا يُعرف سببه، وأسماه أهل القرية "ثعلب الأطفال".

وبعد مقتل والده في حرب قبلية لا ناقة له فيها ولا جمل، بدأ رحلة صراع مع الحياة يقول عنها: "لم تبخل علينا فيها بأي نوع من أنواع قسوتها. كنا نشقى، ونهان، ونجوع ونمرض، وكانت لا تعطينا إلاّ المزيد"[198]، لهذا وافق على أول عرض قدمه أحد مهاجري قريته للذهاب معه إلى السودان، وفي الخرطوم يعمل في محل ليمني، لكنه بعد علمه بوفاة والدته يترك الخرطوم إلى بورتسودان ليعمل عربجياً، وينفق دخله على ملذاته، بعد أن أظلمت الحياة بوجهه.

ولأنه شخصية إيجابية يستطيع صالح تغيير مجرى حياتهما تماماً، بإقناع الأول بترك الشريعة وتوفير دخله لشراء أرض أكبر وأهم من تلك التي يشارع عليها، وإقناع الآخر أن حياة الهروب التي يعيشها ليست هي الحل، فيقنعه بالزواج والاستقرار في السودان:

"بارك الله فيك يا صالح.. أقنعتني بالأمس بترك الشريعة فأزحت عن كاهلي كابوساً رهيباً، ظل يقاتلني في منامي وصحوي أربع سنوات، وها أنت اليوم قد أقنعت ناصر بأن يترك طريق الضياع، ويسير في طريق الأمل. فجزاك الله عنا خيراً"[199].

بعد أربعة أعوام من بقائه في بورتسودان كاتباً في محل باعبود الحضرمي، يعود للعمل هذه المرة على باخرة فرنسية تدعى "شانتليه"، مودَّعاً من جميع

(197) نفسه ص193.
(198) نفسه ص215.
(199) نفسه ص 235.

أصدقائه اليمنيين، ومعهم العبد مبروك، بعد أربعة عشر عاماً من صعوده الأول على ظهر الباخرة الإنجليزية "ساتيراني" في ميناء عدن، وكان في وداعه آنذاك شخص واحد هو الحاج مانع، الذي يتذكره في صعوده الجديد وهو يلوح بيديه مودعاً وداعياً الله له: يفتح عليك يا صالح.

عاد إلى البحر من جديد لأنه كان يحن إليه "كما يحن الإنسان إلى وطنه"[200].

(2)

في رواية "قرية البتول" تبرز بجلاء شخصية العبد "مبارك" الذي يمتلكه التاجر الحضرمي محمد باعبود في بورتسودان، "رجل ناهز منتصف العقد الخامس من العمر، متوسط الطول والبدانة، يغلب على شكله الملامح الزنجية، وكان يرتدي جلباباً أبيض، وعلى رأسه طاقية مكاوية ذات لون سَمْنِي، ومطرزة من أسفلها بالحرير الأبيض.. ورغم ذلك العمر الذي قطعه، فقد كان قوي البنية كما لو كان لا يزال في نهاية العقد الثالث من عمره"[201]. يقول عن نفسه: "أنا مجرد عبد، اشتراني سيدي محمد باعبود من السعودية لأكون في خدمته هو وأفراد أسرته.. وطالما أن هذا وضعي فماذا سأطمع في الحياة غير الصحة؟"[202].

هذه الشخصية المختلفة، وإن بدأ استنباتها في آخر فصول الرواية عرضاً، لكنها تؤدي وظيفة قيمية مهمة، وتشير إلى ظاهرة اجتماعية في فترة زمنية من تاريخ اليمن والمنطقة. التاجر حضرمي يزاول تجارته في السودان، وله عبد اشتراه من السعودية، هذا العبد يعي كينونته بقدرٍ عالٍ من الثقافة، وله تفسيره

(200) نفسه ص 174.
(201) نفسه ص 258.
(202) نفسه ص 259.

لظاهرة الاسترقاق، وله أيضاً تحفظه على النص الديني، وإن جاء من باب التمني باستنزال نص يجرّم ظاهرة الرق.

"أصحاب الكلمة الماضية في هذه الحياة هم أصحاب المال أمثال سيدي، أما أمثالك من الناس البسطاء فأوضاعكم لا تختلف عنا كثيراً، فجميعنا مسخرون لأصحاب الكلمة الماضية.. والفرق بيننا وبينكم أننا كعبيد نباع ونشترى بصورة مباشرة، أما أنتم فتبتاعون وتشترون بصورة غير مباشرة تحت وطأة الحاجة.. كنت أتمنى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو أنه طلب من ربه آية قاطعة تحرِّم الرِّق، كتلك الآية القاطعة التي نزلت في تحريم الخمر؛ لأن استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان أشد بلاء في نظري من شرب الخمر، ولكن الدين للأسف ترك الخيار لأصحاب الكلمة الماضية بين أن يحتفظوا بعبيدهم أو يحرروهم مقابل ذلك من حسنات في الآخرة. ولذلك نجد معظمهم فضَّل الاحتفاظ بعبيده وجواريه على حسنات الآخرة؛ لأنهم كأغنياء يستطيعون أن يكسبوا حسنات من مصادر أخرى تغنيهم عن حسنات هذا المصدر"[203].

لا يعرف القراءة والكتابة، لكن خبرته في الحياة جعلته قادراً على تمييز الأشياء بقدر عالٍ من الذكاء والنباهة والرصانة.

"لا أعرف القراءة والكتابة، ولكن كثرة اختلاطي بكبار القوم وصغارهم، جعلني أعرف الكثير عن أمور الحياة، خاصة أن الأسياد ـ رجالاً كانوا أو نساءً- لا يتحرجون من الحديث في شتى المواضيع أمام عبيدهم.. إن أمثالي من العبيد يستطيعون أن يدخلوا إلى أماكن في خدور النساء يُحرم على غيرهم

(203) نفسه ص 259 – 260.

دخولها، وهم لذلك يعرفون أدق أسرار أسيادهم.. بل إن بعض الأسياد يشركون عبيدهم في المشورة في أمرٍ ما، أو في حبك الحيل والدسائس لأمر آخر"[204].

(3)

قلت في بداية الحديث إن "رواية قرية" البتول تمثل العينة الواضحة والمتماسكة لطبيعة الهجرة وسماتها الرئيسة التي تقاربها هذه الدراسة.

فهي تطرق الأسباب التي قادت شخصياتها الرئيسة والثانوية للهجرة، ليغدو المهجر خلاصاً لعذابات شخوصه، الذين يهربون من الفقر والجوع، ومن ظلم عسكر السخرة، وظلم السلاطين، وفساد القضاء الذي لا ينصف الضحايا. "كان حديثهم آلاماً وأحزاناً لما يجري في بلادهم.. شريعة لدى الحكام، منازعات يذكيها المشايخ بين المواطنين، تعسف من قبل المثمرين وجباة الزكاة، السخرة، تنافيذ العساكر وخططهم"[205].

يحضر البحر في رواية قرية البتول ليس فقط كملاذ للهروب من ظلم اليابسة، بل بوصفه وطناً عند صالح، وعند فضل، وعند علي مانع الذي ترك والده في مقهاه وركب البحر ولم يعد. "أملي أن أرى ولدي قبل أن أموت.. إلا أنه يتملكني إحساس بأني سأموت قبل أن أراه.. فقد ماتت والدته وهي تتمنى ذلك ولم يتحقق لها فكيف سيتحقق لي"[206].

تحضر مدينة عدن بوصفها المهبط الأول لأفواج المهاجرين اليمنيين النازحين من كل أنحاء اليمن، وهناك سيعمل صالح في مقهى، وبها سيكتسب معارفه الأولى بواسطة القراءة، وفضل سيعمل في منزل تاجر يهودي، ثم على

(204) نفسه ص 260-261 .
(205) نفسه ص 250.
(206) نفسه ص65.

شاحنة نقل للبضائع قبل أن يصعد على ظهر الباخرة ساتيراني ليموت معها بُعيد انفجارها في البحر.

تتحدث عن أحلام المهاجرين، وتعمل على صناعة البطل الإيجابي الذي يبدأ بتغيير نفسه نحو الأفضل، ثم بتغيير محيطه من البشر، ويحلم بتغيير وطنه من النقطة التي يعي بها مشكلته الحقيقية، وهي الشقاء الذي تسبب به حكم الإمامة "الذي تتجلى أبشع صور ظلمه في تشريد مئات الألوف من أبناء شعبنا في كل أرجاء الأرض، هرباً من ظلمه وطغيانه. ولا شك أنه سيأتي اليوم الذي يطاح فيه بنظام ذلك الحكم، ويخلفه نظام جديد يقضي على كل مخلفاته"[207].

الشخصيات لها ماضيها المثقل بالجراح، الذي يتحول إلى حكايات تصنع من أصحابها كائنات تبشيرية محكومة بالأمل. "شخصيات عديدة، ولكنها جميعاً قريبة من بعضها، بحيث ينتفي الصراع وتنتفي فكرته، فما وقع من أحداث لعائلة "فضل" في الجنوب هي بشكل ما قريبة من الأحداث التي وقعت لعائلة "صالح" في الشمال، كما أن الشخصيات متماثلة في وضعها، فجميعها لا تقرأ ولا تكتب، كما أنها تنتمي إلى الريف، ولأنهم فلاحون أو عمال زراعة يعملون في المواسم فإنهم جميعاً من الفقراء، وهذا يعني أننا نصطدم في الرواية بمستوى واحد من اللغة"[208].

(207) نفسه ص234.
(208) خصباك، عائد - خصوصية الموضوع في الرواية اليمنية، مركز عبادي للدراسات، الطبعة الأولى 1999، ص56.

عبدالكريم السوسوة.. ومسرحية "المغترب التائه":

(1)

قيمة النص المسرحي الذي يحمل "المغترب التائه"[209]، لعبدالكريم السوسوة[210] تكمن في ندرة موضوعه، فلم أجد في مرحلة إعداد وكتابة الدراسة نصاً مسرحياً يُعنى بموضوع الهجرة اليمنية المعاصرة. لهذا غدا النص عينة تمثيلية تستوجب مقاربتها في دراستنا هذه التي تعنى بالهجرة والمهاجرين في أدب اليمن المعاصر. والحديث عن هذا النص لن يكون إلا في حدود اقترابه التوثيقي من الموضوع الذي ندرسه، ولن تركِّز القراءة على جوانبه الفنية والجمالية إلا بما تمليه ضرورة المقاربات النصية.

(2)

فكرة النص المسرحي "المغترب التائه" تقوم على معاينة ورطة أحد المهاجرين اليمنيين العائدين من الحبشة، الذي يقرر العودة إلى أرض الوطن في العام 1985م[211]، بعد أن ملَّ وكَره الغربة. هبوط الطائرة في مطار عدن "ترانزيت" شجعه على الدخول إلى المدينة للتعرف على معالمها باعتبارها

(209) السوسوة، عبد الكريم، راكب الموجة - المغترب التائه "مسرحيتان" - مركز عبادي - صنعاء 2001.

(210) عبد الكريم عبدالله السوسوة – ذمار (1950- 2002)، والده هو مفتي ذمار آنذاك عبدالله بن محمد السوسوة، درس المراحل الأولى في محافظة ذمار ثم انتقل الى صنعاء وأكمل دراسته الإعدادية والثانوية هناك، وحصل على منحة دراسية إلى الجزائر فدرس الحقوق في جامعة الجزائر وتخرج عام 1978م، له عدة مؤلفات أدبية أبرزها (عمرك ما ضحكت) مقالات ساخرة، وكذلك له مسرحيتان "راكب الموجة - المغترب التائه"، وقد حازت مسرحية "راكب الموجة" على جائزة رئيس الجمهورية في مهرجان باكثير للمسرح عام 1995م، وله كتاب ثالث تحت عنوان "حوارات فلسفية وأدبية".

(211) ليس هناك تاريخ محدد لعودة المغترب مثنى إلى أرض الوطن أيام التشطير، لكن باستطاعة المتلقي أن يحدد سنة العودة بالعام 1985م، استناداً إلى بعض الإشارات في النص، كون عودته إلى صنعاء في مايو 1990، بعد أن قضى خمسة أعوام في سجن الأجهزة الأمنية في عدن بعد اتهامه بأنه برجوازي أُرسل للتجسس على الدولة الاشتراكية، فيرد في الصفحة "73 " من الكتاب ما يلي من حوار بينه وبين ابن عمه في صنعاء: "قلي أيش غيَّر صورتك هكذا اللي يشوفك يعتقد أنك في مائة سنة رغم أنك من مواليد 1948، واحنا الآن في مايو 1990 يعني عمرك 42 سنة أو أقل، أيش حصل، والمفروض ترتاح، الوحدة على الأبواب".

جزءاً من وطنه، ومن هنا تبدأ متاعبه الحقيقية مع الأجهزة الأمنية الشطرية في عدن وصنعاء.

في ردوده على ضابط التحقيق في جهاز أمن الدولة في عدن الذي سأله عن اسمه وعمره وعنوانه، وعن سبب مجيئه إلى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية يقول:

"اسمي مثنى مسعد، من قرية المسقاة- ماناش عارف ناحية السدة أم النادرة[212]، وتركت البلاد وعمري 12 سنة.. أنا جيت من الحبشة لأني كرهت الغربة وبعت دكاني في الحبشة، وقلت أسافر بلدي أعمل لي دكان صغير وأتزوج وأستقر في بلدي، وبعدين وقفت الطائرة في مطار عدن ترانزيت، قلت في نفسي يا مثنى هذه عدن وهي بلادك، وهي جزء من اليمن ليش ما تزورها؟ نزلت من الطائرة ودخلت عدن عادي محد كلمني، وبعد ما جلست في عدن أسبوع رحت لا مكتب الطيران من أجل أواصل الرحلة إلى صنعاء قالوا ما يسمحوا لي بالسفر إلا إذا جبت موافقة من أمن الدولة، سألت أين أمن الدولة؟ دلوني عليكم"[213].

سيكون لدى الضابط معلومات عن قيام مثنى، وقت كان بأديس أبابا، بزيارة سفارة الشمال "الجمهورية العربية اليمنية" هناك، ويريد مبرراً لذلك، لكنه لا يقتنع بإجابة مثنى له أنه ذهب لتجديد جوازه المنتهي، ويريده أن يعترف أن حكومة الشمال هي من أرسلته للتجسس على الدولة الاشتراكية.

(212) مديرية السدة إحدى مديريات محافظة إب في وسط اليمن، تحيط بها من الشمال مديرية يريم ومن الشرق مديرية الرضمة ومن الجنوب مديرية النادرة ومن الغرب مديريات الشِعِر وبعدان والمخادر، ومن أهم مدنها مدينة ظفار ويريم التاريخية (ويكيبيديا wiki › ar.wikipedia.org).

(213) السوسوة، عبدالكريم. راكب الموجة، سابق، ص 60-61.

"يا فندم، أنا كرهت الغربة، ولهذا تركت الحبشة لأني حنيت لبلادي وعدن بلادي.. أيش فيها لو زرتها"[214]، لكن الضابط لا يقتنع ويبقى مصراً على معرفة الهدف الخفي من مجيء مثنى إلى عدن، ومتيقناً أن جهة ما أرسلته للتجسس على الدولة الاشتراكية:

"يا مثنى أنت عارف أن جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية هي الدولة الاشتراكية الوحيدة في المنطقة، وهذا يثير غضب أصحاب رؤوس الأموال أينما كانوا، لهذا فدولتنا مستهدفة، قل لنا ماهي الدولة التي أرسلتك للتجسس"[215].

ويستمر التحقيق على هذا المنوال، ضابط التحقيق يريد معرفة الدولة أو الجهة التي أرسلته للتجسس، ومثنى ثابت على موقفه: "يا فندم أنا تعذبت كثيراً في بلاد الغربة.. ما جمَّعت لي قرشين إلا بعد طلوع الروح، وبعدين تركت الحبشة، أشتي أعيش في بلادي معزّز مكرّم، حتى لو أكلت عصيد، لا لي دخل بجاسوسية ولا هم يحزنون"[216].

وحين يتملك اليأس الضابط من تركيب تهمة الجاسوسية يوجه تهمة جديدة لمثنى وهي أنه تاجر برجوازي، فيظن مثنى أن كلمة برجوازي تطلق على نوعٍ محددٍ أو صنف من صنوف الاتجار والتجارة، فقال أنا كنت تاجر ملابس وليس تاجراً برجوازياً، فأوضح له أن البرجوازي هو كائن يكره ماركس ولا علاقة له بصنف محدد من البضائع!

وبعد جلسة تحقيق طويلة تتجلى فيها بساطة وعي مثنى بجملة المصطلحات التي يسوقها الضابط، يخبره الضابط أن المحكمة قد حكمت عليه بالسجن خمس

(214) نفسه ص 61.
(215) نفسه ص 62.
(216) نفسه ص 63.

سنوات مع الأشغال الشاقة؛ لأنه جاسوس وبرجوازي. وفي السجن سيلتقي بسجين من يافع اسمه قاسم، خريج اقتصاد من بولندا، يقول عن سبب سجنه: "طالبت بضرورة وحدة الشمال مع الجنوب، وخلق اقتصاد يعتمد على السوق حتى تتكون طبقة رأسمالية وطبقة عمالية، وبعدين نفكر في إقامة الاشتراكية، فاتهموني أن أفكاري برجوازية وحبسوني"[217]، فيرد عليه مثنى: "رغم أني مش عارف أيش معنى كلامك لكن أنا مثلك قالوا إني برجوازي ومش عارف معنى البرجوازي أصلاً! لكن الظاهر أن البرجوازية "ودافة" في هذا البلد"[218].

وبذات طريقة ضابط التحقيق الذي أمطر مثنى بجملة مصطلحات لتبرير اعتقاله، يستخدم المسجون قاسم بعض المصطلحات التي هي فوق مدركات مثنى مثل "بنية" التي يظنها مثنى "امرأة".

وعلى ذلك سيلخِّص حالته بقوله: "ما هو باين أنه وعد دبور من يوم خلقت في هذه البلاد. أولاً إمام حرمني من الدراسة، والحزب الاشتراكي حبسني على البرجوازية، وذلحين قلت لي إن الشمال فيه رشوة"[219].

في المشهد الثالث من المسرحية سيكون مثنى قد وصل مطار صنعاء، بعد خمس سنوات قضاها مسجوناً في عدن. يأخذون جوازه في المطار ويقولون إنهم سيستدعونه للتحقيق في ما بعد؛ لأنه ربما يكشف عن شخصية جبهوية غير معروفة للأجهزة مادام أنه قادم من عدن، وحتى يخرج من هذا الإشكال يُطلب منه دفع حق بن هادي "رشوة للضابط" وحددوها بمبلغ خمسة آلاف دولار.

(217) نفسه ص 68.
(218) نفسه ص 68.
(219) نفسه ص 69.

"اللي معي في البنك هي خمسة ألف دولار.. يعني أديها لكم ويروح شقا عمري بلاش".

بعد هذا المشهد يتشتت النص باستنبات شخصيات عارضة، مثل "أحمد" ابن عم مثنى، الذي يصل إلى مسكنه، ويظهر في النص بوصفه مناضلاً سياسياً، ويقول عن نفسه بعد معرفته لقصة مثنى في عدن ومطار صنعاء: "أنا نفسي متهم بالعمالة لدول أجنبية، وتهمتي أني ضد سلبيات الوضع في الشمال والتطرف في الجنوب".

وبعد وصوله بقليل تداهم المسكن قوة أمنية مكونة من ضابط وجنديين، يحتل حوارهم الكاريكاتوري والتهكمي مع أحمد بقية فضاء النص، دون ذكر للتائه مثنى الذي نهض النص في الأصل كفكرة على معاناته مع العودة إلى أرض الديار[220].

(3)

فكرة النص وصلت هنا بأكثر من رسالة، منها إدانة أجهزة الأمن باستبدادها جنوباً وفسادها شمالاً، وضحيتها هنا مهاجر تائه في وطنه.

مستويا اللغة في النص يعكسان التكوين المعرفي للمهاجر الأمي الذي يحتكم للغته الشعبية، ويؤول بها الأشياء بدون تصنع، واللغة التي يستخدمها الضابط والمعتقل قاسم، وهي لغة نخبوية تُفرض عليهما فرضاً:

"أنا آسف يا مثنى، فعلاً أنا كلمتك بمصطلحات نخبوية، لكن هم علمونا هذا الكلام اللي مش وقته.. كلام غير مفهوم، ما يفهموه إلا الناس اللي درسوا، وأنت مسكين حرمتك الظروف من الدراسة"[221].

(220) نفسه ص71.
(221) نفسه ص 68 و69.

الانتهاكات التي يتعرض لها المهاجرون العائدون واحدة من مشكلات الهجرة التي قاربها كتاب وباحثون يمنيون معاصرون عديدون[222].

"سالمين".. الهجرة فراراً من العبودية:

(1)

بعد قرابة قرن إلا عقدٍ من الزمن من صدور رواية "فتاة قاروت" في جاوة عام 1927م، ستظهر بواسطة أديب حضرمي رواية شابة عام 2015م، تتخذ من موضوع الهجرة الجديدة إلى دول الجوار موضوعاً لها. وإذا كان أحمد عبد الله السقاف قد أعاد تمثيل جزء من سيرته في تكوين الشخصية الرئيسة[223]، وتتبع بواسطتها ملمحاً مهماً من ملامح الهجرة المتصلة بقضية الاندماج الثقافي والنفسي للمهاجر، يعيد عمار باطويل[224] في عمله هذا تفحص أثر الاندماج ومشكلاته في مجتمع مدينة جدة في الحجاز، من خلال شخصيات أعاد التقاطها بذكاء من الثيمة الاجتماعية لوادي حضرموت في أربعينيات[225] القرن

(222) ينظر الدكتور حمود العودي "واقع المهاجرين اليمنيين في الداخل بين إيجابية الدور التنموي وسلبية المعاملة السياسية والاقتصادية"، الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية، مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية، 2021م، الذي يقارب فيها المشكلة من زوايا متعددة.

(223) باقيس. سابق، ص 29

(224) ولد في فبراير 1981 ونشأ في وادي دوعن في محافظة حضرموت، انتقل إلى مكة المكرمة ومن ثم إلى مدينة جدة مع أسرته، وهاجر بعدها إلى ولاية مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية لدراسة العلوم السياسية، ولكن استهواه الأدب بشكل كبير. بعد أن عاد من الولايات المتحدة الأمريكية بدأ عام 2010 بنشر مقالاته الثقافية والأدبية في ملحق الأربعاء الثقافي لجريدة المدينة السعودية لأربع سنوات متتالية، ومن ثم كتب في ملحق الجزيرة الثقافي لجريدة الجزيرة السعودية وأيضاً كتب في جريدة الحياة، وبعض الصحف اليمنية الورقية والإلكترونية، كما تناقلت الصحافة العربية مقالاته وإصداراته الأدبية. ورواية (سالمين) هي أول إصداراته.

(225) ليس هناك تواريخ محددة يقدمها النص الروائي، غير الإشارات المتعددة للزمن المقرون بالأحداث والتي تجعل المتلقي وقارئ النص في تحديدها بمنتصف الأربعينيات وما بعدها بقليل على أكثر تقدير، استناداً إلى قول السارد الأول حمد: "جاوة لم تعد حلم الحضارم بعد الحرب العالمية الثانية، بل أصبحت السعودية الحلم الجديد الذي بدأ الكثير يرنو إليه"، الرواية - ص52

الماضي، حيث كانت لاتزال "راسخة التركيبة الاجتماعية التقليدية التي تقسم الحضارمة إلى قبائل، ومشايخ، وقروان، ومساكين، وعبيد"[226]، ومنهم البدوي الجمَّال حمد بن صالح "الذي صُدم كثيراً بما يعتمل في مجتمع ميناء جدة من تمازج وتزاوج بين السكان المسلمين من مختلف الأقطار والأجناس والفئات الاجتماعية مُنْذُ مئات السنين"[227].

في "فتاة قاروت" لا يعتني المؤلف بالخلفية التاريخية للشخصيات، أو بمعنى أدق في السيرة المكانية لمرحلة ما قبل الهجرة، وهو أمر اختلف كثيراً في رواية "سالمين"، حينما عمل الكاتب على تتبع حياتها، بسياقات سردية مكثفة تعمل على تسميك البناء الروائي، وردم الفجوات الزمنية فيه بكثير من النباهة، التي شكلت مبررات الهجرة ذاتها.

المشترك الخيطي الرفيع بين شخصيتي "عبدالله" في" فتاة قاروت"، وشخصية "حمد" في "سالمين"، أن كليهما وارثٌ لمهاجر حضرمي في دول شرق آسيا، قضيا في بلاد المهجر بظرفين مؤلمين، الأول غرقاً في بحر الهند، والثاني مقتولاً في سنغافورة على أيدي القوات اليابانية في ذروة الحرب العالمية الثانية، فيضطر الأول "عبدالله" للذهاب إلى جاوة للوقوف على ثروة وممتلكات والده هناك قبل أن يغرق في المجتمع الجاوي "الملاوي" من خلال انجرافه العاطفي في حب فتاة في المجتمع المحلي، مثلما تعرضه الرواية. والثاني "حمد بن صالح" ينتظر حتى تصله أموال والده المقتول ويقرر السفر إلى مدينة جدة؛ لأن "التجارة بقرب مكة خير من التجارة في مناطق بعيدة، وباستطاعتي تكوين حياتي من المال الذي ورثته من أملاك أبي في جاوة"[228].

(226) عمشوش، د. مسعود. الرواية في حضرموت في تسعين عاماً، سابق، ص64.
(227) نفسه، ص 64.
(228) باطويل، عمار. رواية سالمين، دار فضاءات، عمَّان، الطبعة الأولى، ص 52.

في هجرة حمد إلى جدة يأخذ معه المُستَرَقّ سالمين، "وهناك نال حريته، واغتنى وصار يملك الملايين بعد أن مارس التجارة، وأتاحت له الحرية التي وجدها في المملكة العربية السعودية أن تنطلق مواهبه الكامنة بداخله، وأن يحقق ذاته بأن يتفوق على الآخرين"[229].

ومن هذه المواهب موهبة الانتقام من ماضيه العبودي، "فقد تحول إلى إنسان باحث عن المال في جدة بعد سنوات العبودية في حضرموت، وأصبح يحقق رغباته الجنسية بعدما كان محروماً من الحرية، تحول إلى تاجر يملك ملايين، وبدلاً من أن يفعل الخير وبناء السدود أو بناء المساجد، كما هي عادة البعض من أهل حضرموت، إلا أن سالمين أراد أن يسوق النساء أمامه كلما سنحت له الفرصة، وأصبح سالمين الحضرمي معروفاً في حياة النساء بحبه لهن وإعطائهن الأموال والهدايا، وخاصة من الجنس المعاكس للونه الذي يتفاخر باصطيادهن بسهولة، كان يستمتع بهذا {التنوع} الجنسي عندما يخلط الأسود بالأبيض"[230].

ومن صور الانتقام التي أجادها سالمين هو جعل الآخرين ينادونه بالشيخ بدلاً عن العبد، أو اسمه جافاً دون إلحاقه بلقب تشريفي، وله في ذلك فلسفة في توصيف النفوس: "البعض من الحضارمة وخاصة ممن ينادونني بالعبد جعلتهم ينادونني بالشيخ سالمين بدلاً من العبد، فكلمة العبد أرهقت أذني خلال سنوات طويلة. أصررت عليهم ينادونني بالشيخ سالمين، هكذا تحولوا وانقلبوا عندما تحوَّل وضعي، وأيقنت أن "الفلوس" تحوّل فقط النفوس الضعيفة وغير الواثقة

(229)ميرغني، عز الدين. الجريدة السودانية، وموقع الرواية، 21 ديسمبر 2019
(230) باطويل، عمار. رواية سالمين، سابق، ص 68

من نفسها، أما النفوس العظيمة تظل كما هي لا تتغير ولا تستحقر الآخرين بسبب لون بشرته أو قلة ماله"[231].

في مقاربة نفسية لـ"سالمين" يرى عزالدين ميرغني وجود "نماذج لها في الكثير من البلدان والمجتمعات العربية، فتلك من الشخصيات المسكوت عنها وخاصة في الكتابة الروائية العربية، ويمكن أن تدخل هذه الرواية في مدرسة الواقع الاجتماعي العربي التاريخي. ورغم تاريخيته، فما زال هنالك من يعيش مرارته ويكتوي بناره وهو ضحية لواقع تاريخي لم يختره ولم يشارك في صنعه. لم تخلُ فترة الاسترقاق التي عاش فيها (سالمين) من خدوش نفسية وعقد مستحكمة في داخله، وقد أفلح الروائي (عمار باطويل) في تجسيدها برمزية عالية"[232].

في واحد من تحليلات شخصية سالمين يرى أنه "لم يتذوق بحق التناغم والتصالح مع هويته، فهو محسوب على الحضارمة، لكنه يبدو في حقيقة الأمر ليس منهم؛ لأن هذا الانتماء العرقي لم يرفع من داخله الإحساس بالعبودية. إن الثراء الفاحش الذي حققه، ونيله حريته في جدة لم ينقله إلى عالم التحرر من العبودية إطلاقاً، والحضارمة ظلوا ينالون منه ويتفوهون بعبوديته، وعمقوا جرح الإحساس بها. إن هوية سالمين هوية مضطربة وممزقة، فهو لم يتذوق طعم الانتماء للأسرة، ولا طعم الانتماء للمكان الذي استقر فيه، ففي دوعن كان عبداً، وفي جدة أصبح حراً، ولكن البشر لم يقروا له بالحرية بسبب لونه الأسود، اختزلت إنسانيته في لونه الأسود، فالبشر في شوارع جدة ينظرون إليه

(231) نفسه، ص 82.
(232) ميرغني، عز الدين، سابق.

بوصفه عبداً، وليس سالمين الذي أصبح ثرياً وحراً، والقادر على استباحة أجساد النساء البيض بماله ليحصل على المتعة البيضاء"[233].

(2)

رواية "سالمين" يتوزعها صوتان: الأول، صوت حمد، الذي يُغطي مرحلة ما قبل الهجرة الجداوية، وتحديداً فترة إقامته وعمله كجمَّال بين قرى وادي دوعن وأسواقها، ومدن الساحل الحضرمي المكلا والشحر، وصوت سالمين في مرحلة الهجرة الجداوية في تداعياته النفسية الطويلة المثقلة بتاريخ العبودية الذي يتلبسه كجلده الأسود. ويحضر بين الصوتين، صوتُ راوٍ ثالث، يبدو في حضوره أقرب للشارح العليم من خارج التداعيات التي تتلبس حضور أيٍّ من شخصيات النص الأخرى، وهو دائماً ما يحضر بموازاة صوت سالمين، ويخرج عليماً من تهويماته، شارحاً، مفصلاً، معللاً، يظهر أكثر حكمة وثقافة ورأفة:

"أشاهد وجوهاً في جدة تتوسل إلينا بأن نرفق بها، نشعرها بأنهم بشر لا فرق بيننا إلا بالتقوى. الناس في المدن العربية أكثر وحشية من ذي قبل، تحولوا إلى كتل متحجرة لا تشعر بوجع الآخرين.. تتلاشى الأحلام في جدة وتنمو وتحيا في مناطق أخرى.. عندما تواجهك أي مدينة وتعرقل عليك أحلامك وطموحك عليك أن تولي وجهك إلى مدينة أخرى، ستجد حلمك وحبك هناك"[234].

السرد التناوبي بتدخلاته الحذرة سمة تقنية في النص الروائي، "حيث يتبادل حمد ابن سيد سالمين الذي كان يملكه واصطحبه معه في جدة، وبين سالمين الذي كان يسرد واقعه وزمنه الداخلي النفسي بنفسه، ومنها تقنية الرجوع

(233) بن بدر، د. عبده عبدالله. موقع عدن تايم، الثلاثاء، 06 فبراير 2018، ومجلة حضرموت الثقافية، السنة الأولى، العدد2.
(234) باطويل. رواية سالمين، سابق، ص 86.

والعودة flash back، بحيث أتاحت هذه التقنية مع توظيف الحلم حسب المدرسة الفرويدية، في أن يجعل من ماضيه المخيف هو زمنه الداخلي الذي لا نراه ولا نشاهده. واستخدم تقنية عين الكاميرا التي ترصد الماضي الذي لم يعاصره (حمد) بن السيد، حيث نتجول بها ونرصد أسواق بيع الرقيق والمساومة البغيضة في آدمية إنسان لا يقل عن البائع والمشتري سوى ضعفه وقلة حيلته، "إذا هربت فأين سأذهب"؟ هذا السؤال المكرر والخالد في تاريخ الرق البغيض الذي كان يردده كل مسترق، "أنا يمكنني الهرب ولكن أين سأذهب؟"(235).

في تتبع لفضاء المكان الذي يتخلق سردياً من تعيينات الجغرافية، ومتخيلاً من أصوات السرد الرئيسة والثانوية في رواية سالمين، سنجد نوعين من المكان، الأول عفوي فطري، تغلب عليه البساطة والهدوء، رغم ما يعتمل في دواخل الشخصيات من إرهاصات وجودية واضحة، تحاول الإجابة عن سؤال الرغبة فيما يريدون، وهو مكان ما قبل الهجرة والمتمثل في منطقة وادي دوعن وحوافه القريبة والبعيدة في الساحل. والمكان الثاني مكان الهجرة في جدة الصاخبة بحواريها العتيقة التي عمرها الحضارمة "الكندرة والصحيفة والسبيل"، ثم هجروها إلى أحياء راقية، لهذا تطلب منطق المعالجات السردية "تغيير الفضاء المكاني الذي يتحرك فيه (سالمين) و(حمد)، فدفعت بهما إلى المهجر (جدة)، وسوغت سبب الهجرة بتلك الأسباب التقليدية المتمثلة بشظف العيش، وضراوة الحياة. وفي الفضاء الجديد تغير مصير حمد وسالمين ومضت الأمور لصالحهما، وتحررا من الفقر، وتنعَّما برغد العيش، وأضاف (سالمين) إلى هذا التحرر من الفقر، التحرر من عبودية (حمد)، إذ تصرف معه سيده

(235) ميرغني، عزالدين – سابق.

تصرفاً نبيلاً وأعتقه من العبودية، وعلى الرغم من تحرر (سالمين) فإن البشر ظلوا يعايرونه بلون بشرته السوداء، ولم تسعفه ثروتُه من الشعور بالاضطهاد والإحساس بالعبودية في داخله، وحاول أن يعوض هذا الإحساس بالدونية بالزواج من النساء ذوات البشرة البيضاء، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لخلاصه من الإحساس بالعبودية النفسية، التي ظل أسيراً لها إلى النهاية. إن أغلب أحداث الرواية تدور في جدة، لكن القارئ لا يجد تأثيراً عميقاً للبيئة الجديدة، بل كل ما يجده هو تدوير لحياة الحضارمة فيما بينهم البين، وفي هذه الحياة يعملون على ممارسة التعالي والأحقاد"[236].

(3)

مقتربات الهوية المتبدلة واحدة من سمات النص السردي في رواية سالمين، فقد عمد الكاتب إلى الاشتغال بالضغط على خيط الاتصال الوجداني الذي يربط الشخصيات المهاجرة بموطنها الأصلي حضرموت، ولم يصل إلى آخر النص، إلا وكان هذا الخيط قد تعرض، بعد الضغط التهتُّكي عليه، إلى الانقطاع تماماً.

الحنين القليل الذي كان يجرف حمد إلى حضرموت "الوطن" بدأ يتلاشى رويداً رويداً؛ لأن ما كان يظنه في مغامرة زواجه من سوسن المكاوية المولدة الحضرمية، سيعزز من ارتباطه بماضيه، صار وهماً بعد أن جرفته الحياة الصاخبة، وبعد أن "فقد الأمل كلية في استعادة ممتلكاته المؤممة في عدن والمكلا، ليصير الوطن لديه أشبه بجرح لكن لا يعلو عليه أي جرح كان، فالوطن أكبر من الحكومات والأحزاب، يرحل الرؤساء وتسقط الدول، ويبقى الوطن شامخاً يداوي جراحه بنفسه ويتجدد ويتطهر من دناسة الشر"[237].

(236) بن بدر، د. عبده عبدالله. عمار باطويل... والزيارات السردية للماضي، رأي اليوم، بتاريخ 4 أغسطس 2019.
(237) باطويل، رواية سالمين، سابق، ص93.

تلاشت أحلام حمد، ومات في جدة، ولم يرَ حلمه يتحقق في استرجاع بيوته في عدن والمكلا[238].

لكن هذا الرابط بالوطن سينتهي تماماً مع أولاده، (جاء أبناء سيدي حمد بعد وفاته وقطعوا علاقتهم بحضرموت كلياً، وكلما فاتحت ابنه البكر حسن أن يعيد النظر في حضرموت ويسافر إليها، كان يقول لنا: "أين هي حضرموت؟ خلوني أشوفها على الخريطة"[239].

عند سالمين أيضاً تتكشف هذه التمزقات بدوافع أخرى، غير دوافع التعالي على أرض الأجداد، كما صار الأمر عند المولدين الجداويين الذين كان يقول لهم:

"أنتم تنظرون للحياة بعين الرفاهية بعدما كان آباؤكم وأجدادكم صبياناً في بيوت أهل الحجاز، وبعدما كانوا قمَّاشين لا يغادرون محلاتهم، صبروا على الحياة وحققوا لكم مستقبلاً لا تحلمون به، وأنتم تريدون دفن الماضي، ودفن أرض أجدادكم ومحوها من ذاكرتكم بهذه الأعمال الشنيعة"[240]. فالأمر عنده مرتبط بالخوف من تاريخه العبودي، ويظهر ذلك من كل تداعٍ يفيض به على هيئة أسئلة "برغم مرور نصف قرن من مغادرة حضرموت لم تعد إليها، هل هو خوف من العبودية، الكل تحرر يا سالمين، ولكن أنت لم تتحرر من آثامك، عقدة الماضي تلاحقك في كل حكاية، وكلما حاولت أن تنسى تتذكر أنك عبد"[241].

(238) نفسه ص91.
(239) نفسه ص95.
(240) نفسه ص 72.
(241) نفسه ص 87.

يرسم صوراً هتكيَّة لسوسن المكاوية، زوجة سيده حسن، فهو دائم التفكير الجنسي بها، ويخاف أن يتزوجها لأنها سترفضه رغم أنه يعرف كل أسرارها، ويخاف من ابنها حسن الذي كان يعامله بقسوة.. هذه الصورة الهتكية هي جزء من الانتقام من تاريخ العبودية، التي ما فتئ الولد والأم يعملان على دوام تكريسها في علاقتهما به، لهذا لا يتردد في تشخيص حالتهما بقوله:

"تحولت سوسن المكاوية إلى عاشقة، وتحوَّل ابنها حسن إلى كل جنسيات الإبداع، من شاعر إلى كاتب وإلى أديب، هي شهوة الحياة وعقدتها ومرضها التي تجعل الكثيرين يريدون أن يصبحوا شخصيات كبيرة ومعروفة وهم في الحقيقة لا شيء"[242].

تنتهي الرواية بكابوس العبودية الخشن الذي دائماً ما يقتحم منامات سالمين:

"العبودية تلاحقني مُنْذُ الصغر، وهي عقدة الماضي والحاضر، فلا تتركني في سبيلي، كلما أحاول نسيانها تلاحقني في المنام. حلمت أكثر من مرة بمحمد سالم يجوب بي شوارع كبيرة ليست كمنطقة بضة في دوعن، مدينة كبيرة، وهو يقول بصوت متقطع أكثر وحشية من قبل: "عبد للبيع.. عبد للبيع، من يشتري يا ناس.. هذا سالمين العبد للبيع بسعرٍ مغرٍ". يتداخل الحلم مع صوت محمد سالم" "أحدِّث نفسي في الحلم كيف أنني عبد وأنا تاجر في جدة، أنا سالمين يا ناس، أنا صاحب الفنادق الضخمة والمحلات الكبيرة في جدة.. ينقطع الحلم، أستيقظ من نومي، أحمد الله أنه ليس حقيقة وأنه كابوس مزعج"[243].

(242) نفسه ص101.
(243) نفسه ص 109.

من (أشياء خاصة) إلى (رجال الثلج).. الموت المجاني للمهاجر اليمني:

(1)

قبل أن يصدر رواية (رجال الثلج) [244]، كان قد أصدر عبدالناصر مجلي[245] مجموعته القصصية (أشياء خاصة)[246]، التي طغى فيها صوت المهاجرين الجدد إلى أمريكا، والباحثين عن قيمتهم الوجودية بعيداً عن محمولات تواريخ ما قبل الهجرة في الوطن المُهاجر منه.

المحترز الكتابي كخطاب في المجموعة لم يتخلص من التعارضات الشديدة التي تنشغل بها الكثير من نماذج الكتابة المهجرية الجديدة، التي تنتمي إليها تجربة عبدالناصر مجلي، فنصوص المجموعة ترزح تحت حمل الداخل الثقيل ولم تتصالح تماماً مع الخارج الذي تحيا فيه.

الداخل - الوطن الأم- الذي تخلصت منه أنوات السرد، أو توهمت بالتخلص منه بالهجرة إلى جغرافية مناقضة تماماً لجغرافية المهجري القديم، الذي كان لا يعرف عن أقدار هجرته والجغرافيات التي سيقيم فيها، كما تذهب إلى ذلك بعض القراءات.

هذا الداخل يتحول إلى حنين جارف وبكاء وعويل من أول معاينة له من خارجه الجغرافي - موطن الإقامة الجديد- الذي يُشَدّ إليه الرحال هرباً من جحيم الأول، فيتحول إلى جحيم مضاعف، تُعبِّر عنه هذه الكتابات، وترد في نهاية

(244) مجلي، عبد الناصر. رجال الثلج، رواية – مركز عبادي – صنعاء 2009.

(245) قاص وكاتب يمني يعيش مُنْذُ عام 1992 في الولايات المتحدة. نشر عدة كتب أدبية بدءاً من مجموعته القصصية "ذات مساء... ذات راقصة" في عام 1991. روايته "رجال الثلج" تناولت حياة المهاجرين اليمنيين في الولايات المتحدة. تحول في الآونة الأخيرة إلى كتابة قصص الخيال العلمي.

(246) مجلي، عبد الناصر، أشياء خاصة، مجموعة قصصية، دار أزمنة – عمَّان، الأردن 2002م.

المطاف إلى عدم قدرة الراوي/ الكاتب وشخوصه التعايش مع هذا الخارج؛ لأن نقيضه الداخل قد فجَّر فيهم كل مسالك الحنين إليه.

إذن، نحن أمام تعارضات جوهرية بين "داخل" مقيم في ذات المهجر و"خارج" يقيم فيه المهجري ولا يتعايش معه. هذه الكتابات لا تجيب عن أسئلة آنية بل تضاعف من إنتاج أسئلة إشكالية، ترحل في مفردات مواضيع الهجرة الأليمة، التي تصير في معظم النصوص معادلاً للموت المجاني.

في نص عنوانه "ما قالته السيدة عذبة وآخرون"، تظهر السيدة اليمنية راويةً حنينها إلى الوطن الذي قضت خارجه سنتين بعيدة عن بقرتها الحمراء "سعيدة"، التي "كانت تحتفظ لها بصورة ملونة تناجيها كل حين، وتدعو الله أن يعيدها سريعاً إلى قريتها النائية في وطنها المنسي"[247].

السيدة عذبة، حينما وطأت بقدميها أرض مطار "جون كنيدي"، تذكرت أغاني الفرقة والأشواق واللوعة والانتظار، ولاحقاً اختزلت إحساسها بموطن الإقامة الجديد بلغة دارجة، حينما قالت: "ويش مريكن هذه يا غارة الله، نصها نار ونصها ثلج"[248].

الداخل يستدعيه عمال يمنيون يبخِّرون أعمارهم في المطاعم، ومحطات البنزين، ومصانع السيارات والورش، ويبددون أيامهم الطرية في مطاردة سنتات قليلة، وحياة هينة ليست في متناول اليد، على نحو حكاية "أحمد" العامل اليمني في نَصّ "يوم موت لا ري"، والمكبَّل بالدين والزوجة والألم، يترك الورشة التي يعمل بها من أجل سنتات زيادة في أجر الساعة في إحدى المحطات، وبعد أشهر قليلة يجدونه مقتولاً في هذه المحطة بعد حادثة سطو.

---

(247) مجلي، عبد الناصر. الأعمال القصصية، مركز عبادي، صنعاء، الطبعة الأولى 2008، ص263.

(248) نفسه، ص 263- 267.

الداخل وطن يتلبس "الملاحي" العامل اليمني الكهل أيضاً الذي قضى سنوات كثيرة عاملاً في البحر والمرافئ، وقابله الموت الرخيص في إحدى ورش "ديترويت"، وعلى شفتيه مهجل قصير يقول "بالله عليك وا ساير البيضاء بلغ سلامي على هيله".

شبان يمنيون يعملون في أحد المصانع يتشابهون في أشياء كثيرة: الديون التي ترهق الكواهل/ الفقد المروع لأحبة بعيدين/ حنين لا يطاق لأوطان لا تسأل عن أحد.

هذا هو الداخل الوطن الذي يُستبدل في البداية بموطن جديد لإنفاذ أحلام من هاجروا إليه، غير أنه لا يمَّحي من وجدان الذين هجروه، فهو مذاب فيهم، مقيم تحت جلودهم، يستحضرونه حينما لا يستطيعون استيعاب الوطن البديل، ولا يتكيفون مع مفرداته وقيمه المختلفة، فهو في "أشياء خاصة" موطن مؤقت، لهذا يظهر الشخوص المقيمون فيه متخففين من مسألة الانتماء إليه، يمقتونه، يسفهون قيمه، ولا ينظرون إليه إلا باعتباره آلة يقايضون مجهوداتهم فيه بدولارات قليلة، وتالياً يدفعون حياتهم ثمناً لهذه المقايضات غير العادلة. حتى أولئك الذين أرادوا وضع حد لعلاقتهم بالوطن الأصل من خلال الانغماس الكلي والذوبان في ثنايا موطن الحلم الزائف لا بد أن توقظ فيهم الشيخوخة والوهن جذوة الحنين.. الجذوة التي يحاولون نقلها مشتعلة إلى أبنائهم "المولدين"، على نحو حالة الأب المهاجر الذي يوصي ابنه في نص "ملامسة الأشياء البعيدة" حينما يقول له: عشت حياتي بالطول والعرض، ونسيت أهلي وناسي. كنت شاباً مجنوناً، كل ما كنت أجمعه من مال أنفقه على ملذاتي، لذلك لم أستطع العودة خالي الوفاض، بعدها قابلت والدتك وتزوجتها. أنت رجل من بعدي، لا تنسَ أن

لك أرضاً ووطناً هناك وراء البحر، لقد كنت وحدي يتيماً. لكن ماذا عن الأبناء الذين تسدي إليهم مثل هذه النصائح؟

هم أيضاً يعيشون هذه التناقضات بين انتماءات يجاهد الآباء كثيراً في غرسها بدواخلهم لأوطان يحن إليها الآباء فقط، وبين تحققاتهم الوجودية في وطن ولدوا فيه وتشربوا قيمه بدون مباركة من الآباء. فتاة تعمل في أندية للتعرّي.. أولاد يتاجرون بالمخدرات وتقديم الخدمات المجرَّمة أخلاقياً من وجهة نظر الآباء، الذين يظهرون في وعي الأبناء ككائنات بالية ومحافظة.

(2)

في "رجال الثلج" تصير معاناة اليمني في العالم الجديد عنواناً مفتوحاً للهجرة القاتلة، وتعبِّر عنها ثلاث حكايات لمهاجرين من أزمنة مختلفة. الأولى "حكاية عبدالله"، وهي تصوير قيامي مؤلم لموت شاب ينتقل إلى أمريكا مع عائلته في منتصف السبعينيات ويتطبع بثقافة شبانها، كان "شديد الذكاء وكثير العراك مع أقرانه، ويعيش حياته كأي مراهق أمريكي"[249].

لكنه حينما يعود في زيارة لبلدة أبويه "جُبَن" برغبة منهما، يتزوج هناك وينجب ابنة أسماها "وداد"، هي آخر ما سيمر عليه في الشريط السينمائي أثناء قتله في محطة البنزين من قبل أربعة لصوص خيروه بين المال وحياته:

"تذكَّر وداد وهي تلثغ بصوتها في الهاتف. سمع صوتها الحبيب قبل سبعة أيام بالضبط من موته، قبل أسبوع كامل من أن يغدو مجرد صورة سيحتفظ بها الأحبة حتى تبلى، وحتى يختفي من لوحة الذاكرة التي ستمتلئ ذات يوم"[250]. الميتة المؤلمة للشاب ستقود أمه "شمس" إلى الجنون، وستفيض دموعها على

(249) مجلي، عبد الناصر. رجال الثلج، سابق، ص63.
(250) نفسه ص 8.

كل الولاية، وأن الحاكم "لم يعلن حالة الطوارئ عندما وصل فيضان دموع شمس إلى فناء بيته في العاصمة لانسينج"[251]، في تصوير أسطوري لمعنى الحزن في البلاد البعيدة التي تقطف أحلام الغرباء.

الحكاية الثانية لـ"علي"، الصحفي والكاتب الذي يهاجر إلى أمريكا بعد الوحدة، بعد أن بدأ يستشعر الخطر الداهم الذي يلف حلم اليمنيين: "وحدي من كان يترقب كارثة قادمة، وقد صدق حدسي، واختلف الشركاء وأقاموا عرساً دموياً استمر واحداً وسبعين يوماً كاملة"[252].

بعد حياة مضطربة في صنعاء "قات، وخمر، وصلاة، ونساء، وتصنُّع عملقة كاذبة"[253] تصعَّد في وحشتها وازداد ضجراً مما حوله، هاجر إلى أقصى الأرض وإلى ديترويت الأمريكية التي وصلها "ذات مساء والوقت شتاء عجوز يلفظ أنفاسه بصرخات بيض تهمي على الأرض.. كان "عبدالله" قد مات وشبع موتاً، والدموع قد جفت، والحياة مستمرة في عجلتها المسرعة، لا تلتفت للبهائم المنسية أمثالنا"[254].

استقر في حي اسمه "دكس"، حيث "يفنى العمر وتذوب الأيام مثل حبات من ملح شديد المرارة في كأس الحظوظ... مجرد حي قذر مظلم تنبعث منه روائح الكبريت والزئبق والمواد الكيميائية السامة، القادمة من مصنع "فورد" الشامخ في آخر الشارع"[255].

وعمل غاسلاً للصحون في مطعم يمتلكه شخص فلسطيني، لكن طبعه الانطوائي لم يُعنه على الاختلاط بمجتمعه الجديد، واقتصرت حياته بنسق ممل

(251) نفسه ص 146.
(252) نفسه ص 17.
(253) نفسه ص 32.
(254) نفسه ص 32.
(255) نفسه ص 67.

بين العمل في المطعم وغرفته الباردة في كل الفصول، في فندق رخيص يعج بالعاطلين والعجزة والعاهرات، حتى جاء اليوم الذي أخذته زميلة له في المطعم تدعى "ديبي" إلى مسكنها، حيث تذوق لأول مرة الحياة الأمريكية، ودلف إلى عالمها الذي "لم يكن يراه إلا على شاشات السينما، ليالي طوالاً في تدخين الحشيشة والرقص والخمر والجنون.. لم أجد من يردعني أو يذكِّرني من أين أتيت ولماذا؟"[256].

تطورت علاقته بديبي التي تداركها بالزواج حينما حملت منه، وكان هذا الزواج بالنسبة له حلاً لمشاكله، وبه يستطيع البقاء في أمريكا دون مضايقة قانونية ومطاردة من رجال الهجرة القساة، لكن هذا الزواج لم يمنعه من الذوبان في قاع المجتمع المدمر. إن مسحة الإيمان التي تلبَّسته مع دخول رمضان، وقادته إلى ملازمة المسجد انتهت مع خروج الشهر من مواقيته الإيمانية.

بعد حياة بطالة وبؤس يجد عملاً في ورشة صغيرة لتعبئة المياه الغازية، لكنه يتركها بعد معركة طاحنة، وينتقل للعمل في ورشة لتعبئة قطع غيار سيارات وتغليفها، وهناك سيتعرف على أصدقاء يمنيين مثقلين بالديون، ومنهم قاسم الذي ترك الورشة للعمل في محطة بنزين لتحسين دخله، لكن "لم ينقض شهر واحد حتى كنت أحد المصلين على جثمانه"[257] بعد أن قتلته عصابة تحترف السرقة.

بعد فترة بطالة وضياع حاول تدارك نفسه في عملٍ لم يجده غير إلاَّ محطة بنزين في وردية ليل، حيث ستتكرر من جديد قصة عبدالله وقاسم مع الموت، وهذه المرة معه:

---

(256) نفسه ص 113.
(257)نفسه ص 136.

"كان بعض الزنوج قد باغتوني وأخذوني على حين غرة، كنت مغفلاً عندما أمنت لهم، فقد أغراني الوقت المبكر، ولم أغلق على نفسي باب الغرفة الزجاجية المحصنة ضد الرصاص، كان ذلك بعد دقائق معدودة من استلامي لنوبة عملي التي تنتهي في السادسة صباحاً.. لم يسألوني، لم يحذروني أو يعطوني فرصة صغيرة للدفاع عن نفسي، فقط أطلقوا النار"(258).

الحكاية الثالثة تتبع لموت مجاني ثالث لمهاجر في وقت مبكِّر اسمه "مثنى"، يدخل نيويورك في شتاء عام 1920م سباحة بعد أن قفز من على ظهر سفينة كانت تناور مناورتها الرئيسة استعداداً للرسو بعد رحلة لها من مرسيليا، وعلى ظهرها هذا المهاجر الذي لا يحمل أوراق هوية، بعد أن قضى بضعة أسابيع متخفياً فيها مثل جرذ، وكادت هذه المغامرة تكلفه حياته بعد إصابته بنزلة برد شديدة، لولا عناية أحد المهاجرين السوريين به لمدة ثلاثة أشهر.

قبل أن يدخل مثنى نيويورك بتلك الطريقة، كان قد ترك قريته الجبلية إلى عدن: "لما كانت حياتنا لا تطاق في تلك القرية النائية، فقراً وجوعاً وأمراضاً، سافرت إلى عدن، حيث أخبرني بعض أبناء قريتي بوجود عالم آخر يسكنه بشر غيرنا، يعيشون في قصور وشوارعهم نظيفة، وحياتهم سهلة، يأكلون ويشربون ويتزاوجون دون مواجع أو منغصات"(259).

وبعد مكوثه لستة أشهر في عدن ركب باخرة باتجاه "مصوع" على الضفة الأخرى من البحر، حيث قضى ثلاث سنوات "، كانت أجمل سنين العمر، قات ونساء سُمر، كما لو كنت في الجنة"(260).

(258) نفسه ص 175.
(259) نفسه ص 40.
(260) نفسه ص 40.

وأثناء ما كان يقوم بتفريغ أحد المراكب مع حمالين، آخرين داهمت الشرطة المركب للبحث عن الذين ليس لهم إقامة أو يقيمون بطريقة غير قانونية. غير أن عدم انتباه أفراد الشرطة لوجوده داخل المركب نجَّاه، وبقي بداخل المركب الذي غادر الميناء. وحين اكتشف أمره البحارة، أرادوا رميه في البحر، غير أن القبطان منعهم وطلب منه أن يعمل بلقمته، وحين وصل ليفربول كانت حرب كبيرة قد اندلعت، وقد استدعوه ضمن بحارة المركب للتطوع في الحرب ففعل، وحارب إلى جانب البريطانيين لمدة أربعة أعوام، وبعد الحرب ذهب إلى ألمانيا التي عمل فيها كل الأعمال، بما فيها القوادة:

"شحَّ العمل، وكدت أموت من الجوع، فتعرفت على عدة فتيات في نفس ظرفي، معوزات لا عمل لهن، فكنت الوسيط بينهن وبين زبائن المتعة من بحارة وغيرهم، والحامي لهن في نفس الوقت من الأوغاد"[261].

من ألمانيا انتقل إلى قبرص على سفينة شحن، ومن هناك إلى مرسيليا، ومنها على ظهر السفينة "الأميرة" إلى نيويورك، حيث قضى تسعين يوماً طريح الفراش بعد سباحته لساعة في مياه باردة قبل أن يصل إلى رصيف الميناء.

عرَّفه "حنا" على "ليوجي" الإيطالي المجنون الذي يمتلك مطعماً، كان حنا قد عمل به سابقاً، حيث سيعمل مثنى في غسل الصحون وأدوات الطبخ، حيث سيتعرف على "جينا" زوجة "ليوجي" التي تطلق عليه اسم "مارتن"، فملامحه الشرقية الحادة "طوله الفارع بامتلاء، وسواد عينيه، وشعره الفاحم، وسمرته اللذيذة، كانت رأسماله في عالم النساء الإيطاليات الذي سيدخله رويداً رويداً، ابتداءً بـ"جينا" نفسها، وفي نفس سرير الزوجية دون علم "لويجي" المجنون،

(261) نفسه ص 45.

مروراً بنساء كثيرات، وصولاً إلى زوجة "بتينو" الصغير، الرجل الذي سيتعرف عليه بواسطة "لويجي"، ويصبح أحد رجاله، والذي سيلقى مصرعه على يديه"[262].

بعد أشهر سيقتل شر قتلة على يد "بتينو" الصغير، "الحاكم الفعلي لعموم العصابات الإيطالية، ليس في بروكلين وحسب، بل في نيويورك الكبرى كلها، المدينة التي تنام كل ليلة على أنين عشرات الجثث التي يستفعل بها الموت، حيث سيعمد إلى قطع عضوه وخصيتيه أولاً، ثم يتم تقطيعه إرباً، ويرمي لحمه للكلاب ويتم حرق ما تبقى منه، بحيث سيختفي إلى الأبد"[263].

ومقتل مثنى بهذه الطريقة البشعة جاء بعد أن ضبطه "بنيتو" مع زوجته "كارولين" على الفراش، وما كان ليعلم بهذه العلاقة لولا وشاية "جينا" به، بعد أن أكلت قلبها الغيرة، من اختطاف زوجة "بنيتو" لحبيبها.

بعد اختفاء "مثنى" الطويل لم يقر "حنا" في بحثه عنه، وحين يقترب من معرفة هوية قاتليه يقومون أيضاً بقتله بطريقة بشعة في مدخل مسكنه.

"هدد "لويجي" المجنون بتبليغ البوليس عن اختفائه إن لم يخبره بالحقيقة التي تقول إن "لويجي" كان يعلم أن "مثنى" يُعلِّم "كارولين" كيف ترفع ساقيها جيداً وبثبات إلى الأعلى، دون أن يعلم أن "جينا" قد سبقتها"[264].

في "رجال الثلج" ثمة مهاجرون يمنيون حضروا في النص عرضاً، دون وظائف حكائية في البنية السردية الأصلية، لكنهم في نهاية الأمر يعيدون إنتاج وظيفة معينة لإدانة الهجرة التي سلبتهم كل شيء، ويُستنبتون نصياً كوحدات

(262) نفسه ص 56.
(263) نفسه ص 56.
(264) نفسه ص 57.

حكائية مستقلة حملت عنوان "فصل وجوه في المهب حطمتها ريح نكد وعثرات كبار"، منهم:

"السلطان" رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ممتلئ الجسم، له شارب كثيف، ووجه مدور، يتميز بوسامة وقورة، يحب النساء، لكن الزمن انقلب عليه. كان يمشي في الشارع بثوبه العربي وعصاه السوداء كمليك مخلوع. بعد طرد الإنجليز من عدن سافر إلى السعودية، ثم انتقل كلاجئ إلى أمريكا.

متدين، يصلي ويصوم، ويطارد الفتيات مغرّراً بهن بوفرة المال. كان يذوي كل يوم مثل سنديانة ماتت عروقها. شرههُ قضى عليه، فقد كان يحب الطعام كثيراً.. ثلاثون عاماً في ديترويت قضاها كلاجئ ولم يتعلم أي صنعة، معتمداً على النزر اليسير الذي كان يأتيه من الحكومة الأمريكية، وها هو الآن مشلول كسيح.

ذبلت عيناه وضمر جسده الذي كان قوياً، وعندما أدركته الأيام وأحس بأنيابها في كبده، وتخلى عنه الأصدقاء ذهب بنفسه إلى دار العجزة، وهناك مات في صمت ولم يعلم مخلوق بوفاته[265].

"الدنجوان"، شاب ثلاثيني بالكاد يستطيع كتابة اسمه بالعربي، انفتحت أمامه بوابة الرزق. ربح ورقة يانصيب بمبلغ ضخم استثمره جيداً في محطة بنزين ودكان لبيع الخمور ومحل بيتزا، لكنه أبطأ في العودة، سحرته نساء متشجن فنسي أباه وأمه وزوجته الشابة، التي لم تطق صبراً فنسجت علاقات عاطفية مع شبان القرية، وحين وصله الخبر تأزم، "هرب إلى الخمر وأسرف فيها كمن ينتقم من نفسه ومن زوجته وأهله وبلاده. أهمل مصالحه حتى أفلس وكثرت ديونه، تعاطى الكوكائين وكل أرخص أنواع المخدرات، كان يسعى إلى دماره

(265) نفسه ص122.

الشخصي بوعي مفزع النتائج، يجلده شعور ماحق بالذنب، يقضي ليالي طوالاً في غيبوبة وبكاء.

وذات يوم خرج على الناس عارياً إلا مما يسد عورته، حافي القدمين، بعد سماعه نبأ إفلاسه رسمياً، وبيع ممتلكاته في المزاد العلني لتسديد ديونه، كانت القشة التي قصمت ظهره الجريح، وانضم إلى قافلة مجانين "دكس" ممزق الثياب، تفوح منه رائحة خمر رخيصة"[266].

"المريض"، كان كل من رآه ولى منه الأدبار.. جثة آدمية لها من العمر ثلاثون عاماً، مثخن بالقروح المتقيحة، تفوح منه رائحة لا تطاق، يعيش وحيداً في غرفته المزحومة برائحته الآدمية المنتنة، يرى بعينيه جسده يتداعى أمامه.. أصيب بالإيدز الأسود السريع الفتك، والذي لن يمهله فترة طويلة للعيش.. قضى ليلته الأخيرة يبكي وينادي أحبته البعيدين، ليل طويل من الاحتضار والاحتراق خوفاً وندماً. وعندما حل الفجر كان قد أخلد عنوة إلى جبروت السكون بعد أن استل منه الموت شعرة الصراخ ودودة الروح[267].

المهاجرون اليمنيون في هذا النص السردي "لم يكونوا سوى مجموعة من الرجال المهاجرين الذين ساقتهم أقدارهم إلى الفناء في بلاد الثلج، بعيداً عن أوطانهم الدافئة، والتهمهم الغرب مثل قطع الثلج الذائبة، ذابوا في كؤوس الغرب كقطع الثلج الصغيرة، أو كأنهم تماثيل صنعت من الثلج المتلاشي، عاجلهم قدرهم بالموت فيه مستبدلين بقبورهم الدافئة قبوراً ثلجية باردة"[268].

(266) نفسه ص 124- 125.
(267) نفسه ص 130-131.
(268) باقيس. سابق، ص 121.

"طيف ولاية".. المهاجر يُطارد وهم ماضيه:

ما تقترحه رواية "طيف ولاية"[269] لقارئها هو الإمعان في علاقة المهاجر بالآخر، في تعيين عفوي يستبصر ما كانت قد صنعته الرواية الأشهر عربياً "موسم الهجرة إلى الشمال"، مع الفوارق الأسلوبية والجمالية لعملين يفصل بينهما أربعة عقود. في "موسم الهجرة إلى الشمال"، "يقوم السرد بمهمة تمثيل التوتر الثقافي بين الشرق والغرب، بأسلوب رمزي، يعيد إلى المتلقي التعارض بين قطبين حضاريين، وينخرط السرد في تمثيل مجازي لهذا التناقض، من خلال استحداث شخصيات ورؤى تنتمي إلى طرفي التناقض.. ويضفي الطيب صالح على الموضوع طابعاً تراجيدياً، حينما يغلِّف العلاقة بين الرموز الحضارية بالعنف، والشبق، والموت، فتتخطى الشخصيات مستواها النصي المباشر لتتصل بمجالات الصراع المتوتر بين الشرق والغرب"[270].

في رواية "طيف ولاية" "لن تخطئ أبسط قراءة نقدية لها العلاقة بين ناجي وإميللي، ذلك أن السرد يقدمها على نحو مباشر لا يصعب اكتشاف لعبة ترميزها، بحيث يمكننا قراءتها على المستوى الرمزي بأنها تتعدى العلاقة بين ناجي المهاجر الشرقي ذي القيم البدوية والفتاة الإنجليزية اللعوب إميللي من مجرد العلاقة السطحية بين شخصيتين إلى العلاقة بين الشرق والغرب، بين الضحية والجلاد، تلك العلاقة التي شغلت الروايات العربية مُنْذُ الخمسينيات من القرن الماضي"[271].

(269) عبدالله، عزيزة. طيف ولاية، رواية، دائرة التوجيه المعنوي، سابق.
(270) إبراهيم، د. عبد الله - الرواية العربية وتعدد المرجعيات، من كتاب ندوة "ممكنات السرد"، المجلس الوطني، الكويت، 2009، ج 2، ص 11- 12.
(271) باقيس، سابق، ص 116.

الرواية تسرد قصة شاب يمني "ناجي الزبيدي"، تتعرض أسرته لظلم فادحٍ من عامل الإمام في منطقة زبيد، ومن أبنائه من بعده، إذ يقوم الأول بالاستيلاء على مزرعة أحد مرافقيه من العسكر "والد ناجي"؛ لأنه أضاع البندقية الثمينة الذي كانت بعهدته، ولم تُجدِ كل محاولات بحثه الصعبة في الوصول للص الذي غافله وسرقها. سجنه العامل وقيَّده لأشهر عديدة، ومات مشلولاً بعد أن قطع عنه بيت المال المقرر له من حبوب وملابس موسمية وريالات قليلة، مخلفاً وراءه أرملة شابة لم تبلغ العشرين، وطفلاً رضيعاً، فبقيت الأم (آمنة) "تتعيَّش على ما تكسبه من بيع الحطب إلى جانب تربية الدواجن وبيعها، وما يتصدق به عليها وولدها أهل الخير"[272].

أخرجها أولاد العامل من البيت هي وطفلها، بحجة تملكهم له بعد أبيهم الذي أخذه استيفاء لثمن البندقية التي ضاعت على الأب، فذهبت إلى تعز بحثاً عمن ينصفها، ومنها إلى صنعاء حيث مقر الإمام ولكن بلا فائدة، فتعود من جديد إلى تعز لتعمل لدى خبازة، كانت لديها فتاة اسمها "ولاية"، تعلق بها الطفل ناجي حتى الهوس. في العاشرة أصيب بالجدري وامتنع عن الذهاب إلى المعلامة "الكتاتيب"، وفي الخامسة عشرة "صمم دون مقدمات على السفر إلى المخا للبحث عن ابن خال أمه.. كان قراره سريعاً ومفاجئاً، حتى أنه لم يمهلها كي تدبر له بعض مصاريف الطريق"[273].

لكنه لم يذهب إلى ابن خال أمه، بل ركب قارباً يمتلكه أحد النصارى وغادر باتجاه الصومال مع صيادين، ومنها إلى السودان، ثم إلى عدن، واختفى لخمس سنوات، وانقطعت أخباره، ومع ذلك لم تكلّ أمه من البحث والسؤال عنه في كل

(272) عبد الله، عزيزة. طيف ولاية، سابق، ص 28.
(273) نفسه 33.

مكان، في زبيد، وتعز، والحديدة، وصنعاء، وكانت قريبة من السفر إلى عدن لولا ضرب الطائرات الإنجليزية لبعض مناطق حكم الإمام التي منعتها من السفر، وعادت إلى زبيد. "ومرت خمس سنوات أخرى وجاء من يخبرها بأن ناجي موجود في الحجاز، وسوف يعود قريباً"[274]، وبعد أشهر جاءتها الخبازة وقد شاخت وانحنى ظهرها لتخبرها أن ولدها في الطريق إليها، بعد أن وجده أحد معارفها في عدن، وأخبره ببحث أمه عنه، فوعده بأنه سيزورها عما قريب.

"عاد إليها وقد أصبح ناجي غير ناجي الذي هجرها.. ترك لها بعض المال وسافر من جديد.. سافر هذه المرة إلى الحبشة، وهذه المرة أيضاً انقطعت أخباره"[275]، لكنه سافر هذه المرة للبحث عن جده التركي الذي غادر الحديدة مع القوات التركية، التي غادرت اليمن، تاركاً زوجته اليمنية حاملاً بوالدته.

تنقل بين موانئ كثيرة، وتعرف على أناس من جنسيات مختلفة، وفي خضم الظروف والأحداث التي واجهته نسي أمه؛ إذ ظل يجوب القارات دون هدف محدد غير ذلك الطيف الذي لا يفارقه.. وتمر السنون وهو يتنقل ويجمع المال دون هدف محدد.. أما نقطة ضعفه الوحيدة فكانت النساء، وكلما تعرف على فتاة فيها شبه من الطيف الذي يبحث عنه عقله الباطن يريد أن يرتبط بها، بل إلى حد الزواج من أي فتاة توافقه طلبه كلما توافر بها شيء من الطيف.. والغريب في أمره أنه كان لا يميل إلاّ لمن هن أكبر منه[276].

تعلق بالأمل أو بالوهم، وشدَّ رحاله وسافر إلى ألمانيا، ولكنه لم يحظ بأحد يدعى (نجيب التركي) الذي أخبره بحار آسيوي بوجوده في ألمانيا، غير أنه لم

(274) نفسه ص 43.
(275) نفسه ص44.
(276) نفسه ص 48.

ييأس من العثور على جده، وبعد فترة ترك ألمانيا وسافر مع باخرة نقلته إلى أستراليا، وهناك عاد للعمل على متن باخرة بريطانية.. في إيطاليا تزوج بامرأة تعرف عليها خلال رسو الباخرة في ميلانو، لكنه طلقها. عمل خبازاً في باخرة متجهة إلى مرسيليا، وتركها ليعمل على باخرة هولندية كانت تقوم برحلات إلى الأمريكَتَيْن، وفي أول رحلة لها إلى نيويورك فر من الباخرة ودخل أمريكا بلا جواز سفر.. اشتغل في المزارع والمطاعم، والتقى بمهاجرين يمنيين يبددون كل ما يكسبونه على مشاكلهم التي نقلوها معهم من قراهم، وكان هو لا يختلف عنهم في شيء.. "لم يستفد من غربته ولم يتعلم.. كان كل همه أن يكسب المال ويعود لكي ينتقم من أولاد العامل الذين استولوا على بيته وهو طفل.. كذلك خياله أو عقله الظاهر الذي جعله يبحث عن جده التركي.. أما الطيف الذي يبحث عن شبيه له فكان لا يبوح بسره الذي تعلق به مُنْذُ كان في العاشرة من عمره"[277].

ترك نيويورك إلى ديترويت، ثم إلى ديلاور، وهناك التحق بباخرة نقلته إلى جزر الباهاما، ومنها إلى هاواي، وفي هونولولو تعرف على مدرس تاريخ لبناني، عمل على إعادة اكتشافه وانتمائه الحضاري لليمن بوصفه منبع العروبة الذي ينتمي إليه المدرس، وساعده "أن يلتحق بعمل في البحرية الأمريكية وبأوراق شبه رسمية مكنته من دخول المعسكر"[278].

ترك هاواي إلى نيويورك، حيث علم بقيام ثورة سبتمبر فهزه الشوق إلى اليمن وأمه، فسافر إلى بريطانيا، واستقر في ليفربول، وهناك وجد نفس مشاكل

(277) نفسه ص 52.
(278) نفسه ص 57.

المهاجرين اليمنيين في أمريكا، فعمل على المساعدة في حلها قبل أن يتورط هو نفسه بمشكلة أكبر:

"إنني كنت أساعد المحتاجين، وأحل مشاكلهم وأزماتهم.. آه كم كنت وجيهاً، وكريماً وكيف أصبحت"[279].

ومشكلته بدأت بعد تعرفه على فتاة إنجليزية "إميللي" التي تشبه إلى حد كبير ابنة الخبازة "ولاية" التي ظل يحمل طيفها كحنين جارف طيلة هذه السنوات، وتعرف عليها في ميناء ليفربول حين ذهب لوداعه قبل عودته النهائية إلى اليمن لتحقيق أحلامه البسيطة، بما جمعه من أموال كان يضعها مع تذكارات حميمة في صندوق حديدي، كان قد أعطاه إياه أحد البحَّارة في تركيا وله ثلاثة أقفال، وقد ربط المفاتيح في ثلاثة مناديل مختلفة يضعها في أماكن متفرقة في ثيابه"[280]، سماها "أملي" حين عقد عليها بعد ساعات من تعرفه عليها.. "حبه الجارف لهذه الفتاة الإنجليزية اللعوب يجعله لا يرى سوى ما كان يبحث عنه، وهو صورة ولاية البريئة الجميلة، وهي في الواقع صورة الأم، مما جعله يسلم لها قيادته بثقة ساذجة إلى أبعد الحدود، فيضع نفسه وثروته تحت تصرفها حتى أصبحت هي الآمر الناهي في حياته وفي علاقته بغيره من المهاجرين العرب من بني جلدته، لكنه يكتشف في النهاية أنها تخدعه، وتبتز أمواله، وتنفقها على لذاتها وعشاقها، فتنتهي علاقته بها على نحو مأساوي ومهين، فتهرب مع أحد عشاقها الجدد بعد أن استولت على ثروته وعلى المطعم الذي كان يملكه، هادرة كرامته وماله معاً، ولم ينجح سوى في استعادة صندوق صغير، الأثير الذي به بعض ذكرياته، ويقرر بعد ذلك العودة إلى موطنه بحثاً عن الجوهر الحقيقي

(279) نفسه ص15.
(280) نفسه، ص 73.

"ولاية" الذي ظل يطارد صورته المزيَّفة في الغرب، ليكتشف الوهم الذي عاش فيه بعد تجربة مؤلمة"[281].

لكن بين تركه لـ"إميللي" وعودته إلى اليمن سيكون قد استعاد بواسطة المحكمة بعض أمواله التي نهبته إياها، مستغلة جهله القراءة والكتابة، وعاد من جديد لكسب أموال إضافية من عمله في كارديف في ورشة لإصلاح السيارات، وحين مل غادر إلى فرنسا واشتغل في ورشة أيضاً، ومنها إلى جدة، قبل أن يعود إلى أرض الوطن، ليكتشف وهم طيفه، حين وجد "ولاية" امرأة عجوزاً، بغير تلك الصورة التي ظل يطاردها في نساء البلدان التي حل فيها، وعاد ليتزوج "حنان" عاملة الهاتف في الفندق الذي نزل به حال عودته إلى صنعاء، "وكأن القدر كان يخبئها له لتعيد له ثقته بنفسه، وتضع ولاية وطيفها في المكان الصحيح، ويدخل في دنيا جديدة وعصرية مع بنت اليمن الحديث"[282].

الرواية بمباشرتها وبناها الخيطي الواحد وقعت في الكثير من الهنات التاريخية وحساب الزمن، فقادت إلى إنتاج مواضع هشة عديدة في النص، ومنها مزامنة تواريخ حكم الإمامين يحيى وأحمد.. تذهب الأم لتعز لتشكو أبناء عامل زبيد إلى "نائب الإمام" الذي يسكن العرضي، والتاريخ يقول إن أمير تعز "علي الوزير" هو من كان يسكن العرضي إن كان الأمر قد تم قبل أن يصير أحمد ولياً للعهد في العام 1940م، وصار يتخذ من مدينة تعز مستقراً له.

وفي سياق ثانٍ تشير الحكاية إلى أن ناجي بلغ الأربعين حينما سمع بثورة سبتمبر وهو في نيويورك، وهذا الأمر لا يتسق بالمرة مع الفضاء الزمني للنص، فمثلاً يتحدد بدء غياب الجندي التركي "نجيب" مع مغادرة الجيش

(281) باقيس. سابق، ص 115.
(282) عبدالله، عزيزة. طيف ولاية، سابق، ص 186.

التركي لليمن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، في العام 1918م، ويترك زوجته غالية وهي حامل بابنته "آمنة"، التي تتزوج بأحد مرافقي عامل زبيد وعمرها 13 سنة، وتنجب له "ناجي "بعد عام، أي بحسابات النص في العام 1933، يعني بلوغه للأربعين سيكون بعد 11 عاماً من قيام ثورة سبتمبر[283].

"كانت تلك الحرب هي الحرب العالمية الأولى، ويعلم بها ويسمع عنها معظم أهل اليمن عندما كان يختفي الغاز، و"المريسي" (السكر)، والكبريت من الأسواق، رغم أن غالية وأمها وأخاها لا يستعملون الغاز والسكر"[284]، المعلوم أن غياب السلع التموينية الأساسية ارتبط بنشوب الحرب العالمية الثانية، وليس الأولى، وأن السكر تسمَّى شعبياً في مناطق شمال اليمن بـ (المريسي) نسبة إلى مستورده في خمسينيات القرن الماضي وليس قبل ذلك.

"بقيت مع ابن خالها فترة، ثم عادت إلى تعز، وتخبرها ابنة الخبازة بأن أناساً أخبروا والدتها أنهم رأوا شاباً له مواصفاته في صنعاء يعمل مع حرس البدر.. سافرت إلى صنعاء ولم تجده في حرس البدر ولا في أي مكان"[285].

زمن بحثها النصي عنه كان بعد غيابه الأول مباشرة وعمره خمسة عشر عاماً، أي في العام 1949، على افتراض أنه من مواليد العام 1934، وفي هذا التاريخ لم يكن البدر قد أصبح ولياً للعهد بعد، ولا يقطن صنعاء التي كانت حكراً على سيوف الإسلام "إخوان الإمام أحمد"، وليس له فوج عسكري، وتشكل هذا الفوج الذي عُرف بفوج البدر، أواخر الخمسينيات حينما صار البدر في واجهة الحكم بعد مرض والده "الإمام أحمد".

---

(283) نفسه ص 23.
(284) نفسه ص 38.
(285) نفسه ص38.

ما أردت الإشارة إليه، في هذا التعقيب، أن الإشكاليات في معطى الزمن تتكرر في الكثير من النصوص الروائية في اليمن، فمغامرات العديد من الكتب في الخوض في الزمن المتعين في التاريخ كوقائع وأحداث تتحول إلى عبء على النص، حين تتميع الوقائع بين التخييل السردي باستخدام التاريخ واللعب على مبذولاته، وبين وقائع التاريخ بنصوصيتها، ويشار إليها كإحالات وشواهد لتمتين وتقوية النص، بمعنى أدق إن التخييل الأدبي يصير بدون قيمة حين يتوزع الكاتب بين المؤرخ الذي لا يُدقِّق في الوقائع وزمنيتها، وبين المبدع الذي لا يستطيع التحكم بأدواته الإبداعية بتجريدها من السطحية والابتذال، وفي المحصلة النهائية نجد أنفسنا أمام نص يكشف خللاً ثقافياً مركباً في وعي الكاتب.

ربيع الجبال.. التنميط الشائع لصورة المهاجر:

للهجرة أسبابها ودوافعها، والمؤمل منها عند المهاجرين وأسرهم يتباين بمقدار الأحلام التي يحملها أصحابها في ترحالاتهم. ومثل كل مهاجر يمني، كان السبب الأقوى لهجرة "حزام سيف طربوش" في رواية (ربيع الجبال)[286] هو الفقر، وحتى لا يستمر في مشاركة الحمير أعلافها:

"أكلت يومها معهم الحلص "العلفق"، وأكلت معهم العلف مع الحمير. قال أبي إن حمار الجيران كان سيرفسني يومها غيظاً لأني خطفت عليه قصبة علف يابسة. من كان يصدق هذا؟، ولكنهم في يوم ثانٍ كانوا يسيرون في جنازة آخر رفسه الحمار"[287]. والى جانب ذلك كان الظلم والجور الدافع الأكبر في

(286) مثنى، محمد. ربيع الجبال، رواية – مركز عبادي، 2002.
(287) نفسه 20-21.

هجرته وتشرده، "كنت أشقى كالكلب.. أبثُّل الأرض وأنظفها، وأبذر فيها الحَبّ حتى تصير حبوباً محصودة في الجران، فيأتي عليها العساكر والإمام"[288].

طريق الهجرة الذي سلكه كان بذات مسلك الجميع، وهو البحر، ووسيلته في الانتقال إلى الضفة الثانية كانت القوارب والسنابيق، وعمله الأول اتصل بالبحر، عمله الجسماني هو الذي عرَّف به عند الآخر.. استخدم علاقته العاطفية في تحقيق بعض حلمه، ومثل كثير في تناسخ الشخصيات المهاجرة في النص الأدبي عمل محارباً ضمن قوات المحور من أجل مدام جيوفاني الإيطالية في أسمرا، وقاتل في صفوف الحلفاء "الإنجليز والفرنسيين" من أجل عيون روزا في باريس: "التحقت بصفوف الفرنسيين والإنجليز ضد الألمان، ولكن من أجل ماذا؟ أمن أجل أن يعطوا بلادنا الحرية بعد أن ينتصروا؟ أم من أجل أفخاذ روزا؟ والحقيقة أفخاذ روزا"[289].

بين مدام جيوفاني الإيطالية، وروزا الإنجليزية، ستظهر منقوشة في قلبه، قبل ذراعه الحبشية (لئلت سهاي) أو (الشمس المتلألئة)، التي تعرّف عليها في بار، فصارت شمسه التي تغطيها الغيوم الدافئة، لهذا ذهب إلى أحد الوشَّامين (الدرداوي) لنقشها بالحديد والرنج على ساعده، لتبقى تذكاراً أبدياً، كتلك الندبة التي صنعتها امرأة إيطالية في أحد الموانئ على ساعد مهاجر يمني قبل أكثر من ستين عاماً[290].

غير أن ندبة الطليانية جيوفاني في حياة (أبو عزيز) هي الأعمق، فستعلمه الدرس الأول في ترشيد غريزته الجنسية، التي كانت تتشكل في الأصل "من

(288) نفسه ص 47.
(289) نفسه ص 95.
(290) الشيباني، محمد عبد الوهاب - الندبة الطليانية، منصة خيوط، 20 يوليو 2020 https://www.khuyut.com/blog/07-20-2020-06-10- صحيفة الشارع، 25 يوليو 2020، العدد 1298.

فهمه الأمي الساذج، وربما من زاوية الاعتقاد السائد بتفوق الفقير على الغني جنسياً، أو بتفوق الشرقي على الغربي في هذا المجال، إنه لا يستطيع أن يدرك أن الغرب هو أيضاً نظام حضاري لا تشي به صورة مبتورة"[291].

بعد تشرد كبير، عاد إلى صنعاء ليرى حلماً ظن أن جمهورية جديدة ستحققه على تراب الأرض المعزولة والمتخلفة، وبعد عودته، يعيش في فندق شعبي في قلب المدينة، ويكون قريباً من أحلام شبان يسعون للهجرة إلى بلد الجوار التي صارت حلماً للراغبين بالثراء في دولة النفط الريعية، التي غدت مستقراً جديداً للموجة الجديدة من المهاجرين، بدلاً عن المستقرات السابقة التي غادر إليها الآباء والأجداد في إفريقيا وآسيا وأوروبا، وإن كانت ستحمل قليلاً من أحلامهم، مثل حلم (عبده سعيد) في بناء أجمل دار في قريته، فمن خلال حوار بين اثنين من سكان الفندق الشعبي يستعدان للهجرة غير الشرعية للسعودية، يرصد الراوي التالي:

"بيت كأنه قصر من ثلاثة طوابق وبالأحجار الملوَّنة، يقع على أعلى قمة الجبل.. هكذا اختاره ليكون كالمنارة يتلاعب بعيون شابات القرية أكثر من الرجال"[292].

"وكعادة أي مهاجر عائد من غربة طويلة، يجد أبو عزيز متعة في حكي مغامراته وشبابه في الغربة، وقصته لا تختلف عن بقية المهاجرين العائدين من أمثال محمد مقبل، وعلي فنيتو، فقد أنفق حياته مع الإيطاليين، وتقلد أكثر من عشرين اسماً، وتطوع للقتال مع القوى المتصارعة في الحرب العالمية الثانية"[293].

---

(291) خصباك، عائد. خصوصية الموضوع في الرواية اليمنية، سابق، ص 61.
(292) مثنى، محمد. سابق، ص9،8.
(293) باقيس. سابق، ص 105.

الرواية تتنازعها سيرتان: الأولى سيرة الراوي "العليم" الذي يظهر بضمير المتكلم، لتصير سيرته مكملة لبعض من سيرة (أبو عزيز) حين يقبل أن يكون البديل لذلك الطفل الذي مات صغيراً بالحمى الخبيثة، دون أن يراه أبوه المهاجر.

"سأدعوك ولدي عزيز.. وقلت له أنا اسمي....، ولكنه وضع يده على فمي: لا يهم.. لا يهم، لا أضع للأسماء أهمية، فقد تسميت أنا بعشرين اسماً في الخارج بحيث أني لم أعد أعرف أياً منها أنا أكون.. ولهذا سأدعوك من اليوم ابني عزيز.. نعم ابني عزيز، لقد كان لي ولد أسميته عزيز مات من ثلاثين سنة، إذ لم يعش أكثر من خمس سنوات، دون أن أرى صورته.. أسميته عزيز بالمراسلة.. أما أنا فلم أعد أذكر يومها في أي صقع من أصقاع الأرض كنت، ولكنهم أخبروني، قالوا قتلته الحمَّى الخبيثة"[294].

المهم من سيرة الراوي أنه من أبناء الحديدة، وهو متخرج جديد من القاهرة، يصعد إلى صنعاء للتوظُّف في وزارة المواصلات، ويقيم في الفندق الشعبي "اللوكندة" التي يقيم فيها المهاجر السابق أبو عزيز، فتتطور العلاقة بينهما إلى درجة الصداقة الكبرى.

وبموازاة ذلك تتكشف سيرة المهاجر في ثنايا الحوارات الطويلة بين الاثنين حين يقول:

"أول ما وصلت على "سنبوق" (قارب) حططت رحالي بـ"مصوع"، واشتغلت في الصيد مع متقبّل صيد الأسماك للحكومة، ولكن مصوع بعد أشهر تركتها، لم تكن ضالتي المنشودة، ولذلك حططت رحالي في أسمرة، وعندما رأيت أرداف البنات الملونات والإيطاليات البيض، صرخت: يا ابن علوان

(294) مثنى، محمد. سابق، ص18،19.

نجني أو ارمِ بي إلى الجحيم، والحق ما كنت أنا الذي صرخت، ولكن الذي صرخ داخلي، وأصحّ الصحيح البركان الذي انفجر، وبعد أيام فقط اشتغلت في مصنع للكازوز صاحبه إيطالي من الشمال اسمه "كومبني جيوفاني"، وزوجته مدام جيوفاني من الجنوب، بيضاء ورقيقة كالمخمل، شابة وممتلئة بعينين كبيرتين كعيون البقر. قيل إنها أول ما جاءت مع الاحتلال الإيطالي صحبة زوجها كانت تتصرف بحشمة، ولكنها بعد أشهر انطلقت بتبرج وإباحية أذهلت زوجها الشمالي المتحرر.

كان أول ما رأتني أرفع عشرة صناديق على بعضها، وأسير بها في حوش "الفابريكة" إلى المخازن دونما اهتزاز، قالت "برافو" عندما رجعت لأحمل غيرها، وبعد يومين دعتني أمام زوجها، فرحت إليها جرياً. كانت تضحك عندما رأتني أجري ككلب أليف، وضعت أصابعها على ساعدي، وأخذت تضغط. كانت أصابعها رقيقة وناعمة كالقطن، بعد أن رفعت يدها كنت أحس لحظة اللمس كسائل شمعة في ساعدي، وبعد أن رفعتها شعرت بالشمعة تشتعل داخلي وتستقر في مكان ما من جسدي، ابتسمت ولامست أنفي، ثم قالت: "بونو.. بونو".

بعدها بأيام حضرت مدام جيوفاني إلى المصنع وطلبته، ثم تحدثت مع زوجها ببعض كلمات، فجاء مترجم حبشي وقال: ستصحب المدام إلى المنزل، وستدخل لها الكومادينو من الحوش للصالة. وصحبها إلى البيت، ووجد فعلاً الكومادينو الثقيل ينتظر ساعده، وبعد أن انتهى من عمله قدمت له كأساً باردة من البيرة وبعض قطع شكولاتة، ثم ودعته للباب الخارجي، بعد أن كانت الظنون قد فعلت به فعلها.

وحين أقامت بعدها حفلة في منزلها طلبته للمساعدة في خدمة الضيوف، "شربتُ بما فيه الكفاية.. لا أدري كم بلعت من الأصناف والكؤوس، وقدمت لي الشغالة قطعة كبيرة من اللحم الذي لم أكن قد رأيته، أحسست بعدها أنني أتحرك بطاقة ثور إسباني مدرب، ونار الجبال الجرانيت التي في القرية كلها تشتعل داخلي، أدركت الملعونة مدام جيوفاني كل ذلك بعد أن لسعتها مقدمة الجبال وفقدت السيطرة، فضحكت للضيوف، ورفعت صوت الموسيقى، ثم شبكت زوجها مع إحداهن في الرقص، ودعتني بهمس أن ألحق بها في الخارج، وفي الحديقة أخذت تتطلع إلى السماء والقمر والنجوم، وأنا كذلك معها، ولكن الذي في الأحشاء لم يطق صبراً فالتصق بها. كانت هذه أول ليلة في الهواء الطلق وتحت الأشجار والنجوم والسماء، كان العشب بارداً لكن النار مشتعلة"[295].

بعد عودته إلى صنعاء يظل يستجرُّ كل حكاياته مع الهجرة والتشرد، وفي أصدق لحظاته وهو ثمل "يرفع يده إلى فمه يقبلها: سامحني يا رب، إنني عبدك أبو عزيز.. وأنا مرزوق، وسالم، ونعمان، وحبيب.. أنا كل هذه عند مخاليقك الحبشيات، والإيطاليات، والفرنساويات، والإنجليز.. سامحني، لا لشيء عملته معهم من غير ما خلقتنا له، ولكن لانتحالي كل هذه الأسماء لغشهم. المسكينات تعلقن بأسماء وهمية لثلاثين سنة"[296].

"تصحيح وضع".. السياسة التي أعادت تعريف المغترب المقهور:

(1)

ما الذي جناه المغتربون اليمنيون في السعودية من حرب الخليج الثانية (90-91)؟ هو السؤال المحوري الذي تقارب تفاصيله رواية "تصحيح وضع"

(295) نفسه. ص 28 وما بعدها.
(296) نفسه، ص37.

للروائي والكاتب (أحمد زين)، حينما اتخذت من أحوال يمنيين طالتهم إجراءات الكفالة موضعاً للتناول السردي، بعد أن كانوا يحظون بامتيازات تقترب من المواطنة بفعل اتفاقات سياسية عقدتها الحكومتان اليمنية والسعودية، ابتداء من اتفاقية الطائف في العام 1934م. ومع هذا التبدل ستبرز إلى الواجهة الحالة الأكثر قسوة، وستختزلها الصورة البليغة للعودة، تظهر كاسترجاعات لامعة وحادة في ذهن الراوي المركزي:

"لاتزال الحافلات والشاحنات الكبيرة تمر في خيالي، تتمايل متباطئة. عفوش وبالات ملابس، دراجات هوائية، إطارات سيارات، أفرشة، حقائب، أدوات كهربائية، يشف عنها الزجاج أو نصف نافذة مفتوحة. عربات كثيرة تتلوى عبر طرق طويلة، سألمح داخلها وجوهاً لنساء تسرح بعيداً، مدسوسة في أغطية خفيفة سوداء، أو تتكئ سواعد مثنية قرب النوافذ؛ تفكر ربما بالحجرات الخالية، بالحوائط المستلقية بينها، بالطلاءات التي لطختها الذكريات يوماً بعد يوم. تلك البيوت التي لم يستطيعوا حملها كحقائب ويعودوا بها إلى بلادهم، تركوها خلفهم في بلاد الغربة التي لم يتصوروا يوماً الرحيل عنها هكذا ببساطة، حارس لا ينام على ظلالهم التي تنشب في لحم المكان"[297].

من كل المدن السعودية رحلوا، مثلما رحلوا قبل ذلك من الكويت، بعد اجتياح القوات العراقية لها مطلع أغسطس 1990م، "رحيل جماعي من الرياض، جدة، مكة المكرمة، الدمام، أبها، جيزان، المدينة المنورة، الطائف، رحلوا دون جلبة، وسط ضجيج الحرب المنتظرة، من كل المدن والأرياف"[298]، هذه الصورة التي ستلتصق برأس شائف، بعد أيام من قراءته

(297) زين، أحمد. تصحيح وضع (رواية) وزارة الثقافة، صنعاء 2004 - ص 10.
(298) نفسه ص 14.

لخبر، على صدر الصفحة الأولى للجريدة، نزل على قلبه كخنجر: "نحن لم نفعل شيئاً غير مساواتهم بالمقيمين الآخرين.. لكن ماذا عن التوقيت، أليس له علاقة بموقف حكومتهم من الغزو العراقي للكويت؟" كان هذا هو رد المسؤول الحكومي على أسئلة أحد الصحفيين.

أما الصورة التي سيكونون عليها بعد دخولهم أرض الوطن فإنها تتكثف على هذا النحو:

"على امتداد الشريط الأسود الضيق، الذي يعبر الطريق الوحيد المعبَّد والممتد من المنفذ الحدودي مروراً بحرض والقرى المنتشرة، إلى غير بعيد عن البحر وقريب من مدخل مدينة الحديدة، يمكن بوضوح رؤية تجمعات كبيرة من المغتربين العائدين. مغتربون بسطاء، بعضهم لأول مرة يدخل اليمن، ليس لهم منازل أو حتى أقرباء، في الخارج ولدوا وعاشوا طيلة تلك السنوات دون التفكير بالعودة ولو بهدف الزيارة، وبعضهم يعرف وطنه لكنه لم يفكر قط أن يبني فيه بيتاً ولو صغيراً"[299].

شائف، البطل المحوري في النص، بحار قديم، جاب العالم على ظهر السفينة "إفريقيا" التي غادرت ميناء الحديدة في نهايات الستينيات، وهو على ظهرها بعد أن وجد بعض ملاحي الباخرة في سوق شعبي بالحديدة، فعرضوا عليه العمل كعتَّال فوافق، ويتذكر من تلك اللحظة "عندما كانت قدماه تصعدان ببطء سلالم تلك السفينة القديمة، لم يكن يشغله شيء سوى أسرته، إخوانه وأمه، وفشل محاصيل الذرة في ريفه البعيد"[300].

(299) نفسه ص 62.
(300) نفسه ص15.

"قادته الصدفة للعمل ملاحاً يسافر في بحار مجهولة، والصدفة ذاتها ستلقيه فيما بعد على اليابسة في أحد بلدان النفط الخليجية"(301)، ليعمل في مهن كثيرة، فهو "بناء وملبِّس، ثم عامل في مصنع قديم للطوب، وأحياناً يقوم بتسليك بعض لمبات النيون، ومرات يشتغل بالسمسرة بين سائقي الجرافات ومقاولي البناء لحفر أساس البنايات الجديدة، حتى أصبح يعرف كل البيوت هنا بحجراتها، وممراتها، وجدرانها، وأحواشها، وسطوحها"(302).

مثل كثيرين غيره، أحداث أغسطس1990م، عصفت بأحوالهم في هذا البلد، فكان من العسير عليه ألَّا يذهب لاستلام حوالات يبعثها أخوه الأصغر المهاجر في أمريكا بالدولار، يقوم بدوره بتحويلها إلى ريالات من دكاكين الصرافة، في سوق البطحاء.

"يبدو نشيطاً، على الرغم من عشرات السنين التي تنام فوق كاهله؛ لكن إذا حاول أي شخص أن يخمِّن كم عمره فلن يستطيع، ملامحه كتومة وعصيَّة على الإفصاح"(303).

"بعد أزيد من عشر سنوات تجوالاً في البحار وبلاد الله الغريبة، وقبل أن يحط رحاله في هذه البلاد، عاد إلى اليمن، فقد تزوج من فتاة بسيطة، تمضي وقتها في زراعة وجني المحاصيل البائسة، نام معها مرات برغبة وحماس شديدين، ثم راحت تدريجياً تفتر رغبته ويتلاشى حماسه للارتباط فتركها وراءه"(304).

(301) نفسه ص8.
(302) نفسه ص14.
(303) نفسه ص14.
(304) نفسه ص17.

الحجة ملكية اليمنية بقيت تستقبل العائدين عن طريق التهريب بعد أن ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، الذي لم يكونوا يعرفونه إلا من حكايات الآباء. ساعدتها الظروف لتبقى دون ترحيل؛ لأن اثنين من أزواج بناتها كانا متجنسيْن، فكفل أحدهما الجدة، والثاني كفل زوج البنت الكبيرة، الذي لم يطل به العمر كثيراً، ومات مسلولاً بعد عامين من دخول قوات صدام إلى الكويت.

بقيت الجدة تحن على أولئك العائدين بطرق غير نظامية، وفتحت بيتها بحجراته الخمس لكل من يطرقه طالباً الاختفاء من دوريات الأمن والجوازات، حتى يتدبر أمره في الإقامة، وتفعل كل ذلك بطيب خاطر من موقع شعورها بمظلومية هؤلاء، وهي التي عانت قبلهم حينما كانت شابة ترعى الأغنام في جبال قريتها اليمنية.

(2)

شائف وسالم وقاسم وقبول في النص الروائي يختزلون حالة اليمنيين المقهورين، غير المصحَّح وضعهم القانوني، بعد أن فرضت قوانين الكفالة التي أصدرتها الحكومة السعودية أثناء حرب الخليج الثانية وبعدها.. "يعذبهم صوت أيوب طارش، يفتح باباً على جحيم غربتهم، ويتركهم مثل سكارى تتعتعهم خمرة رخيصة، يرددون صدى أغانيه كنحيب قاس وموحش"[305].

في ما مضى كانوا "يشربون الشاي بالحليب، ويدخنون المداعة، ويحكون عما فعلت بهم الحياة بعيداً عن الوطن، أو يتحسرون على زمن كانت فيه الجنسية تُعرض على كل من يريدها، وأن بعضهم لم يقبل يومها تبديل جنسيته؛ لأنهم ما توقعوا أبداً أن يزدهر ويتبدل كل شيء هنا"[306].

(305) نفسه ص16.
(306) نفسه ص17.

يبقى الأول (شائف) يتخفى حتى لا تطاله مداهمات رجال الشرطة، فيختار السفر مع المهربين إلى أمكنة لم يقررها سلفاً، في إسقاط رمزي لحالة المجهول في حياة اليمنيين، وحين يسأله سالم ذات مرة: لمَ لا تبحث عن كفيل؟ أجابه "سأعيش حراً ولو مطارداً، أو سأخرج حين تضيق الدنيا بي"(307).

والثاني سالم - الحفيد الأكبر للجدة - راوٍ مضمر، ولسان حال اليمنيين بتمزقهم الهوياتي، ولا يستطيع الإجابة عن سؤال الوطن والغربة، ولا يهزه هذا الانفعال؛ لأنه لا مسقط رأس له هناك.

الثالث قاسم، الذي يختزل حال اليمني الذي ظن أنه مواطن في بلاد عمَّرها مع جيلين من قبله، ليكتشف أن صلاحيته مثل صلاحية الوطن قد انتهت: "لم تعد هناك حاجة لنا.. الناس هنا تتطور، كل شيء تغير عدانا"(308).

قبول، ابنة مغتربين يمنيين، ولدت ونشأت في الشرقية، ومع الأحداث يقوم والدها ببيع المنزل الذي تملكه العائلة، ويغادرون إلى اليمن، لكنها تكتشف أنها غريبة في بلاد أبويها، وبعد أشهر من إقامة العائلة في الوطن، أو "العالم الذي يشيب فيه الناس مبكراً جداً، تذمر والداها من أن المال يسيل من بين أيديهما، دون القدرة على فعل شيء تتأكد فائدته في ما بعد.. فشلت مشاريعهم، وذابت ثروتهم الصغيرة.. أعيت أباها كل الطرق في أن يجد ما يتعامل به بأمان مع أهله وناسه، من غير أن يكون مضطراً لإخراج المزيد من النقود، وفجأة قرروا الرحيل، العودة العكسية"(309).

يجيء في سياق نصي عن حال هؤلاء الممزقين أنهم سيظلون هكذا ربما إلى الأبد، لكنهم حالمون كبار، مجرد حالمين، ليس بحياة جميلة وإنما باجتياز

(307) نفسه ص15.
(308) نفسه ص94.
(309) نفسه ص23 - 24.

الحدود والتسلل إلى السواحل القريبة بمراوغة العسكر، بخداعهم تنكراً في ملابس نساء، بالمشي لمسافات طويلة، بالمبيت في الخبوت، حتى يتمكنوا من العودة إلى جحيم أصغر في بلاد يعرفونها، وكانت حاضنة لأحلامهم، تاركين جحيماً أكبر في وطن لا يعرفونه، أو هكذا يتهيأ لهم.

الخاتمة

جملة استنتاجات خلصت إليها الدراسة، ونجملها في تسع فقرات:

(1) المنتج الأدبي المعاصر في اليمن، خاض في موضوع الهجرة من منطلق متلازمة الأدب بأسئلة المجتمع الحيوية، ومنها أسئلة الهجرة والاغتراب. لهذا يمكننا القول إن مقاربة الكتابة الأدبية لموضوع الهجرة لم تكن ترفاً نخبوياً، بل معاينة واضحة لقضية مجتمعية لعبت دوراً مهماً في تاريخ اليمنيين الطويل.

(2) من جملة الأعمال المدروسة في هذه الدراسة، التي تبلغ اثني عشر عملاً، شكلت الرواية القوام الأهم في ذلك بنسبة تزيد عن 65%؛ لأن الكتابة السردية والروائية، على وجه الخصوص، من أكثر الفنون تطويعاً لقراءة الأشياء المنظورة وغير المنظورة، وقدرتها على الإحاطة بتفاصيل دقيقة في حياة الناس وتموضعاتهم في الأمكنة؛ وفي النصوص المحللة رأينا كيف استطاعت الرواية الإحاطة بهذه العوالم، بتجلياتها المختلفة في حياة المهاجرين.

تعددت موضوعات الرواية في اليمن، التي أراد كثير من الأدباء معاينتها في سياق وعي التحول، لهذا كان موضوع الهجرة حاضراً وبقوة في هذا النوع من الكتابة بوصفه- أي الموضوع- تعبيراً عن حالة ثقافية واجتماعية واقتصادية كان ولم يزل المجتمع اليمني يتنفس تفاصيلها، وصارت ملمحاً حياتياً، يحضر - تقريباً- في كل أسرة وبيت في الريف والمدينة. كل أسرة لديها مهاجرون ومغتربون فرضت عليهم الظروف الصعبة ترك الداخل إلى خارج يؤمَّلُ فيه حلٌّ لمشاكل الأسر والأفراد من خلال خيار الهجرة والاغتراب.

الأعمال الروائية المدروسة قدمت صورة بانورامية لشتات المهاجرين اليمنيين في جنوب شرق آسيا، وإفريقيا، وأمريكا، وبريطانيا، والسعودية، وتتبعت ترحالات بعض المهاجرين إلى أستراليا والكاريبي، وصورت أزمنة الهجرة من بداية القرن العشرين حتى آخره.

(3) أظهرت الدراسة مستويات متعددة من الريادة، كان أبرزها الريادة الجمالية في نموذجين: الأول في النص الروائي "يموتون غرباء" لمحمد عبد الولي، والثاني في النص الشعري "الغريب" عند محمد أنعم غالب، وريادة زمنية في رواية "فتاة قاروت" لأحمد عبد الله السقاف، وتأثيرات هذه الأعمال على لاحقيها واضحة، غير أن أشدها وضوحاً كان تأثير نص "الغريب" على نصوص شعرية وسردية أتت بعده. فقد ظهر تأثيره عند محمد عبد الولي، وتحديداً في شخصية محمد مقبل المهاجر القديم في رواية "صنعاء مدينة مفتوحة"، الذي يعمل في أكثر المهن، ومنها مهنة المحارب، ويطوف الكثير من البلدان، غير أن حنينه سيظل مرتبطاً أيضاً بموطنه، وتأثيره في نص "ربيع الجبال"، بامتهان "حزام سيف طربوش" لمهنة الحرب أولاً ضمن قوات المحور، وتالياً ضمن قوات الحلفاء.

(4) هناك أعمال سردية وشعرية يمنية انغمست في موضوع الهجرة و"الاغتراب"، لكنها لم تدخل في الدراسة على أهميتها لأسباب فنية أكثر ما هي شيء آخر، ومنها أن النماذج التي اقترحتها للقراءة في الخطة لم تشكل سوى النصف مما تمت قراءته فعلاً، وإن الإضافة إليها ستشكل تكراراً غير مبرر، وقد يصير عبئاً فنياً على الدراسة، لهذا اكتفيت بما تم التنويه إليه في دراسات ومعاينات نقدية وإحصائية، ومن تلك الأعمال "حصان العربة" لعلي محمد عبده التي تعاين مجتمع المهاجرين اليمنيين

في المستعمرة عدن، وله غير حصان العربة رواية "مذكرات عامل"، وتطرق هي الأخرى موضوع هجرة الأطفال وتأثيراتها المباشرة في إعادة تكوين هذه الشخصيات داخل إطار المسؤولية الاجتماعية المبكرة.

أيضاً رواية "الإبحار على متن حسناء" لحسين سالم باصديق، يجد القارئ اشتغالاً رفيعاً على موضوع الهجرة من زاوية ثنائية الريف والمدينة التي تتموضع خارج سياق الثنائية الشائعة "الأنا والآخر"، فالريف حين تركه المهاجر، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، لن يحتفي به وهو العائد من الغرب بهيلمانه؛ لأن الريف ذاته قد تغير تماماً بفعل تحولات ما بعد ثورة أكتوبر، التي تصير في هذا العمل رمزاً تبشيرياً بمحمول أيديولوجي.

الأمر كذلك مع تحليل رواية "الميناء القديم" لمحمود صغيري، حيث المهاجر البحري القديم الحكَّاء (علي فنيتو)، الذي يعود إلى الحديدة ويمارس الكثير من المهن الجديدة التي اكتسبها من عمله مع الطليان على مراكبهم في البحر، على الرغم من استفادة الباحث من بعض ثيمات النص حين قارب موضوع السمات العامة لنص الهجرة.

في الشعر، اضطررتُ إلى إهمال دراسة بعض نصوص الشاعر الكبير (حسين أبوبكر المحضار) التي انصرفت لمعاينة موضوع الهجرة؛ لأن دراسات أخرى في المشروع قامت على دراسة موضوع الهجرة والاغتراب في الأغنية وتأثير الفن والفنانين اليمنيين في بلدان المهجر، وكان للمحضار إسهامه الكبير في هذا المضمار.

(5) الهجرة التي كانت حلاً لليمنيين، الذين تركوا وطنهم لأسباب متعددة كما حاولنا إظهار ذلك في مواضع مختلفة في هذه الدراسة، صارت في ذات

الوقت فعلاً مداناً من داخلها، أما الصوت الذي امتلك الجرأة في إدانتها متعدد ومتنوع.. صحيح أنه صوت مستنبت في حدود التخييل الأدبي، وأعادت مخيلات الكتَّاب هندسته ليؤدي دوره الاحتجاجي بمشغلات أيديولوجية وثقافية متباينة، لكنه بالتأكيد تظهَّر كسمة من سمات الهجرة نفسها وإفرازاتها.

هذا الاحتجاج سيجيء في النصوص الأدبية على هيئة حوار بين شخصيتين في الغالب، أو على هيئة تداعيات ومنولوجات داخلية في لحظة حزن تنتاب واحدة من الشخصيات، أو هي طريقة تعليلية في وصف الحالة. ستكشف عنها امرأة منهدمة، أو شاب مولد في أديس أبابا، أو شيخ أمي في جاوة، أو مهاجر يمني في متشجن. سيلخصها مهاجر فنان سيُتّهمُ بالجنون لأنه كان يرسم التجار المتوحشين بسخرية حادة، أو ابنة مهاجر فقير مات في إحدى قرى الحبشة فترك طفلة ضائعة لم تجد غير مهنة الدعارة لتقتات منها، أو بدوي جمَّال من وادي دوعن في حضرموت فقد والده المهاجر في سنغافورة في ذروة الحرب العالمية الثانية، أو في ذروة وحشة الموت في متشجن.

(6) لكل مهاجر في النص الأدبي بالضرورة ماضٍ يضغط عليه في هجرته. هذا الماضي يصير ثقيلاً مثل صخرة أسطورية تارة، أو مثل طيفٍ يُراد استعادته في صورة مثال مُدمِّر، أو أحلام تتبخر بعد أن تكون في متناول اليد، وكل هذا الماضي في تحققاته المتعددة يصير حملاً ثقيلاً على ظهور حامليه من المهاجرين الأشقياء.

النموذج الأول، يمكن تمثيله بعقدة اللون وماضي العبودية عند "سالمين" في رواية عمار باطويل، التي تحمل ذات الاسم. فهذا المهاجر

يجد نفسه عبداً أسود لا يعرف عن أبويه شيئاً، وبعد سنين طويلة يعرف من ابن مالكه أن والده اشتراه من أحد أسواق وادي حجر مقابل ثور، وسالمين "العبد حالته كحالة الكثير من العبيد في حضرموت الذين لا يعرفون آباءهم أو أمهاتهم، فمن تم بيعه في السوق وهو صغير، وأمه وأبوه بيعا في مكان آخر في حضرموت أو البلدان الأخرى المجاورة، والبعض منهم تم اختطافهم وهم صغار لا يعرفون شيئاً عن حياتهم، ويتم بيعهم في أسواق العبيد، بعيداً عن مكان اختطافهم". وخلال سنوات طوال ظل سالمين يقوم بخدمة الأب وعائلته، من الاهتمام بالنخيل، وحرث الأرض، ونقل الماء من العيون البعيدة، وحين اتخذ الابن قراره بالهجرة إلى مدينة جدة، بعد مقتل أبيه في سنغافورة، يأخذه معه، بعد إلحاح من سالمين نفسه، وهناك يتحرر شكلاً من عبوديته بحكم الظرف الجديد، لكنه يظل في قرارة نفسه عبداً للعائلة، حتى بعد أن قام المالك بشراء جنسية سعودية له بمليون ريال، أيضاً تحوله في ظرف أعوام إلى رجل أعمال كبير، وتزوجه من امرأة تخالفه في اللون لم يخلصه من ماضيه العبودي، أو الإحساس به على الأقل.

النموذج الثاني، ما يمثله ناجي في رواية (طيف ولاية) حين ظل يطارد طيف أول امرأة تعلق بها، وهي ابنة بائعة الخبز في مدينة تعز التي كانت تكبره بسنوات، فحاول إيجاد مثالها المنقوش في وعيه الباطن، في النساء الكثيرات اللواتي تزوجهن في المرافئ والمدن العديدة التي هاجر إليها. يعمل في كل المهن، ويسافر كل القارات، ويجمع مالاً كان يؤمل أن يعيش به مع والدته. غير أن زواجه من فتاة إنجليزية في مدينة ليفربول تدعى (إميللي) قبل سفره النهائي إلى اليمن، التي تستغل أميته، وحبه الجارف

لها؛ كونها الأكثر شبهاً بولاية، لتجرده من كل ما يملك. لكنه يعود من جديد للكد، وحين يعود إلى اليمن سيكتشف وهمه في مطاردة الطيف.

النموذج الثالث، يُختزل في دافع عبده سعيد في رواية "يموتون غرباء" إلى الهجرة، وهو بناء مسكن جميل وتجميع قليل من الثروة، وحين تتحقق هذه الأمنيات من شقائه في الهجرة لا يستطيع أن ينعم بها بسبب موته اختناقاً داخل دكانته البائسة بأحد أحياء أديس أبابا، في دلالة على أن الهجرة التي كانت لتحقيق حلم ما صارت هي القاتل لهذا الحلم.

(7) التفتت بعض الأعمال السردية اليمنية التي عُنيت بالهجرة إلى معضلة اجتماعية كانت سائدة حتى الستينيات من القرن العشرين، وهي مشكلة العبودية. وإن عملين من جملة الأعمال المدروسة قاربت المشكلة في حالتين، الأولى رواية (سالمين) للكاتب عمار باطويل، وتتبع فيها حالة المُسترقّ القديم الذي انتقل مع مالكه إلى مدينة جدة بعد النصف الثاني من الأربعينيات، ورصد كل التغيرات التي طرأت على طريقة تفكيره وحياته في المجتمع الجديد، والثانية رواية "قرية البتول" للكاتب محمد حنيبر، وفيها أفرد مساحة لتقوُّلات المُسترَقّ مبروك المملوك لتاجر الحضرمي في بورتسودان.

المقتربات والتشابهات التي تتيحها القراءة تقول إن مالكي العبدين هما تاجران من حضرموت، ويعيشان في ذات الفترة المتقاربة، وهناك عبدان بذات اللون الأول استملكه رب العائلة الذي يعمل بالتجارة في جنوب شرق آسيا، وأبقاه في مسكن العائلة في الوادي لخدمتهم، وتالياً صار جزءاً من ميراث الابن الذي هاجر إلى مدينة جدة في السعودية، على الضفة الشرقية من البحر الأحمر، والثاني اشتراه، من السعودية، تاجر حضرمي يزاول

مهنته في مدينة بورتسودان على الضفة الأخرى من ذات البحر، ولهما نفس الخصائص للتسمية، غير أن ثقافة كل واحد منهما تختلف كلية عن ثقافة الآخر. فمسترقُّ التاجر باعبود، أكثر وعياً بكينونته، وله فلسفته الناقدة للنص وظاهرة العبودية بشكل عام. أما المسترق (سالمين) فمتشبع بعقدة اللون والتاريخ، فيعمل بكل الوسائل لتجاوزهما، كمحمول ثقيل ومؤلم، بواسطة ثروته الطائلة التي راكمها من عمله في التجارة في مدينة جدة، في بداية تشكلها كجغرافية نفطية.

(8) ثمة تمثيلات رئيسة للهجرة وسماتها في النص الأدبي المعاصر على نحو:

- البحر بصفته الثيمة الأبرز للهجرة، إما بوصفه ممراً لانتقال المهاجر من مكان لآخر، أو لكونه مكاناً للعمل، فأغلب المهاجرين في النصوص ركبوا البحر، أو عملوا على ظهر السفن فيه لالتقاط أرزاقهم كبحارة في الغالب، ونادراً كصيادين.
- الأمية التي كانت العنوان الواضح في التكوين المعرفي لمعظم المهاجرين في النصوص الأدبية، تظهر هنا كسمة من سمات الهجرة. غير أن الأميين استطاعوا تحويل هذه النقيصة إلى ميزة من خلال اكتسابهم مهارات ومعارف ودراية بالبلدان وثقافات الشعوب الأخرى، التي يعيدون إنتاجها بواسطة الحكايات التي يروونها عن أنفسهم، أو ما سيرويه غيرهم عنهم.
- الحُلم، فكل مهاجر كان له حلمه الذي يريد تحقيقه من وراء تركه لوطنه وأهله، وقد لا تتحقق مثل هذه الأحلام عند الكثيرين، لكنها ظلت هاجساً كبيراً يحرك رغباتهم في المقاومة والحياة، مثل العودة لأرض الوطن

للاستقرار، أو تكوين ثروات لتجاوز الفقر، أو العودة لخدمته من مواقع قادرة على خلق عملية التحول في المجتمع.

- عدن المُهاجَر إليها، ظلت هي الوجهة المرغوبة ودار الهجرة الأولى لأهل الريف اليمني في الشمال والجنوب الباحثين عن حياة أفضل، خلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، فتتكشف عدن كسمة، مكانية وجغرافية، من سمات الهجرة في النص الأدبي، وأدت دوراً مهماً في مسألة الوعي بالهجرة.
- الماضي في سيرة المهاجرين يصير سمة واضحة من سمات الهجرة أيضاً، ويراد إما التخلص منه بمحاولة المهاجر التموضع خارج نسقه المؤلم، أو استدعاؤه كطيف جميل يُراد استعادته من خلال المثال، أو حلم كان في متناول اليدين قبل أن يتبخَّر.

(9) هناك ما يتوجب قوله عن بعض الأعمال المدروسة وعلى نحو:

من أعمال (زيد مطيع دماج) القصصية في مجموعاته الخمس استطعنا مقاربة أربعة نصوص، اتخذت من موضوع الهجرة منطلقات للكتابة والمعالجات الجمالية، في سياق تجربة قصصية غنية، أقل ما يمكن القول عنها إنها "تعكس اعتراضاته على السائد من قيم متوارثة، جهلاً وتقليداً، في ظل تغييب الوعي داخل المجتمع، كمظهر للتخلف الذي بني على أساسه النظام والقوى التي تحكمت بالسلطة في اليمن قبل قيام الجمهورية".

الرواية العتيقة "قرية البتول" واحدة من دعامات الدراسة؛ كون موضوعها المركزي طرق أسباب الهجرة عند شخصيات العمل بكثير من المباشرة والقوة، شخصيات عديدة، ولكنها جميعاً قريبة من بعضها، متماثلة في وضعها، فجميعها لا تقرأ ولا تكتب.. كما أنها تنتمي إلى

الريف، ولأنهم فلاحون أو عمال زراعة يعملون في المواسم فإنهم جميعاً من الفقراء.

عن الهجرة الجديدة والعبودية تتبَّعنا في رواية عمار باطويل المسماة "سالمين" حالات اندماج الشخصيات الرئيسة في مجتمع مدينة جدة الجديد، رغم ماضي العبودية الذي يثقل كاهل سالمين، والذي يظل كابوساً طويلاً ينقضُّ على مناماته، ويريد التخلص من هذا التاريخ بالانتقام بالتموضع خارج إرثه وما يشير إليه باللون والصفة. في "طيف ولاية" للكاتبة عزيزة عبدالله تتبعنا ترحالات المهاجر "ناجي" في رحلة البحث عمن تسبب بشقاء عائلته، وعاد محملاً بالخيبات الكبرى، مسترشداً بطيف حبيبته ولاية، لكن محمولات العمل وترميزاته تعيد إلى فضاء القراءة استشكالات ثنائية الأنا والآخر.

المجتمع الأمريكي في حياة المهاجرين اليمنيين كان حاضراً في قراءة موضوع الهجرة الجديدة بواسطة المجموعة القصصية لعبد الناصر مجلي، المعنونة بـ"أشياء خاصة"، وتالياً في روايته "رجال الثلج"، وتصير كموضوع للدرس عبارة عن استغراق طويل في تقابلات الداخل بالخارج، فالداخل يتحول إلى حنين جارف وبكاء وعويل من أول معاينة له من خارجه الجغرافي - موطن الإقامة الجديد- والذي يُشَّد إليه الرحال هرباً من جحيم الأول، فيتحول الخارج إلى جحيم مضاعف لا يُستطاع التعايش معه حين يصير عنواناً للموت، وبوابةً للجحيم.

وأخيراً، وجدنا في النص المسرحي لعبد الكريم السوسوة "المغترب التائه" ما يمكن الاعتماد عليه، كحالة جديدة للمعاينة والفحص، وقيمته تكمن في ندرة موضوعه، فلم أجد في مرحلة إعداد وكتابة الدراسة نصاً

مسرحياً يُعنى بموضوع الهجرة اليمنية المعاصرة. لهذا غدا النص عينة تمثيلية تستوجب مقاربتها في دراستنا هذه التي تعنى بالهجرة والمهاجرين في أدب اليمن المعاصر. والحديث عن هذا النص لن يكون إلا في حدود اقترابه التوثيقي من الموضوع الذي ندرسه، ولن تركِّز القراءة على جوانبه الفنية والجمالية إلا بما تمليه ضرورة المقاربات النصية.

وأن الهجرة كمشكلة اجتماعية واقتصادية بتموضعها الزمني، خلال القرن العشرين، اجتذبت للكتابة عنها أدباء معاصرين يستلهمون من الأدب الجديد أدواته التعبيرية وتقنياته الكتابية، وأن أدباء عديدين صارت كتاباتهم عن الهجرة بوابة تعريف بهم. نقد الهجرة من داخلها بواسطة الشخصيات الأدبية في النصوص هي في الأصل موقف الأدباء من الهجرة، والتنوع في اختيار النصوص المدروسة أدى إلى تعدد في مواطن الهجرة في شرق آسيا، وإفريقيا، والسعودية، وأمريكا، وأوروبا.

قائمة المراجع والمصادر

أولاً: المراجع:

1- إبراهيم، د. عبدالحميد - القصة اليمنية المعاصرة- دار العودة بيروت، ودار الكلمة، صنعاء، ط1، 1977م.

2- أبوبكر، د. صالح أبوبكر بن الشيخ، تريم بوابة الفكر القومي العربي إلى اليمن، علي عقيل بن يحيى رائداً، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا ، ط1، 2020م.

3- الأغبري، أحمد- أجنحة الكلام وفضاء الأسئلة مقاربات يمنية، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى المزيدة، 2021م.

4- البردوني، عبدالله - فنون الأدب الشعبي في اليمن- دار البارودي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1998م.

5- الجناحي، سعيد أحمد- أوائل المغتربين وحكايات العبور إلى الوطن- مركز الأمل للدراسات والصحافة والنشر، صنعاء، ط1، 2002م.

6- الحسامي، د. عبدالحميد سيف أحمد- التحول الاجتماعي في اليمن من خلال الفن القصصي- مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز، 2009م.

7- الراوي، د. مصطفى ساجد- مرايا الصوت الآتي- دراسات في القص اليمني المعاصر، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ومركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط1، 2004م.

8- السقاف، د أبوبكر - كتابات "1"، مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر والإعلان، عدن، 1981م.

9- الشيباني، محمد عبدالوهاب- الحرب حين تعيد إنتاج صيغ أخرى للهامش- مجلة نزوى العمانية، العدد 102، إبريل 2020م.
10- الشيباني، محمد عبدالوهاب – الخلاص بعكاكيز هشة، صحيفة الثوري، العدد 1899، فبراير 2006م.
11- الشيباني، محمد عبدالوهاب – عدن الإنجليزية تتشظى في مرآة الواقع، جريدة الشرق الأوسط، 1 يونيو 2015
12- الشيباني، محمدعبدالوهاب- الندبة الطليانية، منصة خيوط، 20 يوليو 2020م. https://www.khuyut.com/blog/07-20-2020-06-10- صحيفة الشارع، 25 يوليو 2020، العدد 1298.
13- المقالح، د. عبد العزيز - من البيت إلى القصيدة دراسة في شعر اليمن الجديد - دار الآداب، بيروت، 1983م.
14- القصير، د أحمد- الهجرة والتحول في اليمن، 1990م.
15- المؤلفون، مجموعة من- الرواية العربية "ممكنات السرد"، أعمال الندوة الرئيسة لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، ديسمبر 2004م. ج 2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009م.
16- المؤلفون، مجموعة من- النقاد يصنعون موجة للبحر- أوراق مهرجان صنعاء الرابع للقصة والرواية – نادي القصة، واتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، صنعاء، 2008م.
17- المؤلفون، مجموعة من - زيد مطيع دماج دراسات وقراءات نقدية- أوراق ندوة "سيرة حافلة بالإبداع"، يوليو 2009م، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ط1، 2009م.

18- المؤلفون، مجموعة من- دراسات يمنية في الهجرة والاغتراب – كتاب مجلة الثوابت، 15 مايو 1999م.
19- الوريث، إسماعيل بن محمد - تطواف – دراسات أدبية وفكرية مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء، د. ت.
20- باقيس، د. عبد الحكيم محمد صالح- ثمانون عاماً من الرواية في اليمن- قراءة في تاريخية تشكل الخطاب الروائي اليمني وتحولاته، دار جامعة عدن، ط1، 2014م.
21- بن عقيل، بدر جعفر- الهجرة والاغتراب في الشعر اليمني - وزارة شئون المغتربين، مارس 2001م.
22- خصباك، د. عائد - خصوصية الموضوع في الرواية اليمنية - مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، 1999م.
23- رومية، د. وهب – مشكلة الهجرة في أعمال محمد عبد الولي – مجلة اليمن الجديد، العدد 6 للعام 1987م.
24- زيد، د. علي محمد - الثقافة الجمهورية في اليمن، مؤسسة أروقة، القاهرة، 2020م.
25- زيد، د علي محمد - تحولات المكان "رواية"، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ط/1 2005م.
26- سيف، عبد الودود - محمد أنعم غالب شاعراً- الناشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط1، 2009م.
27- صبرة، وهبية- البنية الروائية في "يموتون غرباء" لمحمد عبد الولي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط1، 2002م.

28- عمشوش، د. مسعود- الحضارم في الأرخبيل الهندي- دار جامعة عدن، ط1، 2006م.
29- عمشوش، د. مسعود- الرواية في حضرموت في تسعين عاماً– دار جامعة عدن، ط1، 2018م.
30- علوان، عبدالله- القصة اليمنية الموقف والأسلوب "دراسة نقدية"، مطابع دائرة التوجيه المعنوي، ط1، 2010م.
31- علي، هشام- الخطاب الروائي في اليمن - مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، 1996م.
32- علي، هشام - السرد والتاريخ في كتابات زيد مطيع دماج- مركز عبادي للدراسات والنشر- ط 1 -2000م.
33- علي، هشام- خربشات على جبل شمسان - مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1، 2010م.
34- قحطان، د. عبدالرحيم- القصة في القصيدة المعاصرة في اليمن - مطابع تعز الحديثة، د.ت.
35- مانزوني، رينزو - اليمن... رحلة إلى صنعاء 1877 - 1878م، الصندوق الاجتماعي للتنمية، 2011م.
36- موسوعة شعر الغناء اليمني في القرن العشرين، الجزء العاشر، الطبعة الأولى 2005م، دائرة التوجيه المعنوي، صنعاء.

ثانياً: المصادر:

1- يموتون غرباء، رواية، محمد أحمد عبد الولي، دار الكلمة، صنعاء، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية 1978م.

2- الميناء القديم – رواية – محمود صغيري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1978م.
3- قرية البتول – رواية – محمد حنيبر – عالم الكتب، القاهرة 1979م.
4- عبد الناصر مجلي – الأعمال القصصية 2005/1989م، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء- ط1، 2008م.
5- محمد أحمد عبد الولي – الأعمال الكاملة – الهيئة العامة للكتاب، صنعاء 2012م.
6- فتاة قاروت - رواية – أحمد عبدالله السقاف، منشورات نادي القصة 2017م.
7- غريب على الطريق – مجموعة شعرية – محمد أنعم غالب – مؤسسة الميثاق للطباعة والنشر، صنعاء، ط 2، 2009م.
8- راكب الموجة، المغترب التائه- مسرحيتان، عبدالكريم عبدالله السوسوة، مركز عبادي للدراسات والنشر- ط1 2001م.
9- زيد مطيع دماج - الأعمال القصصية الكاملة – وزارة الثقافة، صنعاء، ط1، 2010م.
10- سالمين "رواية" - عمار باطويل، صادرة عن دار فضاءات للنشر والتوزيع –الأردن- عام 2015م.
11- طيف ولاية "رواية" – عزيزة عبد الله – دائرة التوجيه المعنوي للقوات المسلحة، صنعاء، د. ت.
12- رجال الثلج "رواية" – عبد الناصر مجلي – مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء 2009م.
13- ستيمر بوينت "رواية" – أحمد زين - دار التنوير، بيروت 2015م.

14- بخور عدني "رواية "- علي المقري – دار الساقي، بيروت 2014م.

ثالثاً: الدوريات والصحف:

1- مجلة الثقافة – شهرية تصدر عن وزارة الثقافة، صنعاء، العدد 113 مايو، 2013م.

2- مجلة اليمن الجديد - شهرية ثقافية جامعة، تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة - الجمهورية العربية اليمنية، العدد السادس، يونيو 1987م.

3- مجلة نزوى، فصلية، العدد 102، إبريل 2020م، النسخة الإلكترونية.

4- صحيفة الثوري – لسان حال الحزب الاشتراكي اليمني، الخميس.

5- صحيفة الثورة، صنعاء، عدد 3 فبراير 2020م، الموقع الإلكتروني.

6- جريدة الجزيرة السعودية، عدد 2014/04/19م.

7 - جريدة الجريدة السودانية، 14 ديسمبر2019م.

8- رأي اليوم، 4 أغسطس 2019م.

9- حضرموت الثقافية، السنة الأولى، العدد 2 أكتوبر ديسمبر، 2016م.

10- جريدة الشرق الأوسط، 1 يونيو 2015م.

11- صحيفة الشارع، 25 يوليو 2020م. العدد 1298.

رابعاً: الشبكة العنكبوتية للمعلومات الإلكترونية:

1- ويكيبيديا ar.wikipedia.org › wiki

2- منصة آوان الإلكترونية

3- موقع الرواية نت رابط -http://hystricomorphous67.rssing.com/chan 64186847/all_p46.html

4- منتديات ستار تايمز، 22 يناير 2008

https://www.startimes.com/?t=7910114

5- عدن تايم

6- المدن - جريدة إلكترونية مستقلة، الخميس 2015/01/01م.
https://www.almodon.com/culture/2015/1/1

7- موقع خبرني، 14 يونيو 2010 https://www.khaberni.com/news

8- الاشتراكي نت، 1 يونيو 2015
http://aleshteraky.com/hegac/item/5303-lciej-bhifc-ah-fif-clahc-jalfq-adbajhh-badcfhd-ai-ela%D8%A1-rhfi-cnfg-adhgj

9- منصة خيوط، 20 يوليو 2020 https://www.khuyut.com/blog/07-20- 2020-06-

10- موقع الباحث العربي http://namen.lessan.org/all.jsp?term

الهجرة والاغتراب في الغناء اليمني

أ. محمد سلطان اليوسفي (*)

(*) كاتب وأديب.

تمهيد:

تحتل قضية الهجرة والاغتراب مساحة واسعة في الإنتاج الأدبي والغنائي في اليمن على مر العصور، ونلاحظ ذلك جلياً في الكثير من الأعمال الأدبية والفنية، لاسيما تلك الأعمال التي صدرت مُنْذُ خمسينيات وستينيات القرن المنصرم، سواء الأعمال السردية القصصية والروائية، أو الأعمال الشعرية والغنائية.

وبما أن الإنسان اليمني عبر التاريخ عُرف بكثرة سفره وهجرته، فلا شك في أنه عبّر عن مكنونات نفسه وحنينه إلى الديار، وشوقه إلى الأهل والأحبة، ولا شك أيضاً في أن غيابه ترك أثراً في نفوس أهله ومحبيه، وأذكى في قلوبهم جذوة الحنين ولواعج الاشتياق، "وقد كان اليمني مُنْذُ القدم ولوعاً بالرحيل: إما فاتحاً، أو باحثاً عن وجود، أو مستزيداً من معرفة، أو ملتمساً لنجاة"[1]، وخلال حله وترحاله ناجى الطير وتمنى أن يحمله على جناحيه إلى أرضه وديارة:

بـــالله عليـــك يـــا طيـــر يـــا رمـــادي

افـــرد جنـــاح وردنـــي بـــلادي[2].

وتوسل الطيرَ أن يبلغ سلامه لأهله وأحبابه:

يـــا طيـــر يـــا ناشـــر بضـــوء بـــاكر

أوحشـــت بالفرقـــة غصـــون الاشـــجار

إن كنـــت إلـــى صـــنعا الـــيمن مســـافر

فبـــــالنبي والصـــــالحين الاخيـــــار

أن تبلـــغ الأحبـــاب ســـلام عـــاطر

(1) (فنون الأدب الشعبي)، عبدالله البردوني، ص280.
(2) من أغاني الفنان محمد مرشد ناجي ـ كلمات الشاعر د. سعيد الشيباني.

منـــــا وعنـــــا خصُّـــــهم بأخبـــــار[3].

كما خاطب الريح أن يصف حاله وما حلّ به في بعده عن الأحباب:

بـــــالله عليـــــك يـــــا ريـــــحْ
أمانـــــه إن تيســـــر لـــــك رجـــــوعْ
لمـــــــح لهـــــــم تلمـــــــيحْ
بمـــا شـــاهدت مـــن فـــيض الـــدموعْ.

"وإنسان اليوم هو الإنسان مُنْذُ بدء الخليقة، رغم بعد المسافة الزمنية، ورغم التغيرات الاجتماعية، والتطورات التاريخية عبر العصور، فهو في كافة الأحوال الحياتية محتاج تلقائياً إلى الغناء، فهو إن شق الجبل بأظافره، أو بواسطة (كَسّارة) حديثة يُغنِّي، أو رحل على مركوبته أو على قطار حديث لمسافة طويلة يُغَنِّي، والإنسان إن أحب على حجاب تطل منه العيون التي في طرفها حور ـ على رأي جرير ـ ، أو على سفور يبرز مفاتن الجسد الغض يغني. فالغناء، إجمالاً للإنسان، هو المتنفس لآلامه وأحزانه وأفراحه وأتراحه التي لا نداحة من وجودها ومصادفتها في مسيرة الحياة، ونغم محرك ومنشط في عمله، ومنعش لذهنه وكافة حواسه، وعامل رئيسي في نشوته وألوان رقصاته"[4].

وقد تطورت أغاني الهجرة والاغتراب ومرت بمراحل، وواكبت تطور وسائل المواصلات، ابتداءً من الجِمال والسفينة إلى السيارة والطائرة، ثم تطورت أيضاً بفعل وسائل التواصل، ابتداءً من الوسائل التقليدية، وصولاً إلى وسائل التواصل الحديثة، ووظفت الأغنية كل هذه الوسائل.

---

(3) (ديوان عبدالرحمن بن يحيى الآنسي، ترجيع الأطيار بمراقص الأشعار)، تحقيق كلٍّ من: عبدالرحمن بن يحيى الإرياني ـ عبدالله عبدالإله الأغبري ـ دار العودة، بيروت ـ صـ 326. اشتهرت الأغنية بصوت الفنان الراحل علي بن علي الآنسي.

(4) (الغناء اليمني القديم ومشاهيره)، محمد مرشد ناجي، صـ17 ـ الطبعة الأولى 1983م.

والأغنيات التي تناولت قضية الهجرة كثيرة، وليس من السهل الإحاطة بكل ما غُني عن الهجرة والاغتراب، ولكن حاولنا أن نقف مع أبرز ما قُدم في هذا المضمار، وكان تركيز البحث بشكل أساسي على الأغنيات التي سُجلت بشكل رسمي، وكان لها صدى في الساحة الفنية، وأحدثت أثراً في قضية الهجرة والاغتراب، ولامست شعور المغترب، وأثارت في نفسه الحنين إلى الديار، وقبل ذلك صوَّرت معاناته في المهجر.

كما أننا لم نقف على الأهازيج الشعبية، والمهاجل، والملالة، التي تشدو بها المرأة المنتظرة عودة زوجها الغائب خلف البحار، وهي أشياء كثيرة تستدعي الوقوف معها في بحث مستقل.

ولأن الغناء أكثر تأثيراً وتعبيراً عن حال الإنسان وواقعه، كان للأغنية دور كبير في معالجة قضية الهجرة، وتصوير حال المغترب، وحال أسرته أيضاً التي تنتظر عودته بفارغ الصبر، ولا تعرف عن مصيره شئياً، تحت أي سماء هو أو فوق أي أرض، ويتضاعف الشوق والحنين كلما مرت الليالي والأيام وانقضت السنين:

مـرتْ سـنين والقلـب مسـكن الـدودْ

محـد درى أيـن الحبيـب موجـودْ[5].

وهنا سنحاول أن نقف مع أبرز النصوص الغنائية التي كُتبت حول قضية الهجرة، سواء الهجرة الداخلية أو الهجرة الخارجية، وكذلك نظرة الشعراء إلى هذه القضية، وأثرها في نفوسهم وإبداعهم، ومدى تفاعلهم معها، وأبرز الشعراء والفنانين الذين واكبوا بإبداعهم هذه القضية، ابتداءً من وصف حالة المغترب

(5) من أغنية (مسعود هجر) كلمات الشاعر سلطان الصريمي، لحن وغناء الفنان عبدالباسط عبسي.

مُنْذُ أن يغادر داره وأحبابه، وتصوير ظروف السفر، وحال المغترب في المهجر، وحنينه إلى الديار، وصولاً إلى التغني بالعودة إلى الوطن:

راجـع لعـش الحـب فـي بـلادي الغاليـة
راجـع ونـبض القلـب ملـتحم بـه يوميـةْ
واقسـم بعـز الـرب مـا نسـيته ثانيـةْ
توبـة مـن الغُربـة والليـالي القاسـيةْ(6).

بقدر أصالة وعراقة الغناء اليمني ومواكبته لمختلف المواضيع الاجتماعية، تعددت موضوعاته وأغراضه، وواكب الكثير من الأحداث والمتغيرات، فكما واكب الغناء ثورتي سبتمبر وأكتوبر المجيدتين بأروع الأناشيد الوطنية والأغاني الثورية، واكب أيضاً الهجرة والاغتراب بأروع الأغنيات التي تناولت هذه القضية، وما سيرد من أغانٍ هنا بين ثنايا هذا البحث، ماهي إلا بعض ما غُني عن الهجرة والاغتراب، وما هي إلا نماذج حاولنا جمعها وتبويبها، والوقوف عليها بشيء من الشرح والتحليل، ولم يسبق من قبل أن تناول موضوع الهجرة والاغتراب في الغناء اليمني أي باحث بشكل موسع، إلا من بعض الإشارات لهذه الجزئية في سياق الحديث عن الأغنية الاجتماعية، وهي إشارات قليلة جداً.

في الوداع والسفر:

جسدت الأغنية اليمنية التي تناولت موضع الهجرة والاغتراب معاناة اليمني المهاجر وحنينه إلى الديار وشوقه للأهل والأحبة.. وتفنن الشعراء في تصوير تلك المعاناة مُنْذُ مغادرة المهاجر داره والأهل يلوّحون له بالسلام مودعين،

(6) من أغنية (راجع لعش الحب) للفنان محمد مرشد ناجي.

وذلك ما نجده في الكثير من الأغنيات التي سنعرج على أشهرها، ومنها أغنية "يوم السفر" للفنان أيوب طارش عبسي (1942م):

يــوم الســفر أصــبحت أوادع اهلــي
وكــل واحــد مــنهم قريــب لــي
بكــى الحبيــب مــن ســاعته وقــال لــي
أينــه تــروح يــا وحشــتي يــا خِلــي!

ويستمر الشاعر محمد طارش العبسي (1938- 2006م) ـ شقيق الفنان أيوب طارش ـ في تصوير مشهد المسافر وهو يلقي نظراته الأخيرة على داره وقريته وأحبابه، وهم يبادلونه النظرات والشعور نفسه:

ورحــت واحبــابي يتفرجــوا لــي
أســير واتلفــت مــو يقولــوا لــي
وهــم بســقف الــدار يُلَوِحُــوا لــي
ســــلام باليــــدين أشــــروا لــــي.

بكلمات شعبية بسيطة استطاع الشاعر أن يختزل لحظات الوداع ويصورها أدق تصوير، زاد من روعة وجمال هذه الكلمات اللحن الحزين الذي أبدعه فنان الوطن أيوب طارش عبسي بصوته العذب، وأدائه الطروب، وجعلها أغنية مترعة بالشجن والحنين على الرغم من بساطة الكلمات؛ لكنها كلمات تصور لحظات الفراق والوداع، لحظات تحتشد فيها المشاعر والأحاسيس، وتترقرق الدموع منسكبة على الخدين:

بعــــد الهنــــا والــــود والعنــــاقِ
دمــوع تجــري عالخــدود ســواقي
إن غبــت كــم باصــبر علــى اشــتياقي

وكيــف يكــون حــالي بعــد الفــراقِ

إنها دموع الوداع التي يذرفها المسافر وهو يودع أحبابه وخلّانه، وذلك ما نجده أيضاً في كلمات شاعر الحب والبن الشاعر الراحل الأستاذ مطهر بن علي الإرياني (1933- 2016م) في أغنية "وقف وودَّع"، التي أبدع في تلحينها وأدائها الفنان الراحل علي بن علي الآنسي (1933- 1981م):

وقــف وودَّع حبيبــي واســبل أجفانــه
وِمــس كــفــي وورَّد بــالــحــيا اوجــانــه
مــا رحَم دمــوعي مــطر فــي الــخد هتانــه
يــوم الــوداع لــيت يــا يوم الــوداع مــا كانْ

هنا وقفة الوداع ولحظاته المبللة بالدموع المنهمرة كالمطر، يبدع في وصفها شاعر مرهف الحس، ويبدع أيضاً في التقاط لحظة الإقلاع، ورفرفات قلبه المجروح الذي لا يقوى على الفراق:

حين اقلـع الركـب رفرف قلبـي المجروحْ
رجـف بصـدري شـبيه الطـاير المـذبوحْ
ودعـت روحـي وكيـف اِنسـان مالِـه روحْ
فــي حبــك أحيــا وحبــك روح للأبــدانْ.

هكذا كان وداع المسافر، بحرقة ومرارة وألم، وهو ما يؤكده أيضاً الشاعر الدكتور سلطان الصريمي بقصيدته الشعبية الشهيرة "مسعود هجر"، وهي أيضاً واحدة من أهم أغاني الهجرة والاغتراب:

مــن قلــة المصــروف وكثــرة الــدَّيْن
بگَّــر مســافر فجــر يــوم الاثنــينْ

وقـــت الـــوداع ســـلم وقـــال مـــودع
لا تحزنـــي ششـــقي ســـنة وشـــرجع
شـــفارقك بعـــد الـــزواج بأســـبوعْ
العـــين تـــدمع والفـــؤاد موجـــوعْ
شـــاتذكر الحنـــا وحمـــرة الخـــد
شـــاتذكر الزفـــة واليـــد باليـــد.

في هذه الكلمات من أغنية "مسعود هجر" للفنان عبدالباسط عبسي، أبدع الشاعر سلطان الصريمي في تصوير معاناة المرأة والرجل معاً. الرجل الذي سحقته الديون وتكاليف الحياة، واضطرته إلى السفر والهجرة بعد أسبوع من يوم زواجه، والمرأة التي لم تنعم بحياتها، فتعيش بعد هجرة زوجها مرارة البعد والحرمان.

ولأن هذه الأغنية "مسعود هجر" لامست همَّ عدد كبير من أبناء المجتمع، وصوَّرت معاناتهم، فقد حققت حضوراً كبيراً، وكانت لسان حال كثير من أبناء اليمن، في شماله وجنوبه، وقد تزامنت هذه الأغنية مع إقبال الكثير من أبناء المجتمع اليمني على الهجرة في سبيعنيات القرن المنصرم.

ومن الأغاني التي تناولت السفر أيضاً، واستوقفت الحبيب المسافر أغنية "لا تسافر" للفنان والموسيقي جابر علي أحمد التي غناها أيضاً الفنان الراحل عمر غلاب، من كلمات الشاعر حسين غالب العلي:

"عـــش بجنبـــي لا تســـافرْ
لا لا
يـــا حبيبـــي لا تســـافرْ
أنـــت قيثـــارٌ لعزفـــي

أنــت ســحرٌ أنــت ســاحرْ".

وكما في كلمات الشاعر حسين أبوبكر المحضار (1930- 2000م) التي ترنم بها الفنان عبدالرحمن الحداد:

الـوداع الـوداع باودعـك يـا حبيبـي قـل قبلـت الوداعـه

قدَّر الله علَيْ باسير والقلب محنون[7]

لو يقع لي قياسي يا منى الروح ماودي نفارقك ساعه

كيف باتكون من بعدي وانا كيف باكون

بارحل بارمي لك قلبي العاشق الوالـه فِقَه من ضياعه

شف عهودك وسرك فيه لازال مصيون[8]

كلمـا طـال بعدك زاد فـي القلب حبك مـا نويت القناعـه

كيف باقنع وقلبي في محبتك مفتون

وللفنان علي محمد الرداعي أغنية بعنوان "في داعة الله"، مطلعها:

فـي داعـة الله ومـع السلامة يـا غيث كم أروى حقول تهامـة

يوم الوداع ليت الوداع تأخرْ الله معك فـي الطـايرة وفـي البَرْ

ومن الغناء اليمني في الوداع أيضاً، من أغاني الفنان محمد مرشد ناجي، مترنماً بكلمات الشاعر لطفي جعفر أمان (1928-1971م) بأغنية "مع السلامة":

"مـع السـلامة حبيـب قلبـي بحفـظ الله

مــع الســلامة وربــي يحرســك بهــداه

(7) محنون: مشتاق.
(8) (مصيون: مُصان).

مـع السـلامة تـروح وتعـود بـإذن الله
لا غيبـك يـا حبيبـي فـي وداعـة الله
مع السلامة..
قلبـي معـك كلمـا بـارق بأرضـك شـن
قلبـي معـك كلمـا طـاير لإلفـه حـن
قلبي اللي من حرقة الأشواق ياما أنّ
ماشي معي لك سوى كلمة رعاها الله
مع السلامة..
اكتـب جوابـات ولـو كلمـة تطمنـي
كلمـة تنـور ظـلام روحـي وتسـعدني
خلـي عزانـا خطـاب منـك ورد منـي
أودعـك واكـتم الدمعـة وحسـبي الله
مع السلامة..
لا غيبـك يـا حبيـب لا غيبـك والله
أيـش بـا يسـلي فـؤادي غيـر قولـة آه
أمـري إلـى الله أشـكي لـه ومـالي سـواه
لا غيبـك يـا حبيبـي فـي وداعـة الله
مع السلامة"[9].

ومن أغنيات الوداع "مقدر والنبي اودعك" لحن وغناء الفنان عبدالرب إدريس:

مـا أقـدر والنبـي اودعـك خـذني يـا حبيبـي معـك

(9) (كتاب غنائيات المرشدي) صـ 39.

مثـل الظـل أنـا باتبعـك حتـى لـو طلعـت القمـر

يا روحي بلاش السفر

يـا دوب اجتمـع شـملنا والأحبـاب مـن حولنـا

هنونـا وغنـوا لنـا لمـا عـدت مـن غيـر شـر

يا روحي بلاش السفر

عدت انتـه وعـاد الأمـل والجـرح العميـق انـدمل

واللحـن الجميـل اكتمـل واحيينـا ليـالي السـمر

يا روحي بلاش السفر

بعـدك نـار فـي مهجتـي فـي قربـك دوا علتـي

لـو تصـبر علـى فرقتـي قلبـي والنبـي مـا صـبر

يا روحي بلاش السفر

ما بنسى دموع الفراق ولا أنسى البكا والعنـاق

حبـك فـوق مـالا يطـاق أنـا يـا حبيبـي بشـر

يا روحي بلاش السفر

وأغنية "في سلم الطائرة" للشاعر اليمني يسلم بن علي، غناء الفنان/ طلال مداح

فـي سـلم الطـائرة بكيـت غصـباً بكيـت علـى محبـين قلبـي عنـدما ودعـوني

وشـفت محبـوب قلبـي بـين نخلـة وبيـت ينـاظر الطـائرة يبغـى يحـرك شـجوني

فعـلاً أنـا عنـدما شـفته بعينـي بكيـت وقلـت بـالله يـا أهـل الطـائرة نزلـوني

بشوف محبوب قلبي عادني ما انتهيت وان كنت غلطان يا اهل الطائرة فهموني

يـا آهتـي آه كـم بـاقول يـا ليـت يـا ليـت عسـى محبـين قلبـي عـادهم يـذكروني

خاف انهم يعشقوا غيري وأنـا مـا دريـت أحسن لي الموت لو هذا حصل خبروني.

وأغنية "ما أمرَّ الرحيل)" كلمات الشاعر محمد عبدالباري الفتيح (1938 - 2013م)، ألحان وغناء الفنان عبدالباسط عبسي.

الليـــل يـــا بلبـــل دنـــا غلـــس واســـمر عنـــدنا
غنـــي وغـــرد بيننـــا قبلمـــا ننـــوي الرحيـــل
يـــا بليبـــل والصـــراب دق بيـــده كـــل بـــاب
والغـــواني فـــي عـــذاب تـــدعي وا رب مـــن لنـــا

الرجال أنووا الرحيل

كلنـــا ســـقى وبتـــل كلنـــا كـــان لـــه أمـــل
يجنـــي مـــن كـــدّه عســـل مـــا جنـــى غيـــر الضـــنى

والتغني بالرحيل

الرفـــافِح فـــي يـــدي والجـــراح فـــي ســـاعدي
وانـــا اشـــارح موعـــدي والـــبلاد ضـــاقت بنـــا

ما بقى غير الرحيل

أيهـــا الشـــاكي لمـــن تشـــتكي غـــدر الـــزمن
مـا رأيـت مـن غيـر ثمـن حـــد قـــد نـــال المنـــى

لا تفكر بالرحيل

أنـت فـي أرضـك كـريم بالشـــقا أو فـــي النعـــيم
والمهـــاجر كـــاليتيم مهجلـــه لا الليـــل دنـــا

آه ما امَرِّ الرحيل.

وأغنية "لا أين يا رجال؟" كلمات الشاعر محمد عبدالباري الفتيح، ألحان وغناء: عبدالباسط عبسي.

يا رب حتـــى الطيور قد ملّتْ الأوكـارْ
ماعـد بقـى الا منـاجي دمعُـه كالأنهـارْ
إذا زَرَع للـريـــاح جهيـشُه والأثمـارْ
ليلُـه طويـل وأنيسُـه الكوكـب السـيارْ

***

لايـــن اشتســـافر وا عنـدليـــب
تَـــذُر شبابـــك ورونـقـــهُ؟
تحيـــي بـــه كمـــن فَـــلَا جـــديب
ووكـــرك الوحشـــة تســـحقُه
يســـتحلفك غُصـــنك الرطيـــب
أمـانـتـــــك لا تفـارقُـــــه
لا تغتـــرب دمعـــي السكيـــب
شِـــلعب بخـــدي وشِحرقُـــه

***

لا أيـــن لا أيـــن يـــا رِجَـــالْ
ردوا فـكـــل الـرُبـــا عتـــابْ
مـــن بعـــدكم قـــد عَـــرتْ جبـــالْ
وبعدكـــم سـافـــرت شعـــابْ
روابـــي البُـــن والجمـــالْ
بـــلاد تكتســـي الخـــرابْ
تُنـــاجي السَحـــب والنِبـَـــالْ
ريقِـــه يَحـــف والبتـــول غـــابْ

***

والغـائبيـــن ذوبتنـــا نـــــار غربتهـم
نهجــل نغنـــي لهـــم، نحلـم بعودتهـــم
مـا يـوم هَـبَّ النسيـــم إلا وقريـتهـــم
تقـول: ويلـي أنـا مـن طـول غيبـتهم.

وأغنية "جنَّحت"، كلمات الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان (1917 - 1982م)، ألحان وغناء: أيوب طارش عبسي.

جَنّحـت واجنـاحي حديـد لا ريـشْ
فارقـت أرضـي حيـث احـب واعـيشْ
لا أيـن لا أي الـبلاد مـا ادريـشْ؟
كـوخي حديـد غنيـت مـا سـمعنيشْ
حديـد مـن أيـن للحديـد يطـربْ؟
حديـــد لا ذاق الهـــوى ولا حـــبْ
لا شـيء فـي روحـي سـوى اشـتياقي
للنهـــر للرعيـــان والســـواقي
ولـهفتـــي لفرحـــة التلاقـــي
لمـــن فـــؤادي فـــي هـــواه بـــاقي
شـــاعود للخـــلاّن والأحبـــةْ
شـــاعود يكفينـــي شـــجن وغربـــة
شـــاعود للأشـــجار والعصـــافيرْ
ملونـــات الـــريش والمنـــاقيرْ
وللحمـــام البـــيض والشـــحارير

وللمواشـــي الســـائمات والبيـــر
راجـع لشـمس الصـبح والمغـارب
راجـع لبـرد الظـل فـي الشـواجب
شُـبَّابة الراعـي افصـحي وهـاتي
ورددي لحنـــــي وأغنيـــــاتي
لفجـــر عمـــري لصِـــبا حيـــاتي
لقريتـــــي لجـــــدولي لشـــــاتي
هُنـــاك أحلامـــي وزرع حُبـــي
هُنـــاك إلهـــامي ووحـــي قلبـــي.

المغترب والحنين إلى الوطن:

الأغنيات التي جاءت على لسان المغترب وهو في أرض المهجر كثيرة، وكلها تصف حاله مُنْذُ أن تطأ قدماه أرض المهجر، وتصف شعوره العميق بالغربة والحنين إلى الوطن، ومعاناته والمشقة التي يتحملها في سبيل البحث عن عمل يضمن له ولأسرته العيش بكرامة.

وفي هذا المحور من البحث سنحاول أن نقف مع أهم الأغنيات التي جاءت على لسان المغترب اليمني في كل دول المهجر.

ومن أبرز الأغنيات التي تصف حال المغترب، وتفاصيل حياته في الغربة، أغنية "البالة" للفنان الراحل علي عبدالله السمة التي أبدعها شعراً الشاعر القدير مطهر بن علي الإرياني، رحمهما الله، فها هو يشدو بلسان المغترب قائلاً:

"بحثت عن شغل في الدكة ومينـا "عصب"
وفـي الطُـرق والمبـاني مـا وجـدت الطلـب
شـكيت لإخـواني البلـوى وطـول التعـب

فقــالوا: البحــر، قلــت: البحــر وا ســاعية

****

وعشـت فـي البحـر عامـل خمستعشـر سـنة
فـي مركـب "اجريكـي" أعـور حـازق الكبتنـة
وســوّد الفحــم جلــدي مثلمــا المدخنــة
وطفــت كــم يــا بَلَــوِدْ أرضــها قاصــية

****

مـن كـان مثلـي غريـب الـدار مـا لـه مقـرْ
فمـا عليـه إن بكـى وأبكـى الحجـر والشـجرْ
ابكـي لـك ابكـي وصـب الـدمع مثـل المطـرْ
ومــن دم القلــب خلِّــي دمعتــك جاريــة

****

غنيــت فــي غربتــي "يــا الله لا هنتنــا"
ومـزق الشـوق روحـي فـي لهيـب الضـنى
راجــع أنــا يــا بــلادي يــا ديــار الهنــا
يــا جنتــي يــا مــلاذي يــا أمــي الغاليــة

في الأبيات السابقة يتتبع الشاعر تفاصيل حياة سنين طويلة من حياة المغترب اليمني، ويصفها بدقة متناهية، بلغة سهلة بسيطة واضحة، وبتعبيرات قريبة إلى منطق العامة وأفهامهم، كقوله: "أعور حازق الكبتنة"، "وسوَّد الفحم جلدي مثلما المدخنة"، و"كم يا بَلَوِد"، "وابكى الحجر والشجر"، و"ابكي لك ابكي"، و"يا الله لا هنتنا".. من هنا أيضاً اكتسبت القصيدة حيويتها، ولامست شغاف قلب كل مغترب عاش تفاصيل هذه التجربة، كما عزز التلحين والأداء

الفريدان بصوت الفنان الراحل علي عبدالله السمة من تأثير هذه الكلمات، بلحن قريب ومستوحى من التراث الشعبي اليمني.

وفي مقطع آخر من أغنية "البالة" يتذكر المغترب زمن مغادرته بلاده "زمان الفنا" والطاعون:

خرجت انا من بلادي في زمان (الفنا)
أيام ما موسم الطاعون قالوا: دنا
وماتوا اهلي ومن حظ النكد عشت أنا
عشت ازرع الأرض واحصد روحي الذاوية

كل هذه المعاناة التي أوردها الشاعر على لسان المغترب كانت تقف وراء غربة الكثير من أبناء الوطن، وكانت سبباً لهجرتهم. لقد تظافرت عوامل هجرة اليمني عن أرضه، حتى أصبحت تؤرخ بحدتها كالطاعون، والجدب، والجراد، كرمز لقهر الإنسان بسلطة القمع وقسوة الطبيعة، حتى أن الأرض تنبت ولا تثمر، وحتى أن المرء يزرع حقوله ويحصد حياته بيده؛ لأن عمره أينع للموت بديلاً عن إيناع سنابله للمناجل، غير أن اليمني جوّاب أرض على امتداد تاريخه، فلا بد أن يرحل، فيهتدي مقيم براحل، كما يقص المقطع الثالث من قصيدة "البالة":

ذكرت اخي كان تاجر أينما جا فرش
جو عسكر (الجن) شلوا ما معه من بقش
بكر غبش: أين رايح؟ قال: أرض الحبش
وسار، واليوم قالوا حالته ناهيه
بَكّرت مثله مهاجر، والظفر في البُكَر
وكان زادي مع اللقمة ريالين حجر

وابحـرت فـي سـاعِيَة تحمـل جلـود البقـر
والـــبن للتـــاجر المحظـــوظ والطاغيـــة

يحدد هذا المقطع القهر السياسي الذي كلف الاغتراب، فعلى شح الأرض بالخير وشح التجارة بالربح، فقد كان عساكر الطغيان يستلبون القليل والأقل(10).

ومن الروائع الغنائية التي أتت على لسان المغترب أغنية "يا طير يا رمادي"، كلمات الشاعر د. سعيد الشيباني، ألحان وغناء الفنان محمد مرشد ناجي، وفيها يناجي المغترب الطير بقلب يملؤه الشوق:

بـــالله عليـــك يـــا طيـــر يـــا رمـــادي
تفـــرد جنـــاح تردنـــي بـــلادي

ويصف حاله ومعاناته، وبعده عن الوطن (خلف البحار) لأكثر من أربعين عاماً:

خلـف البحـار مـا حـد درى بمـا بـي
ضـاع الشـباب وانـا علـى عـذابي
جنّيـت أنـا يـا رب وطـار صـوابي
طـــال الشـــقا ولا كُتـــب كتـــابي

***

مـــن أربعـــين مـــن الســـنين واكثـــرْ
أنـــا هنـــا مـــن قريتـــي مزفَّـــر
قلبـــي قنـــع رضـــي بمـــا تقـــدَّر
لا عـــاد شـــكى همـــه ولا تحسَّـــر.

(10) (فنون الأدب الشعبي) عبدالله البردوني ـ صـ 375.

ورغم مرارة البعد وقساوة الغربة التي نستشفها من الأبيات السابقة، والتي عبر عنها الشاعر بقوله: "طال الشقا ولا كُتب كتابي"، إلا أن المغترب اليمني يستبشر بانبلاج فجر جديد، فجر سبتمبر بثورته المجيدة، ولم يفقد المغترب الأمل، فها هو صوت المذيع وصوت الثورة المباركة، يعيد إليه روح الأمل وعنفوان شبابه، ومن هنا ندرك أن المغترب كان يحمل على عاتقه في غربته هم وطنه وقضاياه:

صـــوت المـــذيع بكـــر يـــدق بـــابي
مثـــل الصـــباح أعـــاد لـــي شـــبابي
يعلـــن علـــى الـــدنيا علـــى الروابـــي
شـــرع الســـماء وحكمنـــا النيـــابي
أنـــا فـــدا صـــنعاء فـــدى بـــلادي
فـــدا حقـــول الـــبن فـــي كـــل وادي
أنـــا فـــدا شـــعبي بكـــر يُنـــادي
مـــن الظـــلام والقيـــد حـــرر بـــلادي
بـــالله عليـــك يـــا طيـــر يـــا رمـــادي
تفـــرد جنـــاح تردنـــي بـــلادي.

ومن الأغاني التي أتت على لسان حال المغترب، أغنية "غربة عذاب" للفنان عبده إبراهيم الصبري، وقد قدم الصبري عدداً من أغاني الهجرة والاغتراب، في عدة محافل وجلسات خاصة في المملكة العربية السعودية:

غُربـــة عـــذاب كفـــوا العتـــاب عنـــي
لا تحرقـــــوا قلبـــــي وتظلمـــــوني
أصـــــبحتْ أتمنـــــى لقـــــا الأحبـــــة

لكـــــنهم بـــــالعكس خاصـــــموني
واليـــوم أصـــبحتُ حـــزين مفـــارقْ
أشـــكي لربـــي بالـــذي بلانـــي
طيـــر الحمـــام ابكـــي ونـــوح مثلـــي
وردد الآهـــــــات والأغـــــــاني
واحمـــل تحيـــاتي لنـــور عينـــي
شـــريك روحـــي وقمـــر زمـــاني.

وللفنان عبده إبراهيم الصبري عدد كبير من الأغاني حول الهجرة والاغتراب، ومنها أيضاً:

شاعيش لي كالطير فوق الاغصانْ
وحيـــد أتـــرنم بنغمـــة الـــدانْ
غريـب والغربـة عـذاب وحرمـانْ
لهيـب واشـواق وابتعـاد وهجـرانْ
يـوم السـفر سـالتْ دمـوعي الـوانْ
علـى فـراق الأهـل وهجـر الاوطـانْ
يـا حسـرتي ليـت البعـاد مـا كـانْ.

كما نجد الفنان اليمني قريباً من المغترب، لاسيما أثناء زيارة الفنان للدول التي يقيم فيها المغترب اليمني، فنجده يقدم أغانيَ فيها روح الأمل والتفاؤل، ويتساءل عن حال المغترب، وهمومه، وأوضاعه، كما في أغنية "كيف الحال يا مغترب" للفنان الراحل فيصل علوي:

كيـــف الحـــال يـــا مُغتـــربْ
يـــا طيـــار فـــوق السُـــحبْ

هـــل أنـــتَ علـــى مـــا يجـــبْ

أم إنـــــك بحالـــــة صـــــعبْ

كيـــف الحـــال وانـــتَ بعيـــدْ

هـــل أنـــتَ بهـــذا ســـعيدْ

وهـــل حققـــت بـــه مـــا تريـــدْ

يـــا مـــن للـــيمن تنتســـبْ

أهلـــــك دائمـــــاً يســـــألوا

لا ملـــــــوا ولا بطلـــــــوا

مشـــــغولين بـــــك يشـــــغلوا

مـــن قلـــك براحـــة كـــذبْ

طالـــتْ يـــا أخـــي غيبتـــكْ

إحْنَـــا ننتظـــر عودتـــكْ

يـــا عيبـــاه يـــا لومتـــكْ

يـــامن للخطـــأ ترتكـــبْ.

وللمغترب أغانٍ يشدو بها في غربته، ويستذكر فيها أحبته وبلاده، ومنها، الأغنية الشعبية "الغراب السوادي" غناء الفنان أيوب طارش عبسي، وفيها يخاطب المغترب الغُراب قائلاً:

وا يـــاذا الغـــراب الســـوادي

وا شـــاتخبرك مـــن بـــلادي

ومـــن قريـــة جنـــب وادي

وفيهـــا حمـــاحم ســـوادي

وفيـــه الحمـــام والحمامـــة

وفيهـــــا صـــــبايا غنامـــــا

الليلـــة هـــو بـــراد الليـــل.

ومن الأغاني التي كان لها أثر كبير في نفس كل مغترب يمني، لا سيما في المملكة العربية السعودية، أغنية "وا مفارق بلاد النور" كلمات الشاعر أحمد علي مانع الجنيد، وقد أبدع فيها لحناً وغناءً الفنان أيوب طارش عبسي، وأذكت هذه الأغنية حنين المفارق وشوقه، وتزامنت هذه الأغنية ـ إبان حرب الخليج الأولى ـ مع عودة الكثير من المغتربين اليمنيين إلى اليمن ممن كانوا مقيمين في المملكة العربية السعودية:

وا مفارق بلاد النور وعد اللقا حـــــــان

الوفا للوطن يدعوك لبّي النـــــــدا الآن

لا تغيبوا كفى غربة ولوعة وأحـــــــزان

اليمن تنتظركم يا حبايب بالاحضـــــــان

يا أحبة ريـــــــاض الأنس صحرا وقفرة

الحزَن بعدكم أطفا شمـــــــــوع المسرّة

والندى في الحقول يبكي علـــى كل زهرة

والأماني تناديكم بأعشـــــــاش الأشجان

يا غريب الوطن يكفيك غربة وأسفـــــار

الوفا دين ياالله شرّفوا الأهل والـــــــدار

لا تردوا الرسائل ما تطفي الـــــورق نار

والنقود ما تسلّي من معه في الهوى شان

لُمْ أحبابنا يا شوق من كل مهجـــــــــر

دق ناقوس جمـــــع الشمل في كل محضر

لاجل حزن الشجي المهجور يسلى ويستَرّ
والأماني بأوتار القلوب تعزف الـــــــدان
لاح فجر الهنا بالنور يكتب رســـــــــائل
فوق برج اليمن يا كل باني وعـــــــامل
وابتسم للمطر والسيل حـــــــزنه خمايل
والمولع مكانه ماسك الكــاس عطشـــان.

ومن هذه الأغاني كذلك "أيش الفلوس" كلمات العزي محمد دحوة الشميري، ألحان وغناء أيوب طارش عبسي:

أيش الفلوس يـا اخي ومـا اشـا بـه ... يـــومي نكـــد وليلتـــي كآبـــه
أنـــا الغريـــب لـــو تمتلـــي جيابـــه ... والا أطيـــر الجـــو مـــع الســـحابه
مـــاذا جنـــى أبـــي ومـــا جـــرى بـــه ... أضـــاع عمـــره وأضـــاع شـــبابه
ســـتين ســـنة فـــي الهـــم والكآبـــه ... حتـــى أتـــى عزريـــل يـــدق بابـــه
وراح لـه مسكين مـا احد درى بـه ... ولا عيـــون تبكـــي ولا ندابـــه
كـم يـا ديـون فوقـه وكـم طلابـه ... حتـى المقـوت مـا غلـق حسـابه

***

لهفـــي أنـــا إن المصـــير واحـــد ... لكـــن نفســـي فـــي الهـــوى تعانـــد
تـــزين الأطمـــاع والمفاســـد ... ولا ارتضـــت يومـــا بشـــور واحـــد
ويـــوم تشـــارع ذا ويـــوم تشـــادد ... وكلفتنـــي كـــل شـــي وزايـــد
وهـــذا يتوكـــل وذاك شـــاهد ... والـبعض أعطـي لـه عسـاه يسـاعد
واضحيت فقير ما في الجيوب فاقد ... صـفر اليـدين مـن العنـا أكابـد
ومن جديد هاجرت يا عذابه.

وكذلك أغنية "يا رايحين الوطن"، كلمات وألحان الشاعر أحمد سالم البيض، غناء كلٍّ من الفنان عبدالرحمن الحداد، والفنان كرامة مرسال:

يا رايحين الوطـــــن زدتم بقلبي لهيب الشوق لي في وطاني

حبي لأرض اليمــن باقي ولا ينتسي ما دمت عـــربي يماني

يا مسقط الراس فيك العــز والحب دام ردوا على من سأل بعد التحية السلام

قولوا لباهي الوجـــــن ** ماذا جرى لا خبر منك ولا خط جـــــاني

خليتني في سهـــــن ** عد الشُّهُر والليالي وأنت مبسوط هــاني

نتخبَّر الليل لا خيم وحـــــــل الظلام.

ردوا على من سأل بعد التحية السلام

ما رق قلبك وحـــــن ** من بعد ما اوهبت لك عطفي وقوة حناني

من بعد ما الـراس دن ** لاجلك وشاع الهوى ما بين قاصي وداني

وبـــــرغم كل التحدِّي والتعب والملام

ردوا على من سأل بعد التحية السلام

واللي طواه الزمـــــن ** اتركه انساه لا عوده لماضي زمـــــــاني

مادام لي حسن ظـن ** في حاضر الحب يروي قلب عطشان ضاني

والقلب عنصر قوي موقعه في الجسم هـــام

ردوا على من ســــــأل بعد التحية السلام

ما باه عهد الوثـــن ** عهد التباهي وحب الذات مـــا باه ثاني

بل مقصدي كل من ** يوفي بعهد الهوى ويصون أغلى الأماني

يخلص مع صاحبه بالفعل لا بالكـــــلام

ردوا على من سأل بعد التحية السلام.

ومن الأغاني التي تدعو المهاجر إلى الارتباط بوطنه والوفاء له، وعدم نسيانه، أغنية "دعوة الأوطانْ" كلمات وألحان الشاعر حسين أبوبكر المحضار، غناء الفنان محمد مرشد ناجي:

حين يدعيك ضبضب أو جبل شمسانْ

استجب في الآن

يا فؤادي المعذب سيبك النسيان

حب في القلب راسخ للجبال الشوامخ

ذي تربيت فيها وانقضى لك بها شان

حان الوفا حان

**

لك بها أصحابْ

يذكرونك إذا شع القمر أو غابْ

عيشهم ما طاب

شملهم ما تجمع خطبهم ما زان

حب في القلب راسخ للجبال الشوامخ

ذي تربيت فيها وانقضى لك بها شان

حان الوفا حان

**

كنت فيها طير

كنت تسرح وتضوي بالأمل والخير

ما تهم الغير

من روى عنك يروي صدق أو بهتان

حب في القلب راسخ للجبال الشوامخ

ذي تربيت فيها وانقضى لك بها شان

حان الوفاء حان

**

لك عليهم دين

لك محل ما تغير في سواد العين

أنت منه وين

أنته في الشعب الأخضر تقطف الأغصان

حب في القلب راسخ للجبال الشوامخ

ذي تربيت فيها وانقضى لك بها شان

حان الوفا حان

**

عُد إليهم عود

عُد لتلك المراعي والجبال السود

واللقا موعود

أنت ما زلت واعي ذاكر اللي كان

حب في القلب راسخ للجبال الشوامخ

ذي تربيت فيها وانقضى لك بها شان

حان الوفا حان.

"أنا مشتاق با سافر" كلمات الشاعر يسلم باسعيد، غناء الفنان الراحل أحمد يوسف الزبيدي:

أنـا مشـتاق بـا سـافر متـى الإقـلاع يـا طيـار
أنـا صـابر علـى نـارين تجمّـل قـرِّب المشـوار
مقصـودي أشـوف الـزين علـى بُعده أنـا محتـار
ودمعي جرح الخـدين بسرعة تفضح الأسـرار
لها قلبي اقتسم نصفين وفكري في هواها احتار
أنـا قلـت الهـوى راحـة واتـرى مـن لهيبك نـار
ومن يقدر على جراحه جراح الحب والأسرار
وانا من ضمن سواحه غريب الحب ما لي جار.

"راجع لعش الحب" لحن وغناء الفنان محمد مرشد ناجي:

راجـع لعـش الحـب فـي بـلادي الغاليـة
راجـع ونـبض القلـب ملـتحم بـه يوميـةْ
واقسـم بعـز الـرب مـا نسـيته ثانيـةْ
توبـة مـن الغُربـة والليـالي القاسـيةْ
مـن فلـت الجِربـةْ ابتلـى بالكاويـةْ
مهمـا يكـون كسـبه مـا تهنَّـى العافيـةْ
مـن يفـرق ارضـه هـان وانحـدر للهاويـةْ
مـن يُوجـد الإنسـان مثـل أرضـه حانيـةْ؟

"ارجـع لـحولك" كلمات الشاعر الراحل عبدالكريم المربد، ألحان أحمد عبدالرحمن الكعمدي، غناء الفنان أيوب طارش عبسي:

ارجـع لـحولك كـم دعـاك تسـقي
ورد الـربيع مـن لـه سـواك يـجني
والـزرع أخـضر والجهـيش بالأحجـان

***

فـــي غيـــبتك ذيـــب الـــفلاة حـــايم
علـــى المـــواشي والـبـــتول نـايـــم
وانـتـــا علـــى الـــغربة تـــعيش هـــايم
سعـــيد وغيـــرك مـــبتلي بـــالاحزان

***

مـــا شـــاش مكـــتوبك ولا الـصـــدارة
قـصـدي تـعـود حتـى ولـــو زيـــارة
قـــالدمع تـــرّك عالـــخدود أمـــارة
والوحـــدة زادت فـــي القُليـــب أشـــجان

***

غـــبني عـــلى عمـــري جـــرت ســـنينه
أمـــا الفـــؤاد قـــد زاد بـــه حنـــينه
لـيـتـــك تـــعود تـشـــفيه مـــن أنـيـــنه
ويـنـــجلي همـــي ونـــصلح الـــشان.

"نوح الطيور" كلمات سعيد علي علوان المساح، لحن وغناء أيوب طارش عبسي:

نـوح الطيـور أثـار فـيّ الأشـجانْ **لمـــن بقلبـــي حـــبهم تمكـــنْ**
وزادنـــي فـــوق الهمـــوم أحـــزانْ **فراقـي المحبـوب وغربـة الـدارْ**
أبكـي وانـوح علـى فـراق الأحبـابْ **واعيش فـي الغربـة شقي معذبْ**
أسـائل النـاس مـن أتـى ومـن غـابْ **عمَّن لهم في القلب نصب تذكار**
أعيش غريب حيران جسد بلا روحْ **أهـيم وجـداً والفـؤاد مجـروحْ**

وكـم أبـات مـع السـهاد للصـبح أرسـم لأحبـابي صـور وأشـعارْ
أشـتاقهم شـوق الزهـور للمـاء شـوق العيـون للنـور بعـد ظلمـه
وأحلـم بسـاعات التلاقـي كُـلْ مـا ذكـرت ماضـي بـالنعيم يزخـرْ
ليـه يـا زمـن فرقـت بيننـا البـين وأحرمت من دنيا السعادة قلبين
ليـا سـنين أشـكي الفـراق والبـين واستجدي نفعاً من زمان قد جارْ
مـالي مـن الـدنيا وكـل مغـري مـالم يكـن جنـب الحبيـب وكـري
قـرب الحبيـب جنـة نهـور تجـري ومـن فراقـه العـذاب والنـارْ.

أغانٍ تصف حال المرأة:

تظل المرأة التي هاجر زوجها أو ابنها عالقة بأمل عودته، مهما طالت السنين والأيام، وتظل عودة زوجها الغائب ـ في نظرها ـ أغلى من المال والذهب، ومن كل الأشياء التي يمكن أن يرسلها إليها:

مـا شـاش مكتوبـك ولا الصـدارة
قصـدي تعـود حتـى ولـو زيـارة
قـا دمعـي تـرّك عالـخدود أمـارة
والوحـدة زادت فـي القُليـب أشـجانْ

وتظل المرأة أيضاً تترقب عودة المغترب بشوق كبير، وتعد الأيام والسنين، وتدعو على من كان سبباً في مغادرته وطنه، ونجد ذلك في كلمات الشاعر عبدالله سلام ناجي، التي لحنها وغناها الفنان فرسان خليفة، كما غنتها الفنانة المصرية شريفة ماهر:

غايـب سـنين قـالوا السـنة وصـوله
الله يصـيب مـن كـان سـبب رحيلـه
كـم أذكـره بفرحتـه ومقيلـه

يــوم الســفر كــان الهــوى دليلــه

ومن الأغاني التي أتت على لسان المرأة، وعبرت عن حالها ومكنونات نفسها، أغنية "شيبت أنا والشيب ما رحمني" للفنان الراحل طه فارع، كلمات الشاعر عبدالكريم المريد، والأغنية على لسان الأم التي تتمنى عودة ابنها قبل مماتها، وفيها يقول الشاعر:

ما ناش طمع ما شاش جِرَب ولا اثوار
عــائش أنــا يــا بنــي وحيــد بالــدارْ
أشــاك تعــود يــا بنــي كفــاك أســفارْ

***

شــيبت أنــا والشــيب مــا رحمنــي
ظهــري انحنــى راح البصــر منــي
ليتــك تعــود تشــوف أبــوك يــا بنــي
أرضــك جفــاف ماتــت بــرغم الأمطــار
عجــزت أنــا والســوم منــو شُــعَلّي
منــو شَــيَتْلِم حَــبّ منــو شَــيَذْرِي
مــا اقــدرش أنــا يــا بنــي وكيــف شــرعي
عمــك قــده نــاوي شــيرهن الــدارْ

***

أنــا مقيــد بــك تقــول لعمــك
خالــك يطــالبني بتركــة أهلــك
يــا بنــي أواليــدك زادونــي همــك
مــا بــه لهــم مــؤنس ولا لهــم جــارْ

***

أشـــاك تعـــود قبـــل الممـــات ترانـــي

كيـــفَ عمـــل بـــالآخرة زمـــاني

خينـــا اشـــتجي تنـــدي الـــذي عطـــاني

أشـــاك تعـــود يـــا بنـــي كفـــاك أســـفار.

وعلى لسان المرأة أيضاً يشدو الفنان عبدالباسط عبسي، في أغنية "وا قمري غرد" من كلمات الشاعر محمد عبدالباري الفتيح:

والـــريح حلفتـــه ونجـــم ســـحرة

يقلـــه يكفـــي اغتـــراب وهجـــرة

شـــبابنا شســـرح وألـــف حســـرة

لـــو ذبلـــتْ زهـــوره زهـــرة زهـــرة.

"رسالة حبيب" كلمات الشاعر محمد طارش عبسي، ألحان تراث تعزي، أداء الفنان أيوب طارش عبسي:

بـــالله عليـــك وا مســـافر لا لقيـــت الحبيـــبْ

بلـــغ ســـلامي إليـــه وقـــل لـــه كـــم بـــا تغيـــبْ

أمسيت أنـاجي القمـر والنـاس جَمْعـه رقـودْ

أدعي لـــربي وأقول: أيحين حبيبي يعودْ؟

***

مـــا طيـــف أنـــا يـــا منـــائي للجفـــا والبعـــادْ

القلـــب مـــن فرقتـــك خلـــى حيـــاتي ســـهادْ

إلـــى متـــى وا حبيبـــي بـــا يطـــول الغيـــابْ

اذكـــر محبـــك وعـــوِّد للصـــفا والـــودادْ

***

كتبت لك ألف خط ولا رجع لي جوابْ
حتى ولو كان يحمل فيه عليا عتابْ
يا خل أوفي بوعدك واتركه ذا العنادْ
أو قد نسيت ما مضى أمرك لرب العبادْ

***

هذا جزا من يحبك تحرمه من خطابْ
ويلك من الله قد حولت حبك عذابْ
هيا كفى يا حبيبي بس كفاني التهابْ
الشوق خلى دموعي جارية في انسكابْ

"قلبي حبيبه راح" كلمات الشاعر عبدالكريم مريد، ألحان علي أحمد دبع، غناء أيوب طارش عبسي

قلبي حبيبه راح آه يا عذابه صابر وطال صبري على مصابه
سرح وخلانا مع الهواجس والحزن والحسرة على غيابه

***

وأنا بنص الليل والنجم سامرْ أسرح مع الأفكار والخواطرْ
غبش أقوم قبل الطيور أسَائِل أين الطَّبَل لو لي معه رسائلْ

***

مو به تأخر ما وصلش خطه مو أخره عن عهد أنا حفظته؟
قلبي تعب من غيبته وسكوته لا عاد أجا لي الرد ولا استلمتهُ
وا قافلة وا سارية أمانة بالله اوصفوا له الحال في غيابه

"ساعي البريد" كلمات الشاعر عبدالولي محمد الحاج، ألحان وغناء أيوب طارش:

ساعي البريد يا فاعل الجمائلْ لكل من طالت به المراحلْ
بشرتني أن الحبيب واصلْ من بعد ما اتغرب زمان طائلْ
من فرحتي قد سالت الجداولْ واخضرت الوديان والسوائلْ
وغردت من أجلنا البلابلْ واتعانق المحجان والسنابلْ

طـــرب الغصـــن ومـــالْ
يحضـــن المـــاء الـــزلالْ
والمـــــزارع والـــــتلالْ
لبســـت ثـــوب الجمـــال
وهتـــف قلبـــي وقـــال
عـــاد شمســـي والظـــلال

يا ذي السحائب امطري وشني وباركي اللقيا بعد التمني
طير الروابي جاءنا يهني يحمل بمنقاره غُصين بُني
والراعي يرقص والبتول يغني والبن قاني والعنب مُدنِّي
لما حبيب القلب قد وصلني السعد حل والهم زال عني

زال حزنـــي واحتراقـــي
حين وصل نور المآقي
والحمـــام عنـــد الســـواقي
رددیـــن لحـــن التلاقـــي
والـــذرة والـــدخن ســـاقي

مــن نــدى كــأس العنــاقِ

أهـلا بوصـلك يـا سـراج دربـي يـا وقـع أنغـامي ولحـن حبـي
في غربتك شربت كأس غُلبي وذبت من شوقي ونـار كربي
ليلــي نهــاري أبتهــل لربــي إنــك تعـود تـنعم معـي بقربــي
فأنــت إلهـامي وغـالي كسـبي ونـور أعيـاني ونـبض قلبـي.

فنانو المهجر وتأثيرهم الإيجابي في نشر الهوية والثقافة اليمنية

أ. فؤاد علي الشرجبي (*)

(*) موسيقي وباحث ـ البيت اليمني للموسيقى والفنون.

يعيش المواطن اليمني مُنْذُ القدم مراحل حياتية صعبة في جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهذا يؤثر بشكل سلبي على جميع المواطنين، ويتضاعف هذا التأثير أكثر عند العاملين في المجالات الثقافية، وأكثر بكثير عند العاملين في المجالات الفنية، وفي مجال الغناء بالتحديد، نتيجةً للنظرة الدونية من قبل بعض شرائح المجتمع اليمني لممارسي مهنة الغناء والعزف على الآلات الموسيقية والإيقاعية وغيرها من الأدوات.

ولذلك لا عجب في تأثيره في هجرة كثير من الأصوات الغنائية اليمنية، إما بشكل إجباري واضطراري، أو بشكل طوعي لغرض تحسين المعيشة والظهور والانتشار في إطار أوسع، حيث توالت الهجرات الفنية مُنْذُ بدايات القرن العشرين في ثلاث وجهات:

1- دول الجوار في الخليج العربي، بالذات المملكة العربية السعودية، ودولة الكويت، ودولة الإمارات العربية المتحدة.
2- دول شرق إفريقيا مثل جيبوتي، والصومال، والحبشة، وتنزانيا، ومنها تم التأثير على بقية الدول الإفريقية التي هاجر إليها اليمنيون.
3- دول شرق آسيا مثل إندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة، وكذلك الهند (حيدر آباد) وغيرها.

وهناك نوعان من الهجرة الفنية:

- هجرة فنية استوطنت بلاد المهجر، وتجنس الفنان بجنسية الدولة التي هاجر إليها.
- هجرة فنية استقر فيها الفنان في الدولة التي هاجر إليها دون أن يحمل جنسية هذه الدولة.

لكن الأهم في كل هذه الهجرات، أن الفنان اليمني استطاع أن يؤثر بشكل واضح في هذه المجتمعات الجديدة عليه، وأن ينشر الغناء اليمني بكل أشكاله وإيقاعاته ورقصاته، وأن يؤثر بشكل جلي وواضح على الذائقة الفنية الجمعية في هذه الدول. ويستمر هذا التأثير عشرات السنين حتى أصبحت هذه الأغاني جزءاً من ثقافة وفنون تلك البلدان.

فعلى سبيل المثال، في العام 1906م، ومع بداية أولى التسجيلات بالحاكي (الجراموفون) في الجزيرة العربية التي سعى إليها سنوك هوروخرونيه، وهو مسؤول رفيع في الدبلوماسية الهولندية عبر البحار، وكانت مهمته تنحصر في رصد واستشراف اتجاهات الفكر للشعوب، وقام بعمل تسجيلات كثيرة ومتنوعة عبر ترتيب يشرف عليه السيّد محمد سعيد تاج الدين، أحد أقطاب نقل حجاج جنوب شرق آسيا بالسفن البخارية، مع القنصلية الهولندية في جدة، وعبر مندوبه وشقيقه في الحجاز السيّد جمال الدين آل تاج الدين، وسُجل على تلك الإسطوانات قدراً هائلاً من كل ما يمكن أن يخطر على البال مما يخص الموروث الحجازي، بين عامي 1906 و1909م: قصار السور من القرآن الكريم - أذان الحرم المكي - ابتهالات دينية - موشحات - مديح نبوي – غناء - تراث محكي.

لذا تم استجلاب أهم الأصوات الجميلة والمتمكنة من اليمن، ومن أهم الأصوات التي سجّلت الأذان المكّي، المقرئ والمدّاح اليماني الشهير جابر أحمد رزق، من أهل صنعاء أصلاً، الذي انتقل إلى الحديدة هارباً من مضايقات هددت استقراره وحياته قبل أن ينتهي به المطاف في الحجاز.

وبعدها مكث هناك ليسجل أول حالة هجرة فنية إلى الجزيرة العربية، في العام 1906م، واستمر التسجيل على الاسطوانات الشمعية في مشروع سنوك طيلة ثلاثة أعوام، من 1906- 1909م.

كما قام المنشد والمغني اليمني الشهير حينها السيّد الماس محمد هاشم، المشهور بمظهره (بعمامة العلماء والمنشدين) ، وكانت آلة القنبوس (العود اليمني القديم - الطربي) ترافقه في جميع أغانيه.

وفي وثيقة لمحمد سعيد تاج الدين أرسلت لأخيه في منتصف عملية التسجيل عام 1907م، نجده يحدد له ما تم توثيقه من التسجيلات، ومن هذه الوثيقة نخلص إلى أن أول التسجيلات اليمانية التي جرى تسجيلها في مكة عام 1906م كانت على النحو الآتي:

أذان، وقراءات من القرآن الكريم، وابتهالات دينية، وتواشيح إسلامية، وكذلك مجموعة من الأغاني المشهورة آنذاك مثل:

- حوري على رضوان.
- أراك طروباً.
- في حط لك يا منى قلبي على الخد شامة.
- ما القميري ترنّم في الظلام.
- ما حركت سكنات الأعين النجل.
- تردّوا على طرفي النوم الذي سُلبا.
- ليذهب في ملامي كيف ما ذهبوا.
- حذاري سيوف الهند.
- بات ساجي الطرف.
- أسعد الله مساك.

- نالت على يدها.
- صادت فؤادي بالعيون الملاح.
- سبت بذاك المحيا طلعت البدر.
- إذا عقد اللثام بداها لالا.
- يا رب سألتك بسورتي حاء وميم.
- ما بين معترك الأحداق والمهج.
- قال الشجي الهايم اسمع يا فهيم.
- يا بروحي من الغيد هيفا كالهلال.
- قال المعنّى بدت قمري.
- يا ساري الليل قم وانظر حروف العشّاق.
- يا الله يا عالم الضمايِر.
- جرحت قلبي بلحظ منك فتّاك.
- رهيني الهوى يشكي من يودّه.
- يا اهل الهوى اليوم خلّي أطال.

• أما في الاتجاه الآخر من اليمن فقد كان لأبناء حضرموت النصيب الأكبر في الهجرة والتوسع بالانتشار لأغراض تجارية في المقام الأول، أو لتحسين المعيشة والحصول على فرص أفضل في العيش، وقد نقلوا معهم ثقافتهم وفنونهم وأخلاقهم السامية التي جعلت الكثيرين يتأثرون بهم.

لذلك، نرى، وبشكل جلي، تأثيرات الثقافة والفنون الحضرمية في شرق آسيا، حيث حافظت الجاليات الحضرمية على ثقافتها اليمنية والإسلامية، واختلطت بالمجتمعات الآسيوية وأثرت فيها، لتنتشر من خلال هذا الحراك الفني الكثير من الإيقاعات والألوان الغنائية، سواء الغناء الصوفي، أو الغناء

الحكمي، أو الطربي، وكذلك الرقصات الشعبية الحضرمية مصحوبة بجميع أزيائها وأدواتها وطقوسها الفريدة والمميزة. وكما هو معروف عن أبناء حضرموت بأنهم جميهم يتمتعون برحابة الصدر في تقبلهم للغناء، فنجدهم إلى جانب معرفتهم العميقة بأمور دينهم وتفقههم بذلك، يفسحون كثيراً للمشاركة في الغناء، وعزف الإيقاع والتصفيق الجماعي الموحد، لذا تجدهم في الأفراح كأنهم جوقة واحدة.

كما لا ننسى أن أشهر المطربين والمغنين الحضارمة بدؤوا بالغناء الصوفي على يد الحبايب في تريم، وأولهم الفنان اليمني والعربي الكبير أبوبكر سالم، الذي تجاوزت أغانيه العالم العربي، ليصبح أشهر الفنانين اليمنيين المهاجرين، وقد حافظ طوال سنين حياته على الأغنية الحضرمية بشكل خاص، والأغنية اليمنية بشكل عام.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين انتقل الفنان اليمني أبوبكر سالم إلى جدة، ثم إلى بيروت، سعياً منه لنشر أغانيه على مستوى الوطن العربي. وبسبب حرب لبنان عاد إلى المملكة العربية السعودية وحصل على الجنسية السعودية، لتستمر إقامته هناك ويذيع صيته الفني في كل أرجاء الجزيرة العربية والوطن العربي. تلاه الفنان الكبير الدكتور عبد الرب إدريس الذي لحن للكثير من مشاهير الغناء الخليجيين والعرب، وعمت شهرة أغانيه جميع أرجاء الوطن العربي. ثم هود العيدروس، وعلي الصقير، وعلي العطاس، وغيرهم من الفنانين الذين استقر بهم المقام في المملكة العربية السعودية.

وفي الكويت، انتقل الكثير من الغناء اليمني عبر البحَّارة، ويعد المطرب عبدالله فضالة أول من ردد الغناء اليمنى في الكويت، وبعده قام العديد من المطربين الكويتيين بتداول الغناء اليمني، وكان حمد خليفة هو أول من غنى

الغناء اليمنى المعروف حالياً "بالعدني" في الكويت، وقد أخذه أصلاً من عمر محفوظ غابه (يمني)، وبعدهم الكثير والكثير.

وفي الإمارات، نجد الفنان (علي بن محمد) من غيل باوزير، قد حصل على الجنسية الإماراتية، وقبله الفنان (عبد المنعم العامري). وقد تميز الفنان علي بن محمد بأنه لايزال محافظاً في طابع أغانيه على الشكل والمضمون الحضرمي وغيره من ألوان الغناء.

كما نجد عدداً من الفنانين اليمنيين في الداخل قد قاموا برحلات فنية متواصلة إلى جميع الدول العربية، منهم:

- الفنان الكبير أحمد بن أحمد قاسم، وله تسجيلات لحفلات كثيرة في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- الفنان محمد مرشد ناجي، وله تسجيلات لحفلات كثيرة في الكويت، وأشهرها "على امسيري".
- الفنان محمد سعد عبد الله، له الكثير من التسجيلات لحفلات في المملكة العربية السعودية.
- الفنان أيوب طارش عبسي، له الكثير من التسجيلات لحفلات في سلطنة عمان والسعودية.
- الفنان فيصل علوي، له الكثير من التسجيلات لحفلات في البحرين والسعودية.
- الفنان عبد الرحمن الحداد، له الكثير من التسجيلات لحفلات في المملكة العربية السعودية.
- الفنان أحمد يوسف الزبيدي، له الكثير من التسجيلات لحفلات في المملكة العربية السعودية.

- الفنان كرامة مرسال، له الكثير من التسجيلات لحفلات في الكويت والسعودية.

كما أن الفنان والموسيقار أحمد فتحي يشكل حالة استثنائية بين فناني المهجر. وكما نعرف جميعاً أنه غادر الوطن اضطرارياً، ولكنه حافظ على هويته الفنية اليمنية وعلى لهجته، مع أن زوجته وأولاده يحملون الجنسية الإماراتية، وكان يمكنه بسهولة الحصول على أيٍّ من الجنسيات الخليجية، إلا أنه أصر إلا أن يكون سفير اليمن فنياً في كل المحافل الدولية، فله فعاليات موسيقية شهيرة في أوروبا، مع أشهر الفرق السيمفونية كموسيقار يمني يمثل بلده بمجهوده الشخصي دون أي دعم من حكومات بلده.

- **أما في الجانب الإفريقي:**

فنجد الفنان اليمني الكبير عبد القادر بامخرمة، الذي ولد في جيبوتي بعد أن هاجر والده إليها، وهو بعد أحد عمالقة جيل الرواد، مثله مثل العنتري، والقعطبي، والجراش، والماس، وباشراحيل. وغيرهم. وفي رأيي وحسب ذوقي الخاص، فإن بامخرمة هو أكثرهم تميزاً في العزف والصوت وطريقة الأداء وحسن الاختيار، وقد حقق فنه شهرة واسعة داخل اليمن وفي جيبوتي، وخدم الأغنية اليمنية ونشرها بين السكان الأصليين، وجعلهم يتذوقون الغناء اليمني كما يتذوقون غناءهم المحلي. وقد التقيت في فترة سابقة مع أحد أبنائه، وهو الفنان التشكيلي الكبير ووزير الثقافة الأسبق لطفي عبدالقادر بامخرمة، وفي أثناء زيارته لنا في "البيت اليمني للموسيقى والفنون" أهدانا مجموعة كبيرة من الأغاني اليمنية بصوت والده، كان قد سجلها لنفسه أو في استوديوهات إذاعة جيبوتي. كما ظهر في الصومال الفنان علي سعيد الخنبشي، وهو من مواليد مقديشو عام 1942م، وكانت آنذاك عاصمة للصومال الإيطالي، ونشأ الخنبشي

وترعرع فيها مع أقرانه من أبناء الجالية العربية عامة والحضرمية خاصة، وضمن الأسر الحضرمية التي عاشت في الصومال.

بدأ كعازف ناي، وتأثر كثيراً بالغناء الهندي، مثله مثل الفنانين الذين تأثروا بالفن الهندي، كمحمد جمعة خان، وأحمد عبيد قعطبي، ولكنهم صاغوا هذه الألحان بكلمات عربية وغناء يحمل الهوية اليمنية، وحقق شهرة كبيرة، وسجلت له العديد من الأغاني في العديد من الإذاعات الأفريقية.

• الأغنية اليمنية على لسان اليهود اليمنيين الذين هاجروا من اليمن في منتصف القرن العشرين، حيث نلاحظ أن الجاليات اليمنية المقيمة في أرض الاحتلال أو في أمريكا تحافظ على هويتها الثقافية اليمنية، كما يعملون جاهدين على نشر الأغنية اليمنية بجميع تفاصيلها وخصوصيتها الإيقاعية والمقامية.

كما أن هناك جمعية فنية من الجالية اليهودية تعنى وتتابع وتراقب كل الإنتاجات الفنية، وتحرص بشدة على الحفاظ على كل تفاصيل الهوية اليمنية، من حيث الغناء، والعزف، والملابس، والإكسسوارات اليمنية القديمة. وقد اشتهرت الفنانة عفراء هزاع بأغانٍ يمنية، وحصلت على أعلى جوائز الغناء العالمي.

وهناك الكثير والكثير من فناني المهجر لم تستوعبهم هذه الورقة المختصرة، ولعلنا في بحث قادم نثري هذا الموضوع بالمزيد من البحث والسفر والمتابعة والاطلاع.

مجلس أمناء مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية

1- أ/ علوان سعيد الشيباني - رئيس المؤسسة
2- أ/ عمر محمد عمر يعقوب - نائب رئيس المؤسسة
3- م/ جمال عمر محمد يعقوب - عضو
4- صادق منصور الجُماعي - مدير عام المؤسسة
5- أحمد عبدالملك الشيباني - عضو
6- محمد سعيد الأسودي - عضو
7- مها شمسان العزعزي - عضو
8- فارس عثمان الهبوب - عضو
9- بلقيس علي الشيباني - عضو
10- علي أحمد الحضرمي - عضو

مُهاجِرون

مساهمات اليمنيين على مستوى العالم كثيرة، وتكاد تكون الأكثر تأثيراً على اقتصاديات وثقافات بعض البلدان التي هاجروا إليها وانخرطوا في بنائها وضمن نسيجها الاجتماعي، سواء كان ذلك في دول جنوب شرق آسيا أو شرق أفريقيا أو الخليج العربي، وغير ذلك من البلدان.

ومما يؤسف له أن بعض البلدان قد تنكَّرت لدور اليمنيين الحضاري في نهضتها الاقتصادية والاجتماعية. ومن هذه الخلفية، ولدت تبني مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية فكرة إعداد دراسة موسعة عن دور المغتربين والمهاجرين اليمنيين في بلدان المهجر، وتبلورت هذه الفكرة في الأشهر الأخيرة من العام ٢٠١٩م.

دراسة "الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية" بأجزائها التسعة، هي حصيلة جهود باحثين مرموقين في مجالات التاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والأدب والفنون والصحافة والسياسة والاحصاء لعامين كاملين،

مخرجات هذه الدراسة هي ايضاً متاحة أمام المهتمين في منصة إلكترونية انشئت لهذا الغرض، ليسهل الوصول إلى مفرداتها بدون عناء.

لا نقول عن هذه الدراسة بأنها شاملة وتحيط بكل التفاصيل والمفردات، ومع ذلك فنحن نجزم بأنها محاولة جادة في معاينة ظاهرة الهجرة اليمنية، وتفتح أمام الدارسين والمهتمين مساحات جديدة للمعاينة والإضافة في قادم السنين.

علوان سعيد الشيباني
مؤسس ورئيس مجلس أمناء
مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية

مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية
Al Khair Foundation For Social Development
Al Khair
info@muhajirun-ye.org
www.muhajirun-ye.org